

هذه الرواية هدية من

للترجمة
والنشر
الأجيال

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل
أن توفر لك هديتنا المجانية قراءة ممتعة.
يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية
(وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أغاثا كريستي

الإصبع المتحرك

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٢

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجبال
للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٢ بعنوان

The Moving Finger

Copyright Agatha Christie Mallowan 1943

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٢٠

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفدّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون باستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال، إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص (وإن بدت غير ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً) أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني، أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، ومن ثمّ لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلاث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يَمَلَّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكنَّ مَنْ قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيَّب عنه بعض التفاصيل المهمة، كما فوّت عليه الاستمتاع بكثير من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذِّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثيرٌ منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحبكة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نسقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسمي بطلي أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكانهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقل حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطع كاملة منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبّر عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثيرٌ من المتأدّبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها، فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القراء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثوا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثة كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لما رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرَف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوا إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجم بعدُ إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

* * *

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلف) ففقدنا معهم اتفاقاً ووقعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق أكثر من عشر سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفدنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العاملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاية ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة أُخضعت الترجمات لمراجعة كاملة دقيقة لكل نص مترجم؛ أسلوبياً ولغوياً ونحوياً وإملائياً، مع العناية بالتفكير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفِّذَ هذا العمل لدى أفضل

مراكز الصف، وبُذِل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراء لميول كثير من القراء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجعةُ بعد المراجعةُ للنص النهائي المصنوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاء الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عمل ممكن يطيقه الجهد البشري.

* * *

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب العلم ولم نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالبٌ -إذا عمل- بأن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغانا كريستي من الجمال والرقِي ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجم- في النص المُعرَّب.

وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديراً بالحصول على الأفضل. وهذا هو بالذات ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفقنا؟ نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خيرُ حَكَم.

الأجيال

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجْنَا اعْتِمَادَ الفصاحة بلا تكلّف، فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «السَّلْطَة» و«الكُشْكُ»، ومثل قولهم: «سَرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرّفه من عمله) و«أشَرَّ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخَلَطُ فيه بين المذكور

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، والرأس مذكّر لا يجوز تأنيثه (كما يشيع في الكتابات المصرية خاصة).

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درج على الألسنة والأفلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام، مثل قولهم: «خصيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«جاؤوا سوياً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سوياً» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي أسماء الشهور اخترنا كتابة الاسم العربي للشهر متبوعاً بالاسم الأعجمي بين قوسين، لأن من بلدان العرب (مع الأسف) من لا يعرف أهلها أسماء الشهور العربية، كأهل مصر وأكثر بلاد الجزيرة العربية وبلدان المغرب العربي كلها. فنكتبها بهذه الطريقة: حزيران (يونيو)، تشرين الثاني (نوفمبر)، إلخ.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد من يكتب إذن بالألف، لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها، فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «مما» (من ما) و«عما» (عن ما) و«إلا» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثير من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: «وهو أقرب إلى الصواب». وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَّت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل، وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كليهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً، وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضممة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس، كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشدَّة -خصوصاً- في غير المواضع المدركة سليقةً، إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة، فهي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهم»، بها يتم المعنى ويَصِحُّ المقصود.

وَاتَّبَعْنَا فِي تَحْدِيدِ الْعَلَامَاتِ وَمَوَاضِعِهَا الْأَصُولَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا أَهْلُ
الْبَحْثِ وَاللُّغَةِ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْعَلَامَةُ أَحْمَدُ زَكِي بَاشَا فِي كِتَابِهِ
الْقِيمُ «التَّرْقِيمُ وَعَلَامَاتُهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ» مَعَ بَعْضِ التَّصْرِيفِ بِمَا
يُؤَافِقُ الْأَصُولَ الْحَدِيثَةَ الْمُتَّبَعَةَ فِي عَالَمِ النُّشْرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها
مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً.

فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها بـاء بثلاث نقاط، فاعتمدنا
لها الباء العادية، إذ ليس من المتيسر في الصف والطباعة توفير بـاء
مثلثة، كما أن هذا الرسم غير متفق عليه ولا هو معتمد من جهة
علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف
(V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة.

أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي
يسمونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت
اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأملت مخرج هذا الحرف
ومخرج الجيم لوجدتهما متباعدين تباعداً بيناً، ولوجدت أن ما
يقاربه في لغتنا مخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف.
وقد كان هذا الصوت يُكتب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً
فوقها خط، وهي صورة لم يُتَّفَقَ عليها فماتت واندثرت. وأهل
الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غيناً،
وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه. وانظر كيف كتبوا
أكثر ما عربوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا»
و«السنغال» و«بلغاريا» و«غرينتش»... وأمثال ذلك كثير كثير.

وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. واستثنينا من الكتابة بالعين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبة إليها (إنكليز وإنكليزية) لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا.

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقّقة (كما في: cat)، والألف المفخّمة (كما في: car)، والألف الممالّة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالّة المرقّقة (كما في: bone)، والواو الممالّة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالّة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعيّ الياء فكتبناها ياءً، ما عدا الألف الممالّة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings)، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيسْتِنَغْز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آمليْن أن يكون اجتهدنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب، فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلفة في سطور

تُعتبر أغانا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَنْ كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِع منها بليونَي (ألفي مليون) نسخة!

وُلدت أغانا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغانا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها، فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرضٍ ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين؛ جربي وسترين".

عندئذ كتبت أغانا كريستي أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو

للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب، وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين، وبعدها حبسها الناشر السابع في أدراجه لمدة ثمانية عشر شهراً متردداً في نشرها!

* * *

عاشت أغانا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرحٍ مُحِبٍّ للحياة وأم ذكية تحب الطموح، وقد ظلت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم، فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغانا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغانا للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طياراً شاباً اسمه آرشيالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت مرة أخرى عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مألوان، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل» و«لقاء في بغداد» و«جريمة في بلاد الرافدين» و«موعد مع

الموت». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت
بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغانا كريستي عن نفسها فقالت: «لو سُئلت عن
ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل
ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم
أجد ما يغريني بالتحقق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى
السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره
الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها،
وأبغض المدن وازدحامها».

أما رواياتها فتتميز بدقة حَبْكته وترابط أحداثها ومنطقية
تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محللةً كوامنها
باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة»
بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجل أو يسوء.
وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بد أن ينتصر الخير»،
و«الجريمة لا تفيد».

* * *

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما
بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «قضية ستايلز الغامضة»، ثم استمرّ
بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة. وهو محقق
بلجيكي وشرطي متقاعد أهم ما يميّزه ذكائه الخارق (النتائج عن
«الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان
ليس لهما مثل في بريطانيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه

الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيسْتِنْغْز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الأنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذة على الملاحظة والتحليل وفهم عميق للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكة واسعة من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

* * *

كتبت أغانا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعا وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيصة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ، إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢.

أما سيرة حياتها التي كتبها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها) حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

الإصْبَعُ الْمُتَحَرِّكُ

الفصل الأول

- ١ -

أخرجني الأطباء أخيراً من لفائف الجص بعدما عانيت منها ما عانيت، وجاءتني الممرضات يحاولن حملي بكلامهن المعسول على تحريك أطرافي بحذر. وفيما أنا مستاء من حديثهن معي وكأنني طفل رضيع أخبرني ماركوس كنتُ بأن عليّ الذهاب للعيش في الريف قائلاً: هواء نقي وحياة هادئة دون أي عمل... هذه هي الوصفة التي أقدمها لك. ستتولى شقيقتك رعايتك هناك. كُلْ وَنَمْ وَقَدْ أفراد مملكة النبات قدر الإمكان.

لم أسأله إن كان باستطاعتي الطيران من جديد، فمن الأسئلة ما لا يستطيع المرء طرحه بسبب خشيته من الإجابة. وللسبب ذاته فإنني لم أسأله -خلال الأشهر الخمسة الأخيرة- إن كان سيُحَكِّم عليّ بأن أبقى مستلقياً على ظهري طوال حياتي. كنت خائفاً من تطمين متملق لمرمضة تقول لي: كُفَّ عن ذلك، ما هذا السؤال! نحن لا نسمح لمرضانا بأن يتحدثوا بهذه الطريقة!

لذلك لم أسأل. وقد مضى الأمر على ما يرام وتبين أنني لن أكون مُقعداً عاجزاً، فقد استطعت تحريك ساقي والوقوف

عليهما، ثم استطعتُ أخيراً المشي بضع خطوات. ولئن كنت أشعر وكأنني طفل صغير يتعلم الدّرج بركبتين مرتعشتين وقدمين ملفوفتين بالقطن فإن ذلك لم يكن سوى ضعف لن يلبث أن يزول.

وقد أجباني ماركوس كنت (وهو طيب قدير) عن السؤال الذي لم أسأله، قال: سوف تتعافى تماماً. لم نكن متأكدين حتى يوم الثلاثاء الماضي عندما أجرينا لك ذلك الفحص النهائي، أما الآن فأستطيع إبلاغك بكل ثقة. ولكن الطريق سيكون طويلاً وربما يبعث على السأم، فعندما يتعلق الأمر بشفاء الأعصاب والعضلات فإن على الدماغ مساعدة الجسد، وقد يؤدي أي استعجال إلى الانتكاس. تستطيع أن تفعل كل شيء شرط أن لا تتعجل الشفاء، فأني تصرف كهذا سيعيدك إلى المستشفى مرة أخرى! عليك أن تأخذ الأمور بتمهل وارتياح، فالإيقاع هنا بطيء تماماً. ليس جسدك وحده هو الذي ينبغي أن يشفى، فأعصابك قد ضعفت بسبب اضطرارنا لإبقائك خاضعاً للأدوية لفترة طويلة. لذلك أقول لك: اذهب إلى الريف فاستأجر بيتاً هناك واهتمّ بالسياسة المحلية للقرية وبفضائها وبالقبل والقال فيها واهتمّ بجيرانك كما ينبغي، بل لو كان لي أن أنصحك لأشرتُ عليك بأن تذهب إلى مكان ليس لك فيه أصدقاء أصلاً.

أومات برأسي وقلت: لقد فكرت في هذا الأمر فعلاً.

لا شيء أشد ثقلاً على المرء من اندفاع أصدقائه لزيارته متظاهرين بالشفقة عليه فيما هم منشغلون بشؤونهم الخاصة، فلا يلبث الواحد منهم أن يبدأ بالحديث: ولكنك تبدو رائعاً يا جيري. ما رأيكم أتم؟ أه، بالتأكيد. لا بد أن أخبرك يا عزيزي... ماذا تظن

أن باستر يفعل الآن؟

لا، لا أطيق شيئاً من ذلك.. حتى الكلاب أكثر حكمة، فهي تزحف مبتعدة إلى زاوية هادئة وتلحق جراحها ولا تعود إلى عالمها إلا بعد أن تبرأ من علتها.

وهكذا أجرينا أنا وجوانا بحثاً محموماً في سجلات وكلاء العقارات في بريطانيا حتى عثرنا أخيراً على البيت المسمى «ليتل فيرز» في لايمستوك، وقررنا معاينته. وكان السبب الرئيسي لاختيارنا هذا أننا لم نَزُرْ لايمستوك من قبل قط، ولم نكن نعرف أحداً في تلك المنطقة.

عندما رأَت جوانا «ليتل فيرز» قررت على الفور أنه هو البيت الذي نريده. كان يقع على بعد نصف ميل تقريباً خارج لايمستوك على الطريق المؤدي إلى منطقة السِّباح، وهو بيت أبيض أنيق له شرفة من الطراز الفكتوري مطلية باللون الأخضر الفاتح، ويُشرف على منظر جميل فوق أرض منحدره مغطاة بالنباتات، ومن الناحية الأخرى يرتفع برج كنيسة لايمستوك.

كان البيت ملكاً لأخوات عوانس من عائلة بارثن لم تبقَ منهن على قيد الحياة إلا واحدة، الأخت الصغرى، واسمها الآنسة إميلي.

كانت الآنسة إميلي بارثن امرأة مسنة رائعة ضئيلة الجسم، ذات شكل يوحى بانسجام لا يُصدَّق مع بيتها. وقد شرحت لجوانا بصوت ناعم فيه نبرة اعتذار أنها لم تؤجر بيتها من قبل أبداً، وأنها في الحقيقة ما كانت لتفكر بفعل ذلك... "ولكن الأمور تغيرت كثيراً

هذه الأيام كما تعلمين يا عزيزتي. الضرائب بالطبع، ثم أسهمي التي كنت أظنها دوماً استثماراً مأموناً، والحقيقة هي أن مدير البنك نفسه قد أشار عليّ ببعضها، ولكن يبدو أنها لا تربح شيئاً هذه الأيام. وهي أسهم أجنبية بالطبع! هذه الحال تجعل الأمر صعباً جداً. أنا واثقة أنك ستفهميني يا عزيزتي، فأنت تبدين لطيفة جداً ولن يزعجك ما سأقوله: إن المرء لا يحب فكرة تأجير بيته للغرباء، ولكن يجب عمل شيء، كما أنني -بعد أن رأيتك- سأكون سعيدة لوجودك هنا، فالبيت يحتاج إلى حياة شابة، ولكن لا بد أن أعترف بأنني لا أحبذ فكرة وجود رجال هنا".

عند هذه النقطة كان على جوانا أن تخبرها عني، وقد تمالكت الأنسة إميلي نفسها بشكل جيد وقالت: يا عزيزتي، فهمت، يا له من أمر محزن! حادث طائرة؟ هؤلاء الشباب شجعان جداً. وعلى هذا سيكون أخوك رجلاً مُقعداً عملياً...

بدا أن تلك الفكرة قد هدأت السيدة اللطيفة الضئيلة، إذ يُفترض أن لا أنغمس في مثل تلك الأنشطة الذكورية الخشنة التي تخشاها إميلي بارتُن. وحين استفسرتُ بحياء إن كنت أدخن قالت جوانا: إنه يدخن كمدخنة، وأنا الأخرى كذلك!

- بالطبع، بالطبع. هذا غباء مني، أخشى أنني لم أتغير مع الزمن! كانت أخواتي جميعهن أكبر مني سناً، وأمي العزيزة عاشت حتى بلغت السابعة والتسعين... تصوري! وكانت شديدة التمسك بالانضباط. نعم، نعم، الكل يدخن هذه الأيام. المشكلة الوحيدة هي أن البيت ليست فيه منافض للفائف التبغ.

قالت جوانا إننا سنحضر معنا ما يلزم منها، وأضافت مبتسمة:

لن نضع أعقاب لفائف التبغ على أثاثك الجميل، هذا وعد مني لك، فأنا لا شيء يغیظني أكثر من رؤية الناس يفعلون ذلك.

وهكذا نجحت في تسوية المسألة، واستأجرنا منزل «ليتل فيرز» لمدة ستة أشهر مع خيار التمديد لثلاثة أشهر أخرى. وأوضحت إميلي بارتن لجوانا بأنها شخصياً ستكون مرتاحة جداً لأنها ستعيش في شقة تابعة للخادمة «فلورنس المخلصة» التي كانت تعمل لدى إميلي ثم تزوجت "بعد أن عاشت معنا خمسة عشر عاماً". قالت: إنها فتاة لطيفة وزوجها يعمل في مهنة العقارات. لديها بيت جميل في شارع البلدة العام، وغرفتان جميلتان في الطابق العلوي. سأكون مرتاحة تماماً هناك وستكون فلورنس سعيدة جداً لوجودي عندها.

وهكذا بدا كل شيء مُرضياً، فُوِّع العقد وانتقلت مع جوانا إلى البيت. وبما أن بارتريدج، خادمة الأنسة إميلي، وافقت على البقاء، فقد كنا موضع رعاية جيدة، وذلك بمساعدة فتاة كانت تأتي كل صباح، وكانت نصف بلهاء رغم أنها ودودة.

كانت بارتريدج امرأة متجهمة شديدة عنيدة في أواسط عمرها، وكانت ماهرة في الطهي. ورغم أنها استاءت من مشكلة التأخر في العشاء (إذ كانت عادة الأنسة إميلي أن تتناول عشاء خفيفاً من البيض المسلوق) إلا أنها كَيِّفَتْ نفسها مع أسلوبنا، وذهبت أبعد من ذلك فاعترفت بأنني أحتاج لتقوية جسدي وتغذيته.

وعندما استقرت أمورنا ومضى أسبوع على وجودنا في البيت جاءت الأنسة بارتن باحتشام وتركت لنا بطاقات تهنئة. ثم حذت حذوها كل من السيدة سيمينغتن زوجة المحامي، والأنسة غريفيث

شقيقة الطبيب ، والسيدة كالثروب زوجة الكاهن ، والسيد باي من مؤسسة برايبورز إيند. وقد تأثرت جوانا كثيراً بهذه اللفتة وقالت بصوت متهدج: لا أكاد أصدق أن أولئك الناس قد زارونا حقاً، وبطاقات تهنئة!

قلت: هذا لأنك لا تعرفين شيئاً عن الريف يا عزيزتي.

- هراء! لقد أقمت مع الناس في الريف كثيراً في كثير من العطل الأسبوعية.

- هذا لا يستوي أبداً مع العيش في الريف.

أنا أكبر من جوانا بخمس سنوات ، وحين أتذكر البيت الكبير القديم الذي كنا نعيش فيه والحقول التي تمتد أسفل منه حتى تصل إلى النهر أتذكر كيف كنت أزحف تحت شجيرات العليق دون أن يراني البستاني ، ورائحة الغبار الأبيض في الإسطبل ، وصوت حوافر الحصان وهي تضرب الأرض في داخل الإسطبلات.

وعندما بلغت السابعة وصارت جوانا في الثانية من عمرها ذهبنا لنعيش في لندن مع إحدى العمّات ، ومنذ ذلك الحين أصبحنا نقضي الأعياد هناك في حضور المسرحيات والتنزه في حدائق كينسينغتن في القوارب ، ثم اعتدنا لاحقاً الذهاب إلى صالات التزلج ، وفي شهر آب كنّا نذهب ونقيم في أحد الفنادق الساحلية.

قلت لجوانا وأنا أتأمل كل هذه الذكريات وأشعر بوخز الضمير لإحساسي أنني أصبحت مريضاً أنانياً: ستكون حياة الريف هذه مخيفة بالنسبة لك ، ستفتقدين كل شيء ، فأنت تحبين الحياة الاجتماعية مما لا يتصوّر وجوده في هذا الريف الهادئ.

ضحكت جوانا وقالت إنها لا تهتم لذلك على الإطلاق، ثم أضافت: بل إنني في الواقع مسرورة جداً للهروب من ذلك كله. لقد سئمت حقاً الأماكن المزدحمة، ورغم أنك لن تكون متعاطفاً معي إلا أنني أقول لك بأن قلبي قد انكسر على فراق بول وسأحتاج فترة طويلة حتى أتغلب على الفاجعة.

كنت مرتاباً في كلامها هذا، فسيرة جوانا في علاقتها بالشبان تسير دائماً على نفس النمط. كانت تقع عادة في حبّ مجنون لشاب ضعيف الشخصية تماماً، ودائماً ما يكون ذلك الشاب «عبقرياً لم يفهمه أحد». وهي تنفق الوقت في الإصغاء لشكاواه وتعمل كل ما في وسعها حتى تتركس الاعتراف العام بقدراته. وبعد ذلك، عندما يصبح ناكراً للجميل، تُصاب بجرح في الصميم وتقول إن قلبها قد انكسر... إلى أن يأتي الشاب الكئيب الذي يليه، ويكون ذلك عادة بعد ثلاثة أسابيع من الشاب السابق! لذلك لم أحمل مسألة قلب جوانا الكسير على محمل الجد، ولكنني أدركت أن الحياة في الريف كانت مثل لعبة جديدة بالنسبة لشقيقتي الجذابة.

قالت: على أي حال فإنني أبدو في مظهر ممتاز، أليس كذلك؟

أمعنت النظر فيها ولم أستطع موافقتها على ما تقول. كانت جوانا ترتدي تنورة ذات مربعات أبعد ما تكون عن الذوق، أما نصفها العلوي فقد غطته بكنزة سخيقة ضيقة قصيرة الأكمام، وكانت تتعل في قدميها حذاء رياضياً جديداً لا عيب فيه.

قلت: لا، كلُّك خطأ. كان يجب أن ترتدي تنورة صوفية من التويد، ويفضل أن تكون خضراء داكنة أو بنية باهتة. ويمكنك أن

ترتدي فوقها كنزة كشمير جميلة، وربما سترة من الصوف وقبعة من اللباد وجوارب سميكة وحذاءً قديماً. وعندها، عندها فقط ستجدين نفسك منسجمة مع المحيط هنا في الشارع العام لبلدة لايمستوك ولن تكوني نشازاً كما أنت الآن.

ثم قلت مضيفاً: كما أن وجهك كله خطأ أيضاً.

- وما العيب فيه؟ لقد وضعت عليه أفضل مسحوق للتجميل.

- بالضبط. لو سبق لك العيش في لايمستوك لعلمت أن الأفضل أن تضعي قليلاً من البودرة حتى لا يلمع أنفك، وربما أثراً من أحمر الشفاه لا مبالغة فيه، وتبقي على حاجبيك كما هما بدلاً من اختصارهما إلى الربع!

قهقهت جوانا وبدت مسرورة جداً وقالت: أتظنهم سيروني فطيعة الشكل؟

- لا، سيرونك غريبة الشكل فقط!

عادت جوانا تفحص البطاقات التي تركها زوارنا. زوجة الكاهن وحدها هي التي كانت محظوظة (أو العكس!) في العثور على جوانا في البيت. قالت جوانا بحماسة: أعتقد أن هذا المكان رائع فعلاً يا جيرري، جميل وممتع وينتمي إلى العالم القديم. لا يمكن للمرء أن يتصور حدوث شيء بغرض هنا، أليس كذلك؟

ورغم علمي أن ما قالته كان هراء إلا أنني وافقتها، ففي بلدة مثل لايمستوك لا يمكن أن يحدث أمر سيء. ولعل من الغريب أننا تلقينا الرسالة الأولى بعد أسبوع واحد فقط من تلك المحادثة!

أرى أنني بدأت بداية سيئة، فأنا لم أقدم أي وصف لقرية لايمستوك، وبلا فهم لطبيعة لايمستوك يستحيل فهم قصتي.

في البداية أقول إن لهذه البلدة الصغيرة جذوراً تمتد في الماضي. كانت لايمستوك في زمن الفتح النورمندي بلدة ذات أهمية كبيرة، وكانت أهميتها تلك دينية بالدرجة الأولى، فقد كان فيها دَيْرٌ خرَجَ سلسلة طويلة من الرهبان الطموحين ذوي النفوذ. وكان لوردات وبارونات المناطق الريفية المحيطة يتقربون من الكنيسة عن طريق منح الدير جزءاً من أراضيهم، وهكذا صار دير الرهبان في لايمستوك غنياً ومهماً وصاحب نفوذ في المنطقة لعدة قرون، إلى أن جاء الوقت الذي جعله الملك هنري الثامن يقاسم أمثاله من الأديرة نفس المصير. ومنذ ذلك الحين أصبحت إحدى القلاع هي التي تسيطر على البلدة، فيما بقيت للدير بعض الأهمية بما له من ثروة وحقوق وامتيازات.

وفي القرن الثامن عشر تراجع الموقع الحضاري للبلدة فانهارت القلعة، ولم تمر بالقرب من البلدة أي من خطوط السكك الحديدية أو الطرق السريعة فتحولت إلى بلدة ريفية صغيرة غير مهمة، تمتد الأرض السَّبخة من ورائها وتحيط بها المزارع والحقول الهادئة.

كان يقام فيها سوق مرة كل أسبوع، وفي ذلك اليوم كان المرء عرضة لمصادفة الماشية في الأزقة والطرقات. وكان يقام فيها سباق خيل صغير مرتين كل عام لا يشارك فيه من الخيول إلا كل مغمور

لم يسمع به أحد، وكان فيها شارع عام وحيد جميل تحفّ به بيوتُ فخمة تشوّه تناسقها واجهاتُ المتاجر في طوابقها الأرضية وهي تعرض الكعك أو الخُضَر والفواكه. وكان في الشارع العام محل كبير للأجواخ، ومحل كبير مهيب للأدوات المعدنية، ومكتب بريد مبهرج، وصَفٌّ من متاجر متناثرة لا هوية لها، ومحلان متنافسان لبيع اللحوم، و«مخازن دولية». كما كان في الشارع طيب ومكتب محاماة، وكنيسة جميلة ضخمة جداً بُنيت في مطلع القرن الخامس عشر وفيها بعض الآثار السكسونية. وكانت في القرية -بالإضافة لذلك كله- مدرسة جديدة سيئة التصميم وحانتان.

هكذا كانت لايمستوك. وبتشجيع من إميلي بارتُن جاء لزيارتنا كل مَنْ هَبَّ ودَبَّ في القرية، وكان على جوانا أن ترد -بعد ذلك- كل تلك الزيارات بعد أن اشترت قفازين ووضعت على رأسها قبعة من المخمل لم أرَ قط أسوأ منها.

بالنسبة لنا كان ذلك كله جديداً ومسلماً، فنحن لن نعيش هناك إلى الأبد. كانت مجرد فترة استراحة، لذلك أعددت نفسي للالتزام بتعليمات الطبيب والاهتمام بجيراني. وقد وجدنا أنا وجوانا في ذلك متعة عظيمة.

تذكرت تعليمات طبيبي ماركوس كِنتُ في الاستمتاع بالفضائح المحلية، وإن كنت لم أحمّن كيف ستصل تلك الفضائح إلى مسامعي. ولكن الغريب في الأمر أن الرسالة -عندما وصلتنا- سلّتنا أكثر من أي شيء آخر! أذكر أنها وصلت وقت الإفطار. قلبتها بتكاسل كما يفعل المرء حين يمرّ الوقت بطيئاً فيجد لذة في إطالة كل حدث إلى أبعد مدى له. ووجدتها رسالة محلية تحمل

عنواناً مطبوعاً على الآلة الكاتبة، ففتحتها قبل الرسالتين اللتين كانتا تحملان أختام بريد لندن، وكانت إحدهما فاتورة غير مهمة والثانية من أحد أقاربي المضجرين.

كانت الرسالة مكوّنة من كلمات وحروف مطبوعة جرى قصّها ثم لصّقتها على ورقة. نظرتُ إلى كلماتها بعض الوقت دون أن أفهمها، ثم شهقت. وقد عبّرت الرسالة التي استُخدمتُ فيها عبارات بذيئة جداً عن رأي كاتبها بأننا، أنا وجوانا، لسنا أشقاء.

كانت جوانا في تلك اللحظة عابسة وهي تنظر إلى بعض الفواتير، فرفعتُ بصرها وقالت: آه، ماذا في الأمر؟ تبدو مصعوقاً تماماً.

قلت: إنها رسالة مُغفلة من التوقيع وقدرة جداً.

كنت ما أزال أعاني من الصدمة، إذ لم يكن للمرء أن يتوقع مثل هذه الأمور في لايمستوك الهادئة.

أظهرت جوانا اهتماماً شديداً على الفور: حقاً؟ ماذا تقول؟

كنت قد قرأت في الروايات أن الرسائل المغفلة من التوقيع التي تكون ذات طبيعة سيئة مقززة لا تُعرض على النساء قدر الإمكان، ويعني هذا ضمناً ضرورة حماية النساء من الصدمة التي يمكن لتلك الرسائل أن تتركها على أجهزتهن العصبية الحساسة. ويؤسفني القول أن عدم عرض الرسالة على جوانا لم يخطر ببالي أبداً، فقد سلمتها لها على الفور، ولكنها برهنتُ على صحة إيماني بصلابتها بعدم إظهارها لأي انفعال غير السرور.

- يا لها من رسالة قذرة فظيعة! سمعت كثيراً عن الرسائل
المجهولة ولكنني لم أرَ واحدة من قبل. أهي دائماً هكذا؟

- لا يمكنني أن أخبرك، فهذه أول تجربة لي أنا أيضاً.

ضحكت جوانا وقالت: لا بد أنك مصيب بشأن مساحيق
التجميل التي أضعها على وجهي يا جيرى. لعلهم يرون فيّ فتاة
هجرها أهلها!

- نعم، ومما يشجع على هذه النظرة أن أبانا كان رجلاً طويلاً
القامة داكن البشرة ذا فك بارز، وكانت أمنا شقراء الشعر زرقاء
العينين صغيرة الجسم، وأنا أشبهه وأنت تشبهينها.

أومأت جوانا برأسها متأملة وقالت: نعم، نحن لا نتشابه
أبداً، وليس غريباً أن يستغرب الناس أننا أخوان.

- شخص ما لم يرنا كذلك بالتأكيد.

قالت جوانا إنها ترى هذا الأمر ممتعاً جداً، وأمسكت
بالرسالة من طرفها وسألت عمّا سنفعله بها. قلت: أعتقد أن الإجراء
الصحيح هو إلقاؤها في النار باشمئزاز. ثم طبقت الاقتراح فصفقت
جوانا باستحسان قائلة: لقد فعلت ذلك بطريقة جميلة، كان يجب
أن تكون ممثلاً. من حسن حظنا أن النار ما زالت متقدمة، أليس
كذلك؟

وافقتها قائلاً: من شأن سلة المهملات أن تكون حلاً أقل
درامية. كان بوسعي أيضاً إشعال النار فيها بعود ثقاب ومراقبتها
وهي تحترق ببطء.

- إن الأشياء لا تحترق عندما تريدها أن تحترق، بل هي تنظفي فوراً، وربما اضطرت لإشعال العديد من أعواد الثقاب.

نهضت وذهبت باتجاه النافذة، ثم التفتت بحدة وهي تقف هناك وقالت: ترى من الذي كتبها؟

- لا أظن أننا سنعرفه أبداً.

- نعم، أظن أننا لن نعرفه.

سكتت لحظة ثم قالت: عندما أفكر في هذا الأمر فإنني لا أراه ممتعاً. لقد ظننت أنهم... أنهم قد أحبونا هنا.

- وهذا ما صنعه فعلاً. هذا مجرد شخص معتوه غير سويّ.

- أظن ذلك. إنه عمل بغیض يثير الاشمئزاز!

بعد أن خرجت إلى ضوء الشمس فكرت في كلامها فوجدتها مصيبة فيه تماماً، كان عملاً قذراً. لقد كره أحدهم مجيئنا إلى هنا، كره أحدهم ما تتمتع به جوانا من جمال فتى، أراد أحدهم الإيذاء.

ربما كانت أفضل طريقة للتعامل مع هذا الأمر هي الضحك منه، ولكنني شعرت في أعماقي أنه لم يكن مضحكاً!

جاء الدكتور أوين غريفث ذلك الصباح. كان من دأبه أن يُجري لي كشفاً أسبوعياً شاملاً، وقد شعرت أنني أحببت ذلك الطيب. كان أسمر رث الهيئة ذا أسلوب غريب في الحركة، وكانت يدها ماهرتين ناعمتين. أما كلامه فكان متردداً متقطعاً خجلاً بعض الشيء.

أبلغني أن صحتي تتقدم بشكل مشجع، ثم أضاف: يجب أن تكون على ما يرام، أليس كذلك؟ هل أنا متوهم أم أنك حقاً معكر المزاج هذا الصباح؟

- لقد وصلتني مع قهوة الصباح رسالة شديدة البذاءة مُغفلة من التوقيع، وقد تركت في نفسي شيئاً من المرارة.

ألقي حقيته على الأرض، وانفعل وجهه الأسمر النحيل وهو يقول: هل تريد القول إنك تلقيت أنت أيضاً واحدة منها؟

أثار ذلك اهتمامي فقلت: فقد انتشر الكثير منها إذن؟

- نعم، منذ بعض الوقت.

- فهمت. كان انطباعي أن كوننا غرباء هنا لا يلقى ترحيباً.

- لا، ليس لهذا علاقة بالأمر. إنه مجرد... حسناً، وماذا جاء فيها؟

سكت قليلاً ثم احمرّ وجهه وقال بارتباك: ربما ما كان لي أن أسألك؟

- سأخبرك بكل سرور. كانت تقول إن الفتاة الرائعة التي أحضرتها معي ليست أختي ولا تكاد تقربني! وأنا أستخدمُ هنا كلاماً منقحاً مهذباً لم يرد في الرسالة.

احمرّ وجهه الأسمر غضباً وقال: تباً لهذا الأسلوب! أرجو أن لا تكون أختك قد تضايقت؟

- إن جوانا تبدو رقيقة كالملاك، ولكنها فتاة عصرية وصلبة

إلى حد بعيد. لقد وجدت الرسالة مسلّية جداً، فهي لم تصادف
مثل هذه الأمور في حياتها من قبل!

قال غريفيث بحماسة: وكنت آمل أن لا تصادفها.

قلت بصلاية: وعلى أية حال فإنني أرى أن هذه هي أفضل
طريقة للتعامل مع الأمر، التعامل معه باعتباره أمراً سخيفاً تماماً.

- نعم. إنما...

- بالضبط. المشكلة تكمن في «إنما» هذه!

- المشكلة أن مثل هذه الأشياء ما إن تبدأ حتى تتطور.

- هذا ما أخشاه.

- إنها حالة مَرَضِيَّة بالطبع.

أومأت موافقاً ثم سألته: أتوجد أي فكرة عمّن يقف خلف

ذلك؟

- لا، ليتني أعرف. إن جرثومة الرسائل المجهولة تنشأ
عن أحد سببين. فهي قد تكون محددة، موجهة لشخص معين
أو مجموعة من الأشخاص، وهذا يعني أنها ذات دافع، ويشعر
صاحبها بضغينة أو ظلم (أو هكذا يظن) ويختار طريقة سرية ماهرة
لتنفيذها. وهي طريقة وضيعة مقرفة، ولكنها ليست -بالضرورة-
ضرباً من الجنون، وفي هذه الحالة يسهل تتبع من كتبها، فتجده
إما خادماً صُرف من العمل أو امرأة شديدة الغيرة... وهكذا.
ولكن إن كانت عامة وليست محددة فإنها تصبح أكثر خطورة.

تُرسل الرسائل دون تمييز، وهي تؤدي هدفاً يتمثل في التنفيس عن إحباط كاتبها. وكما قلت: فإن هذا مرض بلا ريب. ويزداد الجنون، وفي نهاية الأمر تتعقب الشخص الفاعل لتجد أنه شخص أبعد ما يكون عن الشكوك، وينتهي الأمر. لقد انتشرت مثل هذه الظاهرة بشكل فظيع في الجانب الآخر من الإقليم العام الماضي، وظهر في النهاية أنها رئيسة قسم القبعات في مؤسسة كبيرة للملبوسات. كانت امرأة هادئة مهذبة، وكانت تعمل في المؤسسة منذ سنوات. وأتذكر شيئاً مشابهاً حدث أثناء عملي في الشمال، ولكن ظهر أن ذلك كان ناتجاً عن حقد شخصي بحت. لقد رأيت أموراً كهذه، وهي -بصراحة- عمل يخيفني!

- هل تُرسل منذ زمن بعيد؟

- لا أظن ذلك. بالطبع يصعب الجزم لأن من يتلقون هذه الرسائل لا يخرجون للإعلان عنها، بل هم يلقون بها في النار.

سكت قليلاً ثم قال: لقد تلقيتُ أنا واحدة، وتلقى المحامي سيمينغتن واحدة، ومريضان من مرضاي المساكين أخبراني عنها.

- أهي كلها متشابهة؟

- نعم. إنه عزف واضح على موضوع الجنس، هذه خاصية مشتركة فيها.

ابتسم الطبيب ثم أضاف: رسالة سيمينغتن اتهمته بعلاقات غير شرعية مع الموظفة التي تعمل عنده، أي الأنسة غينش المسكينة، التي تجاوزت سن الأربعين وتلبس نظارة ولها أسنان كأسنان الأرنب! وقد أخذ سيمينغتن الرسالة إلى الشرطة مباشرة. أما رسائلي

فتتهمني بمخالفة آداب المهنة مع مرضاي من النساء... كلها رسائل
سخيفة وصيانية، لكنها رسائل حاقدة بدرجة مخيفة.

تجهم وجهه وقال: ومع ذلك فأنا خائف، فهذه الأشياء قد
تكون خطيرة.

- وأنا أوافقك.

- رغم أنه تصرف صياني مناكف وبذيء فإن إحدى هذه
الرسائل ستصيب هدفها عاجلاً أم آجلاً. وعندها: الله وحده يعلم
ماذا سيحدث! إنني خائف أيضاً من تأثيرها على العقول البليدة
الشكّاقة غير المتعلمة، فإذا ما رأى هؤلاء شيئاً مكتوباً فإنهم
يعتقدون بصحته. قد تظهر جميع أنواع التعقيدات.

قلتُ متأملاً: لقد كانت رسالة تدل على الأمية، بل أظنها
كُتبت بالفعل بيد أمّي.

قال أوين: أحقاً؟

ثم ذهب، وعندما فكرت لاحقاً في كلمته تلك وجدتها تثير
القلق.

* * *

الفصل الثاني

- ١ -

لن أزعج أن وصول رسالتنا المَغفلة لم يترك أثراً سيئاً في نفسي، فالواقع أنه فعل، ولكن سرعان ما غاب الأمر عن ذهني، ذلك أنني لم آخذ الرسالة في ذلك الوقت على محمل الجد. أذكر أنني كنت أحدث نفسي وأقول إن هذه الأمور ربما تحدث كثيراً في القرى النائية، ربما كانت تقف خلف هذا الأمر امرأة هستيرية النزعة تميل إلى جعل نفسها موضوعاً كثيراً. وعلى أي حال فإن كانت الرسائل بمثل تلك الصبيانية والسخف كتلك التي تلقيناها فإنها لا يمكن أن تؤذي كثيراً.

بعد نحو أسبوع وقعت الحادثة التالية، عندما أبلغتني بارتريدج وهي تزم شفيتها أن بياتريس (الخدمة التي تأتي للمساعدة نهاراً) لن تأتي في ذلك اليوم. قالت بارتريدج: لقد فهمت أن الفتاة متضايقة يا سيدي.

لم أفهم ما كانت بارتريدج تلمح إليه، ولكنني ظننت -مخطئاً- أن في الأمر آلاماً معوية كانت بارتريدج أكثر رقة وتهذيباً من أن تشير إليها بشكل أكثر مباشرة. قلت لها إنني آسف لذلك،

وأرجو أن تتحسن حالتها عما قريب.

قالت بارتريدج: إن الفتاة تتمتع بصحة ممتازة يا سيدي، إنها متضايقة في مشاعرها.

قلت بارتياب: آه!

أكملت بارتريدج: بسبب رسالة تلقتها... وفهمتُ أن الرسالة تُعرضُ بها.

جعلني وجه بارتريدج المكفهر وما وضعته من تركيز على كلمة التعريض، جعلني هذا كله أخشى أن يكون لذلك التعريض علاقة بي أنا. وحيث إنني لم أكن مَعنياً أبداً بتلك الفتاة بياتريس لدرجة أنني لا أميّزها إذا ما صادفتها في البلدة فإنني شعرت بانزعاج طبيعي مبرر، فإن رجلاً مريضاً مثلي يتهادى في مشيته على عكازين لا يمكن أن يقوم بدور المخادع لفتيات القرية.

قلت غاضباً: أي هراء هذا!

قالت بارتريدج: هذا بالضبط ما قلته لوالدة الفتاة يا سيدي. قلت لها: "لم تحدث أبداً أشياء من هذا النوع في هذا البيت، ولن تحدث أبداً ما دمت مسؤولة هنا". كما قلت لها: "فيما يخص بياتريس فإن الفتيات مختلفات هذه الأيام، وبالنسبة لما يدور في الأماكن الأخرى فلا أستطيع أن أقول شيئاً". ولكن الحقيقة يا سيدي أن صديق بياتريس الذي تخرج معه ويعمل في المرأب قد تلقى واحدة من هذه الرسائل البغيضة أيضاً، وهو لا يتصرف بعقلانية أبداً.

قلت غاضباً: لم أسمع في حياتي أسخف من هذا الأمر!

- أرى أن من الأفضل أن نتخلص منها يا سيدي. رأيي أنها ما كانت لتُظهر كل هذا الضيق لو لم يوجد شيء أرادات أن لا يُكشف. لا دخان بلا نار... هذا ما أقوله!

ولم أعرف في تلك اللحظة كم ستتعبني تلك العبارة المحددة.

- ٢ -

كنت قد قررت في ذلك الصباح أن أمشي نزولاً إلى القرية من باب المغامرة (كنّا أنا وجوانا نسميها القرية، رغم أننا كنّا مخطئين من الناحية الفنية، وكان من شأن أهل لايمستوك أن ينزعجوا لو سمعونا نصفها بهذه الصفة).

كانت الشمس مشرقة والهواء بارداً ومنعشاً فيه حلاوة الربيع. حملت عكازيَّ وانطلقت رافضاً بقوة السماح لجوانا بمرافقتي، قلت: لا، لن آخذ معي ملاكاً يرعاني ويتمايل بجانبي ويسمعني كلمات التشجيع. تذكري المثل القائل إن من يسافر وحيداً يسافر بشكل أسرع، وأنا لديّ الكثير من الأعمال. سأذهب إلى غالبريث في مكتب غالبريث وسيمنغتن للمحاماة لأوقع شهادة تحويل الأسهم، وسوف أذهب إلى الخباز وأشكو له من رغيف الزبيب، وسأعيد إلى المكتبة الكتاب الذي استعرناه، ثم عليّ الذهاب إلى المصرف أيضاً. اتركيني أذهب أيتها المرأة، فالصباح قصير جداً.

اتفقنا أن تمرّ بي جوانا وتأخذني في السيارة فتعيدني إلى البيت عندما تحين ساعة الغداء. قالت: هذا سيمنحك مجالاً لقضاء النهار

مع الجميع في لايمستوك.

- ليس عندي شك بأنني سأكون قد رأيت كل من يستحق الرؤية حتى ذلك الوقت، ذلك أن الصباح في الشارع العام للبلدة يكون ملتقى للمتسوقين حيث يتم تبادل الأخبار.

ومع ذلك لم أذهب إلى البلدة مشياً دون مرافق، فما كدت أقطع مسافة متني متر حتى سمعت جرس دراجة هوائية ورائي، ثم صوت الكوابح، ثم صوت ميغان هنتر وقد كادت تقع عن دراجتها عند قدمي. قالت لاهثة وهي تنهض وتنفض الغبار عن ملابسها: مرحباً.

كنت أحب ميغان وأشعر بأسف غريب عليها. كانت ابنة زوجة سيمينغتن المحامي، أي ابنة السيدة سيمينغتن من زواجها الأول. لم يكن أحد يتحدث كثيراً عن السيد (أو الكابتن) هنتر، وقد فهمت أن الرأي السائد هو أن من الأفضل نسيانه، إذ يقال إنه كان يعامل السيدة سيمينغتن معاملة سيئة جداً، وقد افترقا بالطلاق بعد زواجهما بستين تقريباً. كانت لها أموالها الخاصة، وقد استقرت مع ابنتها الصغيرة في لايمستوك «لكي تنسى»، وفي النهاية تزوجت الأعمى الوحيد المؤهل في القرية، رتشارد سيمينغتن.

وقد نتج عن الزواج الجديد ولدان تعلق بهما أبواهما أيما تعلق، وأنصوب أن ميغان كانت تشعر أحياناً بأنها الشخص المختلف في البيت. ومن المؤكد أنها لم تكن تشبه والدتها التي كانت امرأة صغيرة الجسم شاحبة ذات نوع من الجمال الباهت، وكانت تتكلم بصوت حزين عن صحتها وعن مشكلات الخدم.

أما ميغان فكانت فتاة طويلة القامة مهلهلة الشكل ، ورغم أنها في العشرين من عمرها إلا أنها تبدو أشبه بتلميذة مدرسة في السادسة عشرة. كان شعرها بنياً غير مرتب وعيناها عسليتين مخضرتين ، وكانت ذات وجه نحيل تبرز عظامه وابتسامه جانبية جميلة بدرجة غير متوقعة. وهي عادة ما ترتدي ملابس غير جذابة باهتة الألوان وجوارب قطنية ناعمة تملؤها الثقوب. وقد رأيتها ذلك الصباح أشبه بالحصان منها بالإنسان ، والحقيقة أنه كان ممكناً -بقليل من التشذيب والعناية- أن تكون فرساً جميلة.

تكلمت كعادتها باندفاع لاهث: كنت في المزرعة... مزرعة لاشر ، لأرى إن كان عندهم بيض بط. إن لديهم الكثير من الخراف الصغيرة الجميلة! هل تحب الخراف؟ أنا أحب حتى رائحتها. حسناً ، أنت ذاهب إلى البلدة مشياً؟ رأيتك تمشي وحيداً ففكرت أن أقف وأمشي معك ، إلا أن وقفتي جاءت فجائية!

- لقد مزقتِ جواربك!

نظرت ميغان إلى ساقها اليمنى بشيء من الحزن وقالت: نعم. ولكن كان فيها ثقبان من قبل ، ولذلك فلا يهم الأمر كثيراً.

- ألا ترتقين جواربك أبداً يا ميغان؟

- أحياناً ، عندما تكتشف أمي أمري. ولكنها لا تلاحظ كثيراً ما أفعله ، وهذا من حسن حظي نوعاً ما ، أليس كذلك؟

- يبدو أنك لا تدركين أنك فتاة ناضجة.

- أعني أنني يجب أن أكون مثل أختك... متأنقة؟

كرهت - إلى حدٍّ ما- وصف جوانا بهذا الوصف، ولكنني قلت: إنها تبدو نظيفة ومرتبة تسر الناظر إليها.

- إنها جميلة جداً. ولكنها لا تشبهك أبداً، لماذا؟

- الإخوة والأخوات لا يتشابهون دائماً.

- نعم، بالطبع. أنا لا أشبه برايان أو كولين كثيراً، كما أن برايان وكولين لا يشبه أحدهما الآخر.

سكتت قليلاً ثم قالت: أليس هذا غريباً؟

- ما هو الغريب؟

ردّت ميغان باختصار: العائلات.

قلت متأملاً: نعم، ربما.

تساءلتُ عما يدور في ذهنها بالضبط، ثم مشينا صامتتين لبعض الوقت إلى أن قالت ميغان بصوت فيه نبرة خجل: أنت طيار، أليس كذلك؟

- بلى.

- وهل هذا هو السبب في إصابتك؟

- نعم، تحطمت طائرتي.

- لا أحد هنا يطير.

- نعم، لا أظن ذلك. هل تحبين الطيران يا ميغان؟

بدت مدهوشة وقالت: أنا؟ يا إلهي! لا، ربما أصابني

بالدُّوَارِ. إنني أصاب بالدوار حتى في القطار!

سكتت ، ثم سألتني بتلك المباشرة التي لا يُظهرها عادة سوى الطفل: هل ستتعاफी تماماً وتعود إلى الطيران من جديد أم أنك ستبقى عاجزاً إلى الأبد؟

- يقول طيبي إنني سأكون على ما يرام.

- نعم، ولكن هل هو من النوع الذي يكذب؟

- لا أظن ذلك. بل إنني واثق من هذا في الواقع ، فأنا أثق فيه.

- إذن لا بأس... ولكن كثيراً من الناس يكذبون.

قبلتُ هذه الحقيقة (التي لا يمكن إنكارها) بصمت.

قالت ميغان وكأنها تُصدر حكماً محايداً: هذا يسعدني. كنت أخشى أن يكون السبب فيما يبدو عليك من مزاج سيئ أنك ستكون مُقعداً دوماً، ولكن إن كان ذلك مجرد طبع فالأمر مختلف.

قلت بيروود: لست سيئ المزاج.

- أنت إذن سريع الغضب.

- أنا أغضب لأنني أستعجل استرداد لياقتي من جديد، وهذه الأمور لا يمكن استعجالها.

- ففيمَ القلق والاحتجاج إذن؟

بدأتُ بالضحك، ثم قلت: يا عزيزتي، وماذا عنك؟ ألا تستعجلين أي شيء؟

فكرت ميغان في السؤال ثم قالت: أبدأ، ولماذا أستمعجِل؟
لا شيء يدعو إلى العجلة، فلا يحدث شيء أبداً.

لفتت انتباهي نبرة كثيبة يائسة في كلماتها فقلت بلطف: ماذا
تفعلين بنفسك هنا؟

رفعت كتفيها غير مبالية وقالت: وماذا لديّ لأفعله؟

- أليست لديك أي هوايات؟ هل تمارسين ألعاباً معينة؟ هل
لك أصدقاء هنا؟

- أنا فاشلة في الألعاب، كما أنني لا أحبها كثيراً. أما الفتيات
في هذه البلدة فقليلات، وأنا لا أحبهن، كما أنهن يروني فظيعة.
- هراء! لماذا يرونك هكذا؟

هزت ميغان رأسها، فسألتها: ألم تذهبي إلى المدرسة؟

- بلى، وعدت منها قبل عام.

- هل أحببتِ المدرسة؟

- لم تكن سيئة، مع أنهم يعلمون المرء الأشياء بطريقة
سخيفة جداً.

- ماذا تعنين؟

- أعني... مجرد نُتف صغيرة من هنا وهناك. يجتزئون ويبدلون
من موضوع لآخر. كانت مدرسة رخيصة، كما أن المدرسين لم
يكونوا جيدين، لم يكن بوسعهم الإجابة عن الأسئلة بطريقة
صحيحة.

- قليلون من المدرسين يستطيعون ذلك.

- ولماذا لا يستطيعون؟ هذا واجبهم.

وافقتها، فقالت: إنني غبية بالطبع، والكثير من المواد تبدو لي تافهة. التاريخ على سبيل المثال... إنه يختلف باختلاف المراجع!
- وهذا مكن المتعة فيه.

- والقواعد، والإنشاء السخيف، وكل هذه الحماقات التي كتبها شيلي وهو يلغو بكل ذلك الكلام عن قُبْرَة، وذلك الآخر ورُدسُورث الذي ذهب عقله على بعض أزهار النرجس السخيفة. وشكسبير...

سألتها باهتمام: ما العيب في شكسبير؟

- إنه يعصر نفسه ليقول أموراً بأسلوب صعب بحيث لا تفهم ما يعنيه. ومع ذلك فإنني أحب بعض ما كتبه شكسبير.

- أنا واثق أن من شأنه أن يُسرَّ لو عرف بذلك.

لم تشكّ ميغان بأي سخرية في عبارتي، وقالت وقد أشرق وجهها: أحب -على سبيل المثال- شخصيتي جونيريل وريغان.

- لماذا هاتان بالذات؟

- آه، لا أعرف. إنهما مُقْنَعَتان إلى حد ما. لماذا تظنهما كانا كذلك؟

- كذلك ماذا؟

- كما كانا... أقصد أن شيئاً قد جعلهما هكذا دون شك.

وتعجبتُ لأول مرة. كنت قد تقبلتُ دائماً ابنتي الملك لير
الكبيرتين باعتبارهما امرأتين بغيضتين بلا تفكير، ولكن سؤال
ميغان عن السبب أثار اهتمامي، فقلت لها: سأفكر في هذا الأمر.

- لا يهم، كنت أتساءل فقط.

- حسناً، ألم تحبّي أي مادة أخرى؟

- الرياضيات فقط.

قلت مدهوشاً: الرياضيات؟!!

أشرق وجه ميغان وقالت: لقد أحببت الرياضيات، ولكنها لم
تُدّرّس بشكل جيد. كان بودي لو أتعلم الرياضيات بطريقة جيدة،
فهي رائعة. إنني أعتقد بوجود شيء رائع في الأرقام، أليس كذلك؟

قلت صادقاً: لم أشعر بمثل هذا الشعور قط.

في تلك اللحظة كنا ندخل الشارع العام في البلدة، وقالت
ميغان بحدة: ها هي الأنسة غريفيث... امرأة بغيضة.

- ألا تحبينها؟

- بل أنا أمقتها، فهي تلاحقني دائماً كي أنضم إلى جماعتها
من فتيات الكشافة الكريهات، وأنا أكره فتيات الكشافة. لماذا
يلبسن زيهن الخاص ويخرجن في مجموعات ويضعن الشارات
من أجل شيء لم يتعلمن عمله بطريقة صحيحة؟ أظنه أمراً تافهاً.

كنت أميل إجمالاً للاتفاق مع ميغان، ولكن الأنسة غريفيث
أقبلت علينا قبل أن أتمكن من التعبير عن موافقتي تلك.

كان لأخت الطبيب (واسمها إيمي) من الثقة الوطيدة بنفسها ما لا يملكه شقيقها، وكانت وسامتها من النوع الرجولي الذي سفعته الشمس والأنواء، ولها صوت محبب عميق. صاحت بنا: مرحباً أنتما الاثنين. أليس هذا صباحاً رائعاً؟ أنت يا ميغان الإنسانية التي أردت رؤيتها، أريد مساعدتك في كتابة عناوين الرسائل المرسلة إلى جمعية المحافظين.

تمت ميغان بعبارة مراوغة، ثم أسندت دراجتها على حافة الطريق ودخلت «المخازن الدولية» بطريقة مقصودة.

قالت الأنسة غريفيث وهي تنظر إليها: يا لها من طفلة غريبة! كومة عظام كسولة تقضي وقتها متسكعة هنا وهناك. لا بد أنها محنة كبيرة للسيدة سيمينغتن المسكينة. أعرف أن والدتها حاولت أكثر من مرة أن تحملها على تعلم مهنة ما، الطباعة بالاختزال أو الطبخ أو تربية الأرانب... إنها بحاجة للاهتمام بالحياة.

شعرت أن ذلك ربما كان صحيحاً، ولكنني شعرت بأنني -لو كنت مكان ميغان- لعارضت بقوة أي اقتراح للأنسة غريفيث لسبب بسيط، هو أن شخصيتها العدوانية من شأنها أن تتعبنى كثيراً.

أكملت الأنسة غريفيث: أنا لا أحب الكسل، ولا سيما لدى الشباب. وميغان ليست بتلك الفتاة الجميلة أو الجذابة، بل إنني لأظنها معتوهة في بعض الأحيان. إنها خيبة أمل كبيرة لأمها.

ثم خفضت صوتها قليلاً وقالت: كان أبوها رجلاً سيئ السلوك، وأخشى أن ترث الفتاة صفاته، وهو أمر مؤلم لأمها. على أية حال... إن عمران الدنيا يتطلب وجود مختلف أصناف

البشر، هذا ما أقوله.

أجبتها: وهذا من حسن الحظ.

ضحكت إيمي غريفيث بمرح وقالت: نعم، ما كنا لنُفلح لو خُلقنا جميعاً من نمط واحد. ولكني لا أحب رؤية أحد لا يأخذ كل ما يمكنه من هذه الحياة. أنا نفسي أستمتع بحياتي، وأريد لكل امرئ أن يستمتع بها أيضاً. يقول لي الناس إنني أشعر بالملل القاتل من الحياة في الريف طيلة العام، وأجيبهم بأن ذلك غير صحيح إطلاقاً، فأنا مشغولة دائماً وسعيدة دائماً! هناك دائماً أمور تجري في الريف. إن وقتي مُستنفد كله، بسبب الكشافة والمعهد واللجان المتعددة، ناهيك عن العناية بأخي أوين.

في تلك اللحظة رأت الآنسة غريفيث إحدى صاحباتها على الجانب الآخر من الطريق، فنادتها محيية ثم ذهبت إليها وتركتني حراً لمتابعة طريقي إلى المصرف.

رأيت في الآنسة غريفيث شخصية ذات تأثير طاع لا يترك للمرء مُتنفساً، رغم أنني كنت معجباً بنشاطها وحيويتها. وكان أمراً جميلاً أن ترى عليها علامات الرضا المبتهج بحظها في الحياة، ذلك الرضا الذي كانت تبديه دائماً، على النقيض تماماً من تتمات الشكوى الخافتة التي تطلقها كثير من النساء.

بعدما أنهيت عملي في المصرف بشكل مُرض ذهبت إلى مكتب محاماة غالبريث وسيمنغتن. أرشدوني إلى مكتب رتشارد سيممنغتن الداخلي الذي كان فيه من القَدَم ما يوحى بمكتب محاماة عريق، وقد حفل بالعديد من خزائن الوثائق الكثيرة التي كُتبت على

ملفاتها أسماء براقه مثل الليدي هوب والسير إيفرارد كار والراحل
وليام هوريس... وكان ذلك كله يعطي الجو المطلوب المعبر عن
عائلات الريف الإقطاعية وعن مكتب حمامة عريق مستقر.

عندما راقبت السيد سيمينغتن وهو منكب على الوثائق التي
أحضرتها له أدركت أن السيدة سيمينغتن -إن كانت قد لاقى مصيبة
في زواجها الأول- فإنها قد أحسنت الاختيار في زواجها الثاني
بالتأكيد. كان رتشارد سيمينغتن مثلاً للاحترام الرزين، من ذلك
النوع من الرجال الذين لا يسببون لزوجاتهم لحظة واحدة من
القلق. كان ذا عنق طويل وحنجرة بارزة ووجه شاحب وأنف طويل
نحيل. ما من شك أنه كان زوجاً صالحاً وأباً جيداً، ولكنه لم يكن
ممن يجعلون النبضات تتلاحق بجنون.

وسرعان ما بدأ السيد سيمينغتن حديثه. كان يتكلم ببطء
ووضوح مُظهراً الكثير من الفهم والذكاء. سوينا المسألة التي كانت
أمامنا ونهضت للمغادرة وأنا أقول: لقد تمشيت عبر التلة مع ابنة
زوجتك.

بدا السيد سيمينغتن لأول وهلة وكأنه لا يعرف من هي ابنة
زوجته، ثم ابتسم وقال: آه، نعم، بالطبع، ميغان. لقد... لقد عادت
من مدرستها منذ فترة. إننا نفكر في البحث عن شيء تعمله... نعم،
تعمله. ولكنها ما تزال صغيرة جداً بالطبع. كما أنها متخلفة بالنسبة
لعمرها، هكذا يقولون. نعم، هكذا أخبروني.

نهضت مغادراً، وفي المكتب الخارجي رأيت رجلاً طاعناً
في السن يجلس على كرسي ويكتب ببطء وجهه، بالإضافة إلى

ولد صغير ممتلئ الخدين وامرأة في أواسط عمرها جعداء الشعر تضع نظارة، وكانت تطبع على الآلة الكاتبة بسرعة. ولئن كانت هذه هي الأنسة غينش فإنني أتفق مع أوين غريفث بأن أي علاقة افتراضية بينها وبين رئيسها مسألة أبعد ما تكون عن الاحتمال.

ذهبت إلى الخباز وأخبرته بملاحظاتي المتعلقة برغيف الزبيب، وقد تلقى الخباز انتقادي بما تقتضيه المناسبة من عبارات الاستهجان وعدم التصديق، ثم دفع إليّ برغيف زبيب جديد بدلاً منه «خرج لتوه من الفرن». وقد أثبتت سخونة الرغيف اللاذعة على صدري صحة كلامه.

خرجت من المخبز ونظرت إلى جانبي الطريق آملاً رؤية جونا قادمة بالسيارة، فقد أتعبنى المشي كثيراً، وكان من المربك تماماً المضيّ في المشي مع تدبر أمر العكازين ورغيف الزبيب، ولكن لم يكن من أثر لجونا بعد. وفجأة تسمرت عيناى دهشة، فقد أتت تتهادى على الرصيف باتجاهي فتاة كالملاك. لا توجد -حقاً- كلمة أخرى لوصفها: الملامح الكاملة، والشعر الذهبي المتموج، والجسم الطويل المتناسق! وكانت تمشي متمهلة كالملوك، كأنها تسبح مقتربة مني أكثر وأكثر. فتاة رائعة متألقة تأسر الأبواب!

وفي غمرة انفعالي الشديد كان لا بد لشيء ما أن يقع، وكان رغيف الزبيب هو الذي وقع، فقد انزلق من قبضتي، وانحيت لآخذه فوقعت عصاي التي طقطقت على الرصيف، وانزلقت أنا وكدت أقع على الأرض. وكانت يد الفتاة القوية هي التي أمسكت بي وثبتتني، وقد رحمت أتلعثم قائلاً: شكراً، شكراً لك كثيراً، إنني آسف جداً.

رفعت رغيف الزبيب عن الأرض وأعطتني مع العكاز، ثم ابتسمت بلطف وقالت: لا شكر على واجب، على الرحب والسعة.

وتلاشى السحر تماماً أمام الصوت الرسمي الفاتر، فقد انقلبت الصورة الساحرة إلى مجرد فتاة لطيفة ممشوقة القوام لا أكثر.

بدأت أفكر فيما كان سيحدث لو أن الله قد منح هيلين طروادة نفس تلك النبرات الباردة. كم هو غريب أن تستطيع فتاة إثارة روحك من الأعماق طالما هي صامتة، وأن يتلاشى كل ذلك السحر كأنه لم يكن في اللحظة التي تتكلم بها. على أن العكس يحدث أيضاً، فقد رأيت امرأة قبيحة المنظر ما كان أحد لينظر إليها مرتين، ثم فتحت فمها تتحدث فإذا بها تتدفق حيوية وسحراً فجأة وكأن كليوباترا قد بُعثت من جديد.

وصلت جوانا وأوقفت السيارة بجانبني عند الرصيف دون أن الحظ وصولها. وسألتنني إن كان في الأمر شيء، فقلت وأنا أتمالك نفسي: لا شيء، كنت أفكر بهيلين طروادة وغيرها.

- يا له من مكان غريب تفكر فيه بذلك! كنت تبدو غريباً جداً وأنت تقف هنا ممسكاً برغيف الزبيب فاغراً فمك على اتساعه.

- لقد تعرضت لصدمة، فقد زُرعتُ لبرهة في طروادة ثم عدت ثانية.

ثم قلت وأنا أشير لتلك الفتاة التي كانت تمضي مبتعدة: أتعرفين من تكون هذه؟

قالت جوانا وهي تنظر إلى الفتاة: إنها مربية أطفال سيمينغتن.

ثم سألتني: أهذه هي التي أربكتك على هذا النحو؟ إنها جميلة، لكنها فتاة سخيفة.

- نعم، إنها مجرد فتاة لطيفة... وأنا الذي كنت أرى فيها أفرودايت.

فتحت جوانا باب السيارة فدخلتها، وقالت: أليس هذا غريباً؟ ترى بعض الناس في غاية الجمال دون أن تكون لديهم أي جاذبية، وهذه الفتاة من هذا النوع، وهو ما يبدو أمراً مؤسفاً.

قلت: إن كانت مربية أطفال فربما كان هذا أفضل لها.

* * *

الفصل الثالث

- ١ -

ذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم لنشرب الشاي عند السيد باي. كان السيد باي رجلاً صغير الجسم بديناً يشبه النساء، مولعاً بمقاعده المنجدة وتمثيله الصغيرة ومجموعة تحفه، وكان يعيش في البيت المسمى «براير لودج»، وهو البيت الذي تقع في أراضيه أطلال دير الرهبان القديم.

كان «براير لودج» بيتاً رائعاً جداً، وبسبب عناية السيد باي فقد كان في أفضل حالاته، فكل قطعة أثاث فيه ملمعة وفي مكانها المناسب تماماً، وكانت الستائر والفرش فاخرة وجميلة الألوان ومن الحرير الثمين جداً.

لم أر أنه بيت للسكن، بل خطر لي أن العيش فيه يشبه السكن في غرفة أثرية بأحد المتاحف! وكانت متعة السيد باي الرئيسية في هذه الحياة هي مصاحبة الناس في جولة حول بيته، وما كان ليفلت من شغفه هذا حتى أولئك الزوار الذين لا يابهون أبداً لما حولهم من سكن أو بيئة، وحتى لو كنت من التقشف والزهد بحيث لا ترى للحياة من ضرورات إلا مذياعاً وحمّاماً وسريراً وجدراناً

تحيط بذلك كله، فإن السيد باي لم يكن ليلأس من إرشادك إلى خيارات أفضل.

ارتعشت يداه الصغيرتان المكتنزتان وهو يصف لنا كنوزه، وارتفع صوته وهو يروي لنا الظروف المثيرة التي أحضر فيها سريره الإيطالي من فيرونا. ولما كنا -أنا وجوانا- من الذين يحبون التحف والأثاث الأثري فقد تجاوبنا معه.

- إنها في الحقيقة متعة كبيرة أن ندخل مثل هذه الممتلكات الثمينة لمجتمعنا الصغير. إن أهالي البلدة الأعزاء هنا ذوو أذواق فلاحية رعوية... كي لا نصفهم بالأجلاف. إنهم لا يعرفون شيئاً... متخلفون، متخلفون جداً! وإذا رأيت منازلهم من الداخل -يا سيدتي- فستبكين إشفافاً عليهم، أؤكد لك أن من شأن منازلهم أن تبكيك. وربما أبكتك بالفعل، أليس كذلك؟

ردت عليه جوانا بأن الأمور لم تصل بها إلى تلك الدرجة.

- لكنك تفهمين ما أعنيه؟ إنهم يخلطون الأشياء بشكل فظيع! لقد رأيت بأم عيني قطعة أثاث من طراز شيراتون... قطعة دقيقة كاملة الجمال، من تلك التي يتعقبها هواة التحف... وإلى جانبها طاولة عادية من الطراز الفكتوري، أو ربما خزانة كتب من خشب البلوط المدخن! نعم، إلى هنا وصلت الأمور... خشب البلوط المدخن!

ارتعد للفكرة، ثم تتمم شاكياً: لماذا الناس عميان هكذا؟ أنت توافقيني، أنا متأكد أنك توافقيني على أن الجمال هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يهمل من أجله.

قالت جوانا وقد وقعت تحت التأثير المغنطيسي لجديته:
نعم، نعم، هذا صحيح.

- إذن لماذا يحيط الناس أنفسهم بالقبح؟

قالت جوانا إن ذلك غريب جداً.

- غريب؟ إنه جريمة! هكذا أسميه، جريمة. ويا للأعذار التي يقدمونها! يقولون إن الشيء الفلاني مريح، أو إنه غريب الشكل. غريب الشكل! يا له من وصف بدائي.

ثم أكمل السيد باي: ذلك البيت الذي استأجرتماه، بيت الأنسة إميلي بارثن... إنه بيت ساحر ولديها بعض القطع الجميلة، الجميلة جداً، وبعضها من الدرجة الأولى. وهي صاحبة ذوق أيضاً، رغم أنني لست واثقاً تماماً الآن من ذلك كما كنت في الماضي. أتصور أحياناً أن ذوقها لا يعدو أن يكون مجرد عواطف ساذجة. إنها تحب إبقاء الأشياء في مكانها، ولكن ليس بسبب دافع جيد، ليس بسبب الانسجام، بل لأن أمها كانت تضعها هكذا.

ثم حول انتباهه نحوي وقد تغير صوته، تغير من صوت الفنان الغارق في فنه إلى صوت ثرثار نمام بالفطرة.

- أنت لم تعرف العائلة إطلاقاً، أليس كذلك؟ آه، لم تعرفها، نعم، استأجرتّه من خلال وكلاء البيت. ولكن، أيها العزيزان، كان يجب أن تعرفا تلك العائلة! عندما جئتُ إلى هذه البلدة كانت الأم العجوز على قيد الحياة. كانت امرأة لا تُصدّق، فظيعة تماماً! كانت وحشاً، وحشاً أكيداً، وحشاً من العهد الفكتوري القديم تلتهم صغارها! نعم، لتلك الدرجة وصلت غرابتها. كانت ذات جسم

هائل، ولا ريب أنها كانت تزن أكثر من مئة وعشرين كيلوغراماً، وكانت بناتها الخمس يدرن حولها جميعاً. «البنات»! هكذا كانت دائماً تسميهن، البنات، مع أن أكبرهن سنّاً كانت تتجاوز الستين من عمرها في ذلك الوقت! كانت تقول عنهن أحياناً: «هؤلاء البنات الغيبات». كُنَّ كالإماء يذهبن ويجئنَ ويعملن ويحملن ويوافقنَها الرأي، وعندما تحين الساعة العاشرة عليهن الذهاب إلى النوم. ولم تكن تسمح لهن بإشعال نار التدفئة في غرفة نومهن. أما دعوة صديقاتهن إلى البيت فذلك ما لم يكن ممكناً ابداً! كانت تزدرهن بسبب عدم زواجهن، ومع ذلك كانت ترتب لهن حياتهن بشكل يصح من المستحيل معه أن يلتقين بأحد. وأظن أن إميلي (أو ربما كانت الأخرى أغنيس) قد مرّت بتجربة عاطفية في وقت ما، ولكن والدتها أنهت تلك العلاقة!

قالت جوانا: تبدو قصتهن أشبه بالروايات.

- نعم يا عزيزتي، كانت فعلاً كذلك. ثم ماتت المرأة العجوز المخيفة، ولكن الفرصة كانت قد فاتت تماماً عندئذ، فقد واصلن حياتهن هناك ومضين في أحاديثهن الخافتة عمّا كانت أمههن المسكينة ستتمناه في كل شأن. بل إنهن شعرن بأن وضع ورق جدران جديد في غرفتها سيكون انتهاكاً لقدسية ذكراها. بقين يستمتعن في المجتمع الصغير هنا بطريقة هادئة، ولكن أياً منهن لم تكن ذات قدرة على الاحتمال. فماتت الواحدة بعد الأخرى، ماتت إيديث بالأنفلونزا، وميني أجرت عملية لم تُشف منها، والمسكينة مابل أصيبت بالسكتة، وكانت إميلي تقوم على رعايتها والسهر عليها بكل إخلاص. والحق أن إميلي المسكينة لم تكن

تفعل شيئاً خلال السنوات العشر الأخيرة سوى رعاية المريضات من أخواتها. إنها مخلوقة رائعة، أليس كذلك؟ أشبهه بقطعة جميلة من الخزف الصيني الرقيق. من المحزن أن تتعرض لمتاعب مالية، ولكن جميع الاستثمارات انخفضت قيمتها في البلاد.

قالت جوانا: إننا نشعر بشيء من الحرج لوجودنا في بيتها.

- لا، لا يا عزيزتي، لا تشعرني بمثل هذا الشعور. إن خادمتها فلورنس الطيبة مخلصه لها، وقد أخبرتني بنفسها كم هي سعيدة بوجود مستأجرين لطفاء مثلكم.

هنا انحنى السيد باي انحناء صغيرة، ثم أضاف: أخبرتني بأن السيدة ترى نفسها محظوظة جداً.

قلت: البيت ذو جو مهدئ يوحى بالطمأنينة.

نظر السيد باي إليّ نظرة سريعة وقال: حقاً؟ أشعر بهذا؟ هذا مثير للاهتمام. لقد كنت أتساءل... نعم، كنت أتساءل.

سألته جوانا: ماذا تعني يا سيد باي؟

بسط السيد باي يديه المكتنزتين وقال: لا شيء، لا شيء. إن المرء يتساءل، هذا كل ما في الأمر. إنني أو من فعلاً بما يسمّى «الجو العام». إنها أفكار الناس ومشاعرهم، يُسقطونها على الجدران والأثاث.

لم أتكلم لبعض الوقت. كنت أنظر حولي وأتساءل كيف يمكنني وصف جوّ منزل «براير لودج». بدا لي أن الغريب فيه هو افتقاره لأيّ جو خاص به! وكان ذلك أمراً ملفتاً للنظر. فكرت

في هذه النقطة طويلاً بحيث لم أسمع شيئاً من الحديث الذي راح يدور بين جوانا ومضيفها، إلى أن تنبّهت عندما سمعت جوانا وهي تنطق بمقدمات الوداع، فخرجت من أحلامي وأدليت بدلوي من عبارات الوداع.

خرجنا إلى الصالة جميعاً. وبينما نحن نتجه إلى الباب الأمامي وصلت رسالة من خلال فتحة الرسائل في الباب ووقعت على السجادة.

تمتم السيد باي وهو يرفعها: بريد العصر... لا بد أن تأتيا ثانية لزيارتي، أليس كذلك؟ إنه لمن الممتع أن تلقى أناساً ذوي عقول متفتحة، أقصد أناساً يقدرّون الفن. إن الأهالي الطيبين هنا متخلفون عن الآخرين بمقدار خمسين عاماً. يا لإنكلترا من بلد رائع! إن فيها جيوباً، ولايمستوك واحدة من هذه الجيوب، وهي مثيرة للاهتمام من وجهة نظر جامعي الآثار. أشعر دائماً أنني وضعت نفسي مختاراً في عزلة تامة هنا، إنه المكان الهادئ المنزّل الذي لا يحدث فيه شيء أبداً.

بعد أن صافحنا للمرة الثانية ساعدني في ركوب السيارة بعناية مبالغ بها، وتولت جوانا القيادة. حركت السيارة بحذر لتلفّ متجاوزة منطقة عشبية منحدرّة، فلما تم لها ذلك وأصبح الطريق منبسّطاً أمامنا رفعت يدها لتودع مضيفنا الذي كان واقفاً عند عتبات البيت، ومِلتُ أنا إلى الأمام لأفعل مثلها.

لكن تلويحاتنا الوداعية ذهبت دون أن يلتفت إليها. كان السيد باي قد فتح رسالته، وكان يقف محدقاً إلى الورقة المفتوحة في يده. لقد وصفته جوانا ذات مرة بأنه أشبه بطفل بريء سمين متورد

الوجه، وكان ما يزال سميناً في تلك اللحظة، ولكنه لم يعد طفلاً متورد الوجه. كان وجهه محتقناً بلون غامق وقد تلوّت قسماته من الغضب والمفاجأة.

في تلك اللحظة أدركت أنني رأيت شيئاً مألوفاً في ظرف الرسالة، ولم أكن قد أدركت ذلك عندما نظرت إليها في حينه. كان ذلك في الواقع واحداً من تلك الأشياء التي يلحظها المرء لاشعورياً دون أن يعرف أنه قد لاحظها.

قالت جوانا: يا إلهي، ما الذي أصاب ذلك المدلل المسكين؟
قلت: أتصور أنها اليد الخفية مرة أخرى.

التفتت إليّ ذاهلة فأنحرفت بنا السيارة. قلت: احذري يا بنت.
ركزت جوانا انتباهها على الطريق مرة أخرى وقد عبس وجهها وقالت: أتعني أنها رسالة كالتي تلقيتها؟
- هذا تخميني.

- ما هذا المكان؟ إنه يبدو في الظاهر أكثر مناطق الريف الإنكليزي هدوءاً وبراءة وأماناً...

قاطععتها: "ولا يحدث فيه شيء أبداً"... إذا ما استشهدنا بكلام السيد باي. لقد اختار وقتاً غير مناسب ليقول ذلك، فقد حدث شيء فعلاً!

- ولكن من يكتب هذه الأشياء يا جيري؟
رفعتُ كتفيّ حيرة وقلت: وكيف لي أن أعرف يا عزيزتي؟

أحسبه أحد مجانين القرية أو معتوهيها.
- ولكن لماذا؟ يبدو عملاً أحمق.

- يجب أن تقرئي لفرويد ويونغ وأمثالهما حتى تعرفي... أو
أسألي الدكتور أوين.

هزّت جوانا رأسها وقالت: الدكتور أوين لا يحبني.

- ولكنه لم يكذبك.

- يبدو أنه رأى مني ما يكفي لجعله يعبر إلى الطرف الآخر
من الشارع عندما رأني في الشارع العام للبلدة.

قلتُ متعاطفاً: إنه رد فعل غير طبيعي أبداً، وهو أمر لم
تعتاديه.

عبرت جوانا ثانية وهي تقول: فعلاً يا جيرى، لماذا يكتب
الناس رسائل مُغفلة من التوقيع؟

- كما قلت، بسبب مسّ من جنون. أظن أن هذا يشبع عند
كاتبها حاجة مجهولة ملحة، فالمرء إذا شعر بالإحباط أو بازدراء
الآخرين له أو تجاهلهم إياه وكانت حياته رتيبة فارغة فأظن أنه
يحصل على إحساس بالقوة عندما يطعن في الظلام أناساً سعداء
يستمتعون بحياتهم.

ارتجفت جوانا وقالت: هذا ليس جميلاً.

- نعم، ليس جميلاً. أتصور أن كثيرين في هذه المناطق الريفية
نتاج لزواج الأقارب، ولذلك ترين عدداً كبيراً من المعتوهين.

- أحسبه شخصاً غير مثقف أبداً وعاجزاً عن التعبير عن نفسه، فلو كان شخصاً متعلماً...

لم تكمل جوانا جملتها ولم أقل أنا شيئاً، فأنا لم أستطع قط قبول الاعتقاد السهل القائل إن التعليم دواء لجميع العلل.

وعندما كنا نسير في السيارة داخل البلدة قبل أن نصعد طريق التلة نظرت بفضول إلى الأشخاص القليلين الذين كانوا يسيرون في الشارع العام. أيمكن أن تكون واحدة من هؤلاء القرويات القويات تمشي هناك وقد أخفت وراء مظهرها الهادئ حملاً من الحقد والضغينة، وتخطط ربما لترح المزيد من الأحقاد المدمرة؟ ولكنني لم أكن قد أخذت الأمر على محمل الجد حتى ذلك الحين.

- ٢ -

بعد يومين ذهبنا إلى تجمع للعب الورق في بيت سيمينغتن. كان ذلك عصر يوم السبت، وكان من عادة عائلة سيمينغتن إقامة تجمعات كهذه أيام السبت لأن مكتبه كان يغلق في ذلك اليوم.

كانت هناك طاولتان، وكان اللاعبون هم سيمينغتن وزوجته وأنا وجوانا والآنسة غريفيث والسيد باي والآنسة بارتُن، وكولونيل اسمه أبلتون لم نلتق به من قبل كان يعيش في قرية تدعى كومبيكر تبعد عن لايمستوك نحواً من سبعة أميال. كان نموذجاً مثالياً للولاء الأعمى للمؤسسات الحاكمة، في الستين من عمره تقريباً، وكان يحب لعب ما يسميه «اللعبة الجريئة»، وهي فرع من لعبة البريدج

العادية، وقد اهتم بجوانا اهتماماً جعله لا يحوّل نظره عنها طوأل المساء. وقد أُجبرت على الاعتراف بأن أختي ربما كانت أكثر الفتيات اللاتي شوهدن في لايمستوك جاذبية منذ فترة طويلة.

عندما وصلنا كانت إيلسي هولاند، مربية الأطفال، تبحث عن فيشات اللعب في أدراج مكتب مزخرف، وقد تهادت في الغرفة وهي تحملها بنفس تلك الطريقة الملفتة للأنظار التي رأيتها فيها أول مرة، ولكن تعويذة سحرها لم تعد تعمل! لاحظت الآن بوضوح شديد أسنانها البيضاء الكبيرة جداً كشواهد القبور، والطريقة التي تظهر بها لثتها عندما تضحك. كانت -لسوء الحظ- مجرد فتاة ثرثارة أخرى!

- أهذه هي الفيشات التي تريدينها يا سيدة سيمينغتن؟ كنت غبية جداً عندما لم أتذكر أين وضعناها آخر مرة، إنها غلطتي أنا. كنت أحملها في يدي، ثم صاح برايان لأن قاطرته توقفت فخرجت مسرعة، وبسبب كثرة الاهتمامات لا بد أنني وضعتها في مكان ما دون انتباه. إنها ليست الفيشات المطلوبة فهي ذات حواف صفراء. هل أخبر أغنيس بأن تجهز الشاي الساعة الخامسة؟ سأخذ الأطفال إلى لونغ بارو حتى لا يبقى هنا أي ضجيج.

فتاة لطيفة وذكية. رأيت جوانا تنظر إليّ وهي تضحك، فنظرتُ إليها بفتور. كانت جوانا تعرف دائماً ما يجول في خاطري، تباً لها!

جلسنا للعبة البريدج، وسرعان ما عرفت على نحو دقيق مهارة جميع من في لايمستوك في لعب البريدج. كانت السيدة سيمينغتن لاعبة بريدج ممتازة وكانت مولعة باللعبة كثيراً، وهي

-كغيرها من النساء الكثيرات اللاتي لا ثقافة رفيعة لديهن- ذات ذكاء فطري، فيما كان زوجها لاعباً جيداً ذا منطق سليم مع ميل قليل إلى الحذر. أما السيد باي فقد كان أفضل ما يوصف به أنه لاعب ذكي؛ كانت عنده حاسة تمييز غير عادية للمزايدة التي تكون لأغراض نفسية في اللعبة. وبما أن التجمع كان على شرفنا أنا وجوانا فقد لعبنا على طاولة السيدة سيمغتن والسيد باي.

كانت مهمة سيمغتن هي تهدئة الأجواء إذا اشتد الخلاف بين اللاعبين واستخدام لباقتة في مصالحة اللاعبين الآخرين على طاولته. وكما قلت كان الكولونيل أبلتون مغرمًا بلعبته «الجريئة»، وكانت الأنسة بارتُن أسوأ لاعبة رأيتها ولكنها كانت تستمتع باللعب كثيراً. كانت تعمل على اتباع الآخرين في اللعب، ولكنها لم تكن تعرف قوة الأوراق التي في يدها، ولم تكن تعرف أسلوب تسجيل النقاط أبداً، وكانت تلقي بالأوراق الخطأ باستمرار، ولم تكن قادرة على عدّ الأوراق الراححة وتنسى كثيراً حقيقة هذه الأوراق. أما لعب إيمي غريفيث فيمكن تلخيصه بكلماتها هي: "أنا أحب لعبة بريدج جيدة دون أي صياح وضجيج ولا أمارس أياً من تلك الطرق السخيفة في تمرير المعلومات للشريك، وما أقوله أعنيه. كما لا أحب تلك التحليلات بعد انقضاء اللعبة، فهي في نهاية الأمر مجرد لعبة".

وهكذا نرى أن مهمة المضيف ليست سهلة كثيراً.

بدأ اللعب بانسجام كامل مع نسيان الكولونيل أبلتون لدوره بين الفينة والأخرى وهو يحدق إلى جوانا، ثم وُضع الشاي في غرفة الطعام على طاولة كبيرة. وعندما أوشكنا على النهاية اندفع

ولدان صغيران هائجان إلى الغرفة وقدّما إلينا، وكانت السيدة سيمينغتن تبسم متفاخرة وكذلك كان أبوهما. ثم وفيما نحن نتأهب للانسحاب حُجب الضوء عن الصحن أمامي، فالتفت برأسي لأجد ميغان واقفة بالباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة. قالت أمها: آه، ها هي ميغان.

كان في صوتها أثر بسيط من الدهشة، وكأنها قد نسيت وجود ميغان. دخلت الفتاة وصافحتنا بطريقة خرقاء ودون أية لباقة نسوية.

قالت السيدة سيمينغتن: أخشى أن أكون قد نسيت إحصار الشاي لك يا عزيزتي، فقد أخذت الآنسة هولاند والأولاد الشاي الخاص بهم معهم ولم يبقَ شاي خاص بالصغار اليوم. نسيت أنك لم تخرجي معهم.

أومأت ميغان برأسها وقالت: لا بأس، سأذهب إلى المطبخ.

خرجت من الغرفة متكاسلة. كانت ملبسها غير مرتبة كالعادة، وكانت في كلا جوربيها ثقب عند الكعبين.

قالت السيدة سيمينغتن وهي تضحك ضحكة اعتذارية: يا لميغان المسكينة! إنها في تلك السن الحرجة، سن المراهقة. دائماً ما تكون الفتيات خجلات مرتبكات عندما يتركن المدرسة وقبل أن ينضجن نضوجاً صحيحاً.

رأيت جوانا وهي ترفع رأسها الأشقر إلى الورا بإشارة كنت أعرف أنها هجومية. قالت: ولكن ميغان في العشرين من عمرها، أليس كذلك؟

- آه، بلى، بلى، إنها في العشرين، ولكنها أصغر كثيراً من عمرها الحقيقي، فهي ما تزال طفلة. أظن أن من الجميل أن لا تكبر الفتيات بسرعة؟

ضحكت مرة أخرى وقالت: أحسب أن جميع الأمهات يردن بقاء أطفالهن في سن الرضاعة.

قالت جوانا: لا أرى سبباً لذلك، إذ سيكون محرّجاً بعض الشيء أن يكون للمرء طفل بقي عمره ست سنوات من الناحية العقلية بينما ينمو جسده ويكبر.

- آه، لا تفهمي الأمور حرفياً يا آنسة بيرتن.

في تلك اللحظة شعرت أنني لا أحب السيدة سيمينغتن كثيراً، أحسست أن ذلك الجمال الشاحب المتلاشي اللامبالي يخفي وراءه طبيعة أنانية جشعة. ثم قالت لتزيد كراهيتي لها قليلاً: مسكينة ميغان، إنها طفلة صعبة بعض الشيء. كنت أبحث لها عن شيء تعمله... أظن أن المرء يمكن أن يتعلم أشياء بالمراسلة، كالتصميم وتفصيل الملابس... أو ربما حاولت تعلم الطباعة والاختزال.

كان الوميض الأحمر باقياً في عين جوانا، فقالت بعد أن جلسنا حول طاولة البريدج مرة أخرى: أظن أنها بلغت سنّاً تؤهلها للمشاركة في النشاطات الاجتماعية. ألا تفكرين بإقامة حفلة على شرفها بهذه المناسبة؟

بدت السيدة سيمينغتن متفاجئة مسرورة وقالت: حفلة؟ آه، إننا لا نصنع أشياء كهذه هنا.

- فهمت ، لا تقيمون إلا مباريات تنس وأشياء كهذه.

- لم يلعب أحد في ملعب التنس هنا منذ سنوات ، فلا رتشارد ولا أنا نلعب. أظن أنه عندما يكبر أولادي مستقبلاً... آه ، ستجد ميغان الكثير مما يمكن أن تفعله. إنها سعيدة تماماً بالتسكع في المنطقة. هل وزعت الورق؟

- ٣ -

عندما كنا عائدين بالسيارة إلى البيت قالت جوانا وهي تضغط على الدعاسة بقوة مما ضاعف سرعة السيارة: إنني أشعر بالأسف الشديد على تلك الفتاة.

- ميغان؟

- نعم ، فأما لا تحبها.

- آه ، لا تبالغي يا جوانا ، الأمر ليس بهذا السوء.

- بل هو كذلك. كثير من الأمهات لا يشعرون بعاطفة تجاه أولادهن ، ويخيل لي أن وجود ميغان في البيت مسألة فظيعة مربة بسبب طبيعتها المحرجة. إنها تُربك النمط السائد ، نمط عائلة سيمينغتن. إن العائلة وَحدة متكاملة باستثناءها ، وهذا الشعور من أشد المشاعر بؤساً بالنسبة لأي مخلوقة حساسة ، وهي حساسة فعلاً.

- نعم ، أظنها حساسة.

صمّت لبعض الوقت ، وفجأة ضحكت جوانا ضحكة مناكفة وقالت: ولكن حظك سيئٌ بالنسبة لمربية الأطفال.

قلت بإباء: لا أعرف ماذا تعنين.

- هراء، كان الحنق واضحاً في وجهك كلما نظرت إليها!
أنا متفقة معك؛ حرام أن يضيع جمالها بهذا الشكل!
- لا أعرف عمّ تتحدثين.

- لكنني مع ذلك مسرورة. إنها أول إشارة على استعادة الحياة
من جديد. كنت قلقة عليك في المصحّ، فأنت لم تكن تنظر إلى
الممرضة الجميلة التي كانت تقوم على رعايتك رغم أنها كانت
فتاة جذابة تماماً.

- إنني أجد حديثك سويقاً تماماً يا جوانا!

أكملت شقيقتي حديثها دون أدنى التفات لملاحظاتي: لذلك
ارتحت كثيراً عندما رأيت أنك ما تزال تنجذب إلى فتاة جميلة.
إنها جميلة الشكل، ومن الغريب أن لا تكون لديها جاذبية أبداً.
هذا غريب يا جيري! ما هو ذلك الشيء الذي تملكه بعض النساء
ولا تملكه غيرهن؟ ما الذي يوجد عند امرأة معينة حتى إذا ما
قالت عبارة عادية مثل «الجو لطيف» رأيت الرجال يُهرعون إليها
للحديث معها حول الطقس؟ هكذا الخلق أحياناً. ترى واحدة لها
جسم ووجه أفروديت ولكنها باردة ليست فيها أي جاذبية، وترى
الجاذبية والسحر يذهبان أحياناً إلى وجه ليس فيه من الحسن الكثير.
وعندها يُجنّ جنون كل النساء الأخريات ويقلن: لا نعرف ما الذي
يراه الرجال فيها، إنها غير جميلة على الإطلاق!

- هل انتهيتِ يا جوانا؟

- أنت توافقني الرأي، أليس كذلك؟

ابتسمتُ وقلت: أعترف بشيء من خيبة الأمل.

- ولا أرى هنا واحدة غيرها لك. سوف تضطر للجوء إلى
إيمي غريفيث!

هتفت: لا سمح الله!

- يبدو أنها تستمتع بحياتها تماماً. إنها حيوية وقوية لدرجة
منفّرة، أليس كذلك؟ لن أشعر بأي دهشة لو علمت أنها تستحم
بماء بارد كل صباح.

سألتها: وماذا ستفعلين أنت بنفسك؟

قالت جوانا بأسلوب غير مقنع: لن أستطيع أن أنسى بول!

- لن أنساه أنا بأسرع مما تنسينه أنت. سوف تقولين بعد
عشرة أيام: بول؟ من بول هذا؟ لم أعرف شخصاً يدعى بول أبداً.

- أنت تحسبني متقلبة جداً.

- يسعدني كثيراً أن تكوني كذلك عندما يتعلق الأمر بأشخاص
مثل بول.

- أنت لم تحبه أبداً. ولكنه كان فعلاً عبقرياً بعض الشيء.

- ربما، مع أنني أشك في هذا. وعلى كل حال فمن كل ما
سمعته يُقال إن العباقرة أناس ينبغي أن يكرههم المرء كراهية عميقة.
يبقى أن أقول إنك لن تجدي أي عبقرى هنا.

فكرت جوانا لبعض الوقت ورأسها يميل إلى أحد الجانبين،
ثم قالت بأسى: نعم، هذا ما أخشاه.

- على أي حال فإن أوين غريفيث هو الرجل الأعزب الوحيد في القرية الذي يمكن أن تفكري به، باستثناء الكولونيل أبلتون العجوز الذي كان ينظر إليك كالكلب الجائع طوال المساء.

ضحكت جوانا وقالت: كان يديم النظر، أليس كذلك؟ كان الأمر محرراً تماماً.

- لا تتظاهري بذلك، فأنت لا تُحرجين أبداً.

مضت جوانا بالسيارة عبر البوابة بصمت. ثم قالت: قد يكون في فكرتك تلك بعض الصحة.

- أي فكرة؟

- لا أفهم سبباً يجعل أي رجل يقطع الشارع عامداً كي يتجنبني. هذا تصرف وقح بعيداً عن أي اعتبار آخر.

- فهمت، تريدان صيد الرجل بدم بارد.

- لا أحب أن يتجنبني أحد.

خرجت من السيارة ببطء وحذر ووازنت عكازي، ثم قدمت لشقيقتي نصيحة: دعيني أخبرك بهذا يا فتاتي... ليس أوين غريفيث واحداً من أصحابك الفنانين المتحبين الخانعين، وما لم تحذري فسوف تثيرين عشاً للزنابير قرب أذنيك. يمكن لذلك الرجل أن يكون خطيراً.

سألت جوانا وفي صوتها استمتاع كبير بهذا الاحتمال: آه، أتعتقد ذلك؟

قلت بإصرار: اتركي الرجل المسكين وحده.

- كيف يجرؤ على قطع الشارع وهو يراني قادمة؟

- أنتنّ متشابهات معشر النساء؛ إنكنّ تضربنّ على وتر واحد.

ستجدين أخته إيمي تلاحقك إن لم أكن مخطئاً.

- إنها تكرهني أصلاً.

تكلمتُ بشيء من التأمل ولكن بقناعة تامة، قلت جازماً: لقد

جئنا إلى هذا المكان للهدوء والراحة، وأعتزم الحصول عليهما.

لكن الهدوء والراحة كانا آخر ما قُدر لنا أن نحصل عليه!

* * *

الفصل الرابع

- ١ -

بعد أسبوع واحد -فيما أذكر- أبلغتني بارتريديج أن السيدة بيكر تود التحدث معي لبعض الوقت. ولم يعن لي اسم السيدة بيكر أي شيء فقلت حائراً: من هي السيدة بيكر؟ ألا يمكنها رؤية الأنسة جوانا؟

ولكن بدا أنني أنا الشخص الذي كانت ترغب بالحديث معه، كما تبين أن السيدة بيكر هي والدة الفتاة بياتريس. وكنت قد نسيت بياتريس، وآخر عهد لي بها قبل أسبوعين، فلم ألحظ غيابها إلا حين انتبهت لامرأة في وسط العمر لحق الشيب ببعض خصلات شعرها وهي تجثو على ركبتها تمسح أرض الحمام والدرج والممرات، وأظنني عرفت وقتها أنها خادمتنا الجديدة التي تعمل في النهار. وفيما عدا ذلك كان أمر بياتريس قد تلاشى تماماً من ذهني.

لم أستطع التهرب من رؤية والدة بياتريس، لا سيما وقد عرفت أن جوانا كانت خارج البيت، ولكن يجب أن أعترف بأنني كنت عصبي المزاج قليلاً من هذه المقابلة. كنت أرجو مخلصاً أن لا

تتهمني بالعبث بعواطف بياتريس ، ولعنت في سرِّي تلك الأعمال الخبيثة لكُتَّاب الرسائل المجهولة، في نفس الوقت الذي طلبت فيه من بارتريديج إحضار والدة بياتريس لرؤيتي.

كانت السيدة بيكر امرأة ضخمة عريضة المنكبين مسفوعة الوجه ، وكانت سريعة في كلامها. وقد شعرتُ بالارتياح عندما لم ألحظ أيًّا من علامات الغضب أو الاتهام عليها.

قالت وقد بدأت حديثها فوراً بعدما أغلقت بارتريديج الباب وراءها: أرجو أن تعذرني إذ سمحتُ لنفسي أن آتي بهذه الطريقة لرؤيتك يا سيدي ، ولكنني رأيت أنك ربما تكون الشخص المناسب الذي ينبغي أن آتي إليه ، وسأكون شاكرة لك لو رأيت طريقة لإرشادي لما ينبغي عليّ عمله في مثل هذه الظروف ، لأنني أرى أن من الواجب عمل شيء. إنني لم أكن أبداً من النوع الذي يصبر وينام على الأذى ، فأنا لا أرى فائدة في النواح ، بل المطلوب هو «النهوض والمبادرة للفعل» كما سمعت في إحدى الخطب.

شعرت ببعض الحيرة وكأنني أضعتُ شيئاً أساسياً في الحديث ، فقلت: بالتأكيد. لكن ألا... ألا تجلسين يا سيدة بيكر؟ سأكون مسروراً بالتأكيد لو استطعت مساعدتك بأي طريقة ممكنة.

سكتُ على أمل أن تتحدث ، فجلستُ على حافة المقعد وقالت: أشكرك يا سيدي ، هذا جميل منك ، وأنا مسرورة لأنني جئتُ إليك. قلت لبياتريس وهي تبكي وتتنحب في سريرها: إن السيد بيرتن سيعرف ما ينبغي فعله ، وهو القادم من لندن. ويجب أن نعمل شيئاً ، فهؤلاء الشباب متهورون سريعو الغضب لا يستمعون

إلى لغة العقل ولا إلى كلمة واحدة مما تقوله الفتاة، وعلى أي حال فقد قلت لبياتريس إنني لو كنت مكانها لرددت له الصاع صاعين، إذ ماذا عن تلك الفتاة في الطاحونة هناك؟

شعرت بالحيرة أكثر فأكثر، قلت: أنا آسف، فأنا لا أفهمك تماماً. ما الذي حدث؟

- إنها الرسائل يا سيدي. رسائل شريرة، وبذيئة جداً أيضاً، تستخدم كلمات أسوأ من أي شيء قرأته في حياتي.

تغاضيت عن تلك الجملة الاعتراضية المثيرة وقلت يائساً: هل تلقيت ابنتك مزيداً من الرسائل؟

- ليس هي يا سيدي. لقد تلقيت رسالة واحدة فقط، وهي التي جعلتها تترك العمل عندكم.

بدأت بالقول: "لم يكن هناك على الإطلاق أي سبب..." فقاطعتني السيدة بيكر بقوة: لا حاجة لأن تخبرني يا سيدي أن ما ورد في الرسالة كان محض افتراء شرير. تكفيني شهادة الأنسة بارتريدج بهذا الشأن. وقد كان من شأني أن أعرف بنفسي أصلاً، فأنت لست من ذلك النوع من الرجال، هذا ما أعرفه جيداً، كما أنك مُقعد. كانت افتراءات كاذبة، ولكن مع ذلك فقد قلتُ لبياتريس إن من الأفضل لها أن تترك العمل لأنك تعرف الإشاعات يا سيدي، فالناس يقولون: «لا دخان بلا نار». كما أن الفتاة شعرت بالخجل مما كان مكتوباً في الرسالة، لذلك قلت لبياتريس عندما قالت إنها لن تأتي إلى هنا ثانية: «عين الصواب». رغم أننا شعرنا بالأسف على ما سببه ذلك من إرباك جعلكم...

سحبت السيدة بيكر نفساً عميقاً وقد عجزت عن إكمال الجملة، ثم أكملت: وكنت أرجو أن يضع ذلك حداً للإشاعات المغرضة. لكن جورج، الذي يعمل في المرأب والذي تخرج بياتريس معه، تلقى واحدة من هذه الرسائل. وهي تقول أشياء قبيحة عن ابنتنا بياتريس وأنها على علاقة مع توم ابن فريد ليديتير... وأؤكد لك يا سيدي أن تصرف الفتاة لم يخرج عن دائرة التهذيب أبداً.

أخذ رأسي الآن يدور مع ظهور التعقيد الجديد لتوم ليديتير هذا، فقلت: دعيني أفهم الأمر بشكل صحيح، فقد تلقى صديق بياتريس رسالة مُغفلة التوقيع تتهمها بعلاقة مع شاب آخر، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدي. ولم تكن الرسالة محتشمة، فقد استخدمت كلمات بذيئة مما جعل جورج يستشيط غضباً كالمجنون، وجاء ليخبر بياتريس أنه لن يحتمل هذا العمل منها وأنه لن يسمح لها بأن تخرج مع رجال غيره من وراء ظهره! وقد أخبرته بأن ذلك كذب كله، فقال لها: «لا دخان بلا نار»، ثم خرج من البيت كالمسعود. واستولى الحزن على بياتريس المسكينة، فقلت لها إنني سأضع قبعتي على رأسي وأتي إليك مباشرة يا سيدي.

سكتت السيدة بيكر ونظرت إليّ متوقعة مني الرد كالكلب ينتظر جائزة بعد أداء حركة ذكية. سألتها: ولكن لماذا جئت إليّ بالتحديد؟

- لقد فهمت أنك تلقيت واحدة من هذه الرسائل الشريرة يا سيدي، وفكرت أنك تعرف (وأنت القادم من لندن) ما الذي

ينبغي عمله حيال هذا الأمر.

- لو كنت مكانك لذهبت إلى الشرطة، فيجب وضع حدٍّ لمثل هذا الأمر.

بدت السيدة بيكر مصدومة تماماً وقالت: آه، لا يا سيدي، لا يمكنني الذهاب إلى الشرطة.

- ولمَ لا؟

- لم يسبق لي التورط مع الشرطة أبداً يا سيدي، لم يتورط أحدٌ منا مع الشرطة أبداً.

- صحيح، ولكن الشرطة هم وحدهم الذين يمكنهم التعامل مع مثل هذا الأمر، فهذا عملهم.

- أذهب إلى بيرت راندل؟

كنت أعرف أن بيرت راندل هو الشرطي، فقلت: لا بد أن تجدي رقيباً أو مفتشاً في مركز الشرطة.

- أنا أذهب إلى مركز الشرطة؟!!

كانت نبرة التأنيب والدهشة ظاهرة في صوت السيدة بيكر، وبدأتُ أشعر بالضيق فقلت: هذا كل ما يمكنني تقديمه من نصيحة.

سكتت السيدة بيكر وبدأ واضحاً أنها لم تكن مقتنعة. قالت بحزن: يجب وقف هذه الرسائل يا سيدي، يجب وقفها فعلاً. سوف تتسبب بالأذى عاجلاً أو آجلاً.

- يبدو لي أن الأذى قد وقع بالفعل.

- قصدتُ العنف يا سيدي. هؤلاء الشباب الصغار يفعلون بعنف... وكذلك الكبار.

- وهل تصل كثير من هذه الرسائل إلى الناس؟

أومأت السيدة بيكر برأسها قائلة: الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم يا سيدي. السيد بيدل وزوجته في فندق بلو بور كانا سعيدين دائماً، والآن جعلته هذه الرسائل يفكر بأشياء... أشياء غير صحيحة.

ملتُ إلى الأمام وقلت: سيدة بيكر، هل لديك أي فكرة، أي فكرة مهما كانت، عمّن يكتب هذه الرسائل المقيّية؟

لشدة دهشتي أومأت برأسها بالإيجاب وقالت: لدينا فكرة معينة عن ذلك يا سيدي. نعم، لدينا جميعاً فكرة واضحة عن ذلك.

- من هو؟

خُيِّلَ إليّ أنها قد تتردد في ذكر اسم معين، ولكنها ردّت على الفور: إنها السيدة كليت، هذا ما نعتقد جميعاً يا سيدي. إنها السيدة كليت بالتأكيد.

سمعت كثيراً من الأسماء هذا الصباح ممّا جعلني شديد الحيرة، وسألتها: من هي السيدة كليت؟

اكتشفت أن السيدة كليت هي زوجة بستاني كهل، وكانت تعيش في بيت على الطريق المؤدي إلى الطاحونة. ثم تلقيت أجوبة غير مرضية عن أسئلتني الأخرى، عندما سألت السيدة بيكر عن السبب الذي يدعو السيدة كليت لكتابة تلك الرسائل قالت بغموض

إن «من شأن هذا أن ينسجم مع شخصيتها».

وفي نهاية الأمر تركتها تذهب مكرراً مرة أخرى نصيحتي لها بأن تذهب إلى الشرطة، وهي نصيحة عرفت أن السيدة بيكر لن تأخذ بها. وقد تركتني وأنا أشعر بأنني قد خيبت أملها.

قلّبت تفكيري فيما قالته لي. ورغم غموض ما ساقته من دليل إلا أنني قررت أن الأمر قد يكون صحيحاً إن كان أهل القرية كلهم يرون أن السيدة كليت هي المتهمّة. قررت الذهاب واستشارة غريفيث بخصوص الأمر كله، فمن شأنه -كما يُفترض- أن يعرف السيدة كليت هذه، وإذا رأى أن من الصواب الذهاب إلى الشرطة فيمكن أن أعمد أنا أو هو إلى الإيحاء للشرطة بأنها هي التي تقف وراء هذا العمل المزعج.

رتّبت ساعة وصولي في الوقت الذي تصورت أن غريفيث سيكون قد أنهى فيه عمله في عيادته، وعندما غادر العيادة آخر مريض دخلت عليه. قال: مرحباً، هذا أنت يا بيرتن؟

شرحت له باختصار حديثي مع السيدة بيكر وأخبرته بالاتهام القائل إن السيدة كليت هي المسؤولّة، ولخيبة أمني فقد هز غريفيث رأسه بالنفي وقال: ليس الأمر بهذه البساطة.

- ألا تظن أن السيدة كليت هذه هي التي تقف وراء هذا الأمر؟

- ربما، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الاحتمال فيما أظن.

- إذن لماذا يظنون جميعاً أنها هي؟

ابتسم وقال: آه، أنت لا تعرف.. السيدة كليت هي «الساحرة المحلية» هنا.

صحت: يا إلهي!

- نعم، يبدو الأمر غريباً هذه الأيام، ومع ذلك فهذا هو الوضع. إن شعوراً يبقى في أذهان الناس بأن من غير الحكمة تحدي بعض الناس أو العائلات أو الإساءة إليهم. وقد تحدّرت السيدة كليت من عائلة من «النساء الحكيمات»، وأحسب أنها بذلت جهداً كبيراً لتكريس تلك الخرافة وتشجيع هذا الاعتقاد. إنها امرأة غريبة الأطوار تتمتع بروح نكتة مريرة لاذعة، فإذا ما جرح طفل أصبعه أو وقع وقعة عنيفة أو أصيب بالنكاف فإنها تومئ برأسها وتقول: "نعم، لقد سرق تفاحاتي الأسبوع الماضي"، أو "شدّ قطتي من ذيلها"... وسرعان ما تأخذ النساء أطفالهن بعيداً، وتحضر أخريات العسل أو الكعك للسيدة كليت حتى يتجنبن شرها. إنه اعتقاد خرافي سخيف، ولكنه يحدث، لذلك فمن الطبيعي أن يعتقدن الآن أنها تقف وراء هذا الأمر.

- ولكن هل هي فعلاً وراءه؟

- آه، لا. ليست من هذا النوع، ليس الأمر بهذه البساطة.

نظرت إليه نظرة فضولية وقلت: هل لديك أي فكرة معينة؟

هز رأسه بالنفي، ولكن عينيه كانتا شاردين وهو يقول: لا، لا أعرف شيئاً. ولكنني غير مرتاح لهذا الأمر... سينتج عن ذلك أذى.

عندما عدت إلى البيت وجدت ميغان جالسة على الدرج المؤدي إلى الشرفة وقد أسندت ذقنها على ركبتيها. حينني بطريقتها التي تفتقر للحفاوة وقالت: مرحباً. هل تظن أن بإمكانني القدوم لتناول الغداء؟

قلت: بالتأكيد.

صاحت ميغان وهي تنطلق لإخبار بارتريدج بوجود ثلاثة أشخاص على الغداء: إن كان الطعام شرائح لحم ولا يكفي فأخبرني.

يخيل إليّ أن بارتريدج قد استطاعت -دون أن تنبس بكلمة واحدة- أن تُظهر استخفافها بميغان حين أخبرتها بالأمر. وعندما عدتُ إلى الشرفة سألتني ميغان بلهفة: هل الأمر على ما يرام؟

- نعم، تفضلي بالجلوس.

قدمت الكرسي لميغان فقالت: هذا لطف منك.

- ألن تجلسي؟

- لا أظن، ولكن جميل منك أن تدعوني... تماماً كما لو كنتُ شخصاً حقيقياً.

قلت ضاحكاً: ألسنتُ شخصاً حقيقياً؟

هزت ميغان رأسها بالنفي، ثم أشارت إلى ساقها المغبرّة وقالت مفتخرة بهدف تغيير الموضوع: لقد رتقت جواربي.

أنا لست خبيراً في رتق الجوارب، ولكن ظهر لي أن الخيوط الصوفية المتقاطعة بلا إتقان لم تدل على نجاح كبير.

قالت ميغان: ولكن حاله هكذا مزعج أكثر من الثقوب.

وافقتها قائلاً: يبدو وكأن هذا ممكن.

- هل ترتق أختك بشكل جيد؟

حاولت أن أتذكر إن كنت قد لاحظت أياً من إنجازات جوانا في هذا المجال، ولكنني اضطررت أخيراً للاعتراف قائلاً: لا أعرف.

- ماذا تفعل عندما تجد ثقباً في جوربها؟

قلت بتردد: أظن أنها ترميه وتشتري زوجاً آخر من الجوارب.

- هذا عين العقل، ولكنني لا أستطيع أن أصنع مثلها. أنا أتلقى راتباً الآن، أربعين جنيهاً في السنة، ولكن لا يمكنك شراء الكثير بهذا المبلغ.

وافقتها فقالت بأسى: لو كانت جواربي سوداء لاستطعت أن أضع حبراً على ساقي مكان الثقوب، هذا ما كنت أصنعه في المدرسة دائماً. كانت الأنسة باتويرثي هي المعلمة التي تشرف على تعليمنا رتق الثياب، ولكنها كانت أكثر عَمَى من الخفاش. كان ذلك الموضوع مفيداً جداً لنا.

- لا بد أنه كان كذلك.

ثم ساد الصمت بيننا وأنا أدخن غليونني، وكان صمتاً أنيساً، وفجأة قطعت ميغان الصمت قائلة بعنف: أظنك تراني فظيعة كما

يفعل الجميع؟

جفلتُ لدرجة جعلت غليونني يسقط من فمي. كان غليوناً
جميل الألوان مصنوعاً من مادة الميرشوم التي تشبه الزجاج، وقد
انكسر. قلت لميغان غاضباً: انظري ما فعلتِ.

كطفل يصعب التنبؤ بردود أفعاله لم تنزعج، بل ابتسمت
ابتسامة عريضة وقالت: أنت تعجبني فعلاً.

كانت ملاحظة دافئة جداً، كالملاحظة التي يُخَيَّل للمرء أن
قلبه يمكن أن يقولها لو أمكنه الكلام. وبدالي أن ميغان ذات مزاج
يشبه أمزجة الكلاب بدلاً من أن يشبه أمزجة البشر! سألتها وأنا
أجمع بحذر شظايا غليونني المكسور: ما الذي قلته قبل هذه المأساة؟
- قلت إنني أظنك تراني بغیضة.

قالت تلك الجملة، ولكنها لم تقلها بنفس النبرة التي قالتها
بها من قبل على الإطلاق.

- ولماذا أراك كذلك؟

قالت ميغان بتجهم: لأنني كذلك.

قلت محتداً: لا تكوني غبية.

هزت ميغان رأسها قائلة: هذه هي النقطة تماماً. أنا لست
غبية فعلاً، ولكن الناس يظنونني كذلك. إنهم لا يعرفون أنني -في
داخلي- أعرف حقيقتهم وأنني أكرههم.

- تكرهينهم؟

- نعم.

حدّقتُ إليّ بعينين كئيبتين غير طفوليتين لم تطرفا. كانت نظرة طويلة حزينة، ثم قالت: لو كنت مثلي لكرهت الناس... إن كانوا لا يريدونك.

- ألا تعتقدين أنك سوداوية النظرة؟

- بلى. هذا ما يقوله لك الناس دائماً عندما تقول الحقيقة، وهي حقيقة. إن أحداً لا يريدني، وأنا أعرف السبب تماماً. أمي لا تحبني البتة. أحسب أنني أذكّرها بوالدي الذي كان يقسو عليها وكان مرعباً جداً حسبما كنت أسمع. ولكن الأمهات لا يمكنهن التصريح بأنهن لا يردن أولادهن ولا يستطعن طردهم من البيت أو أكلهم! القلط تأكل ما لا تحبه من أولادها الصغار، وأحسب أنها طريقة عقلانية جداً، فلا حاجة لتبديد العواطف وإثارة المشكلات! أما الأمهات من البشر فهنّ مضطرات للمحافظة على أطفالهن والاعتناء بهم. لم يكن الأمر على هذه الدرجة من السوء عندما كان ممكناً إرسالها بعيداً إلى المدرسة، فما ترغب به أمي حقاً هو أن تعيش بمفردها مع زوجها والولدين.

قلت ببطء: ما زلت أرى أنك سوداوية النظرة يا ميغان، ولكن -على فرض صحة بعض ما تقولينه- فلماذا لا تتركين هذه العائلة وتعيشين حياة مستقلة؟

ابتسمت ابتسامة غير طفولية وقالت: تقصد أن أجد عملاً وأكسب رزقي؟

- نعم.

- بماذا أعمل؟

- يمكن أن تتدربي على عمل معين. طباعة واختزال مثلاً.
- لا أعتقد أن باستطاعتي ذلك. إنني غبية في عمل بعض الأشياء، وفوق ذلك...
- ماذا؟

كانت قد أشاحت بوجهها بعيداً ولكنها أعادته الآن ببطء وقد غدا محتقناً وذرفت من عينيها الدموع، ثم تكلمت بصوت مفعم بنبرات الطفولة: لماذا أرحل؟ لماذا يحملونني على الرحيل؟ إنهم لا يريدونني، لكنني سأبقى. سأبقى وأجعل الجميع نادمين، سأجعلهم يأسفون جميعاً. خنازير كريهة! إنني أكره الجميع هنا في لايمستوك. إنهم جميعاً يرونني غبية وقيحة. سأريهم، سأريهم...

كان غضباً طفولياً مثيراً للشفقة بشكل غريب. وسمعت وقع أقدام على الحصى عند زاوية البيت، فقلت بقسوة: انهضي، ادخلي البيت، اصعدي إلى الطابق الأول حيث الحمام في نهاية الممر واغسلي وجهك بسرعة.

قفزت واقفة بطريقة خرقاء ودخلت من الباب الزجاجي لغرفة الاستقبال فيما جاءت جوانا من وراء زاوية البيت قائلة: آه، إنني أشعر بالحرارة. أتعلم يا جيرري، كان ينبغي أن نحضر كلباً معنا؟

- هذا ما أراه أيضاً. على فكرة، ستتناول ميغان الغداء معنا.
- أحقاً؟ جيد.

- أتحيينها؟

- أحسب أنها من أولئك الأطفال الذين تستبدلهم الجنيات.

أنت تعرف تلك الخرافة التي تقول إن الجنيات كنّ يضعن طفلاً على عتبة الباب ويأخذن الطفل الحقيقي بعيداً. من المثير جداً الالتقاء بطفل مُستبدل. حسناً، سأصعد وأغسل وجهي.

- لا تستطيعين صنع ذلك الآن، فميغان هناك.

- آه، هل خاضت في الوحل مرة أخرى؟

أخرجت جوانا المرأة ونظرت إلى وجهها لفترة طويلة باهتمام ثم قالت: لا أحب أحمر الشفاه هذا.

خرجت ميغان من الباب الزجاجي هادئة ونظيفة نوعاً ما، ولم تُظهر أي أثر للعاصفة التي سبقت ذلك بقليل. نظرت إلى جوانا بارتياح، فقالت جوانا وهي ما تزال مشغولة بالنظر إلى وجهها: مرحباً، أنا سعيدة بمجيئك للغداء. يا إلهي، هذه حبة نمش على أنفي. لا بد أن أفعل شيئاً، فالنمش صفة سكتلندية!

جاءت بارتريديج وقالت ببرود إن الغداء جاهز، فنهضت جوانا قائلة: هيا، إنني أتضور جوعاً.

وضعت ذراعها تحت ذراع ميغان ودخلتا البيت معاً.

* * *

الفصل الخامس

- ١ -

أرى أن في قصتي نقصاً واحداً، فحتى الآن لم أذكر السيدة كالثروب وزوجها الكاهن كالب كالثروب.

كان الكاهن وزوجته متميزين. كان كالب كالثروب نفسه بعيداً عن الحياة اليومية أكثر من أي شخص التقيت به، حيث استغرقه العيش بين كتبه منقّباً في التاريخ القديم حتى صار على دراية واسعة بهذا الموضوع. أما زوجته فكانت موجودة دائماً في كل مكان، ولعليّ تعمّدت تأجيل ذكرها لأنني كنت منذ البداية خائفاً منها قليلاً. كانت امرأة ذات شخصية متميزة ومعرفة واسعة. لم تكن إطلاقاً من النوع التقليدي لزوجات الكهان، ولكنني أسأل نفسي وأنا أسجل هذا: ما أدراني أنا بزوجات الكهنة؟ فزوجة الكاهن الوحيدة التي أتذكرها جيداً كانت امرأة هادئة ليس لها ما يميزها، مخلصة لزوج قوي ضخم ذي أسلوب ساحر في مواعظه. لم تكن تشارك في الأحاديث العامة إلا نادراً بحيث يحار المرء في كيفية المضي في حديث معها. وفيما عدا ذلك كنت أعتد على الصورة التي كانت القصص ترسمها لزوجات الكهنة، وهي صورة

هزلية لنساء يحشرون أنوفهن في كل مكان ويتفوهن بالتفاهات.
وربما لا يكون في الدنيا وجود لمثل هذا النمط.

لم تحشر السيدة كالثروب أنفها في أي مكان أبداً، ومع ذلك كانت لها قوة غامضة غريبة في معرفة الأمور، وسرعان ما اكتشفت أن أهل القرية كلهم تقريباً يخشونها. لم تكن تقدم أي نصيحة ولا تتدخل في شيء أبداً، ومع ذلك كانت تمثّل -لأي ضمير خائف- صورة القاضي الحازم والسيف المسلّط.

لم أر امرأة أكثر منها لامبالاة بالعالم المادي حولها. كانت في الأيام الحارة تتمشى في القرية بتنورة من الصوف الخشن، وفي وقت المطر أو حتى الجليد كنت أراها تتمشي في طرقات القرية شاردة الذهن مرتدية ثوباً من القطن أو القماش العادي. وكانت ذات وجه طويل نحيل يوحي بكرم المحتد، وفي كلامها إخلاص وصدق رهيب.

أوقفتني في الشارع العام بعد يوم من تناول ميغان الغداء معنا. وقد تملكني إحساسي المعتاد بالدهشة منها، لأن مشيها كان أشبه بالهرولة منه بالمشي، وكانت عيناها مركزتين دائماً على الأفق البعيد ممّا يجعل المرء يشعر بأن هدفها الحقيقي يقع على بعد ميل تقريباً.

قالت: آه، سيد بيرتن!

قالتها بشيء من نشوة النصر كمن حلّ لغزاً محيراً. واعترفتُ لها بأنني السيد بيرتن، فتوقفت عن تركيز نظرها على الأفق البعيد وبدت كأنها تحاول تركيز نظرها عليّ بدلاً منه. قالت: ما الذي

كنت أريد رؤيتك من أجله؟

لم يكن بوسعي مساعدتها في هذا الأمر، فوقفت عابسة حائرة، ثم قالت: كان شيئاً بغيضاً.

قلت وقد جفلت: أنا آسف لهذا.

صاحت: آه، تذكرت، الرسائل مجهولة المصدر! ما هذه القصة التي أحضرتها معك عن الرسائل المُعْغَلَة من التوقيع؟

- أنا لم أحضرها معي، فقد كانت موجودة هنا من قبل.

قالت بنبرة اتهام: ولكن أحداً لم يتلقَّ أي رسالة منها إلى أن جئت إلى هنا.

- بل لقد تلقوا رسائل منها يا سيادة الكثر وب؛ كانت المشكلة قد بدأت من قبل.

- يا إلهي، لا أحب هذا.

وقفت تنظر بعينين شاردتين ثم قالت: لا أستطيع تمالك الإحساس بأن هذا كله غير طبيعي. نحن لسنا على هذه الطبيعة هنا. يوجد -بالطبع- حسد ومكر ومناكفة وغير ذلك من الخطايا الصغيرة، ولكني ما كنت أظن أن أحداً يمكن أن يفعل هذا. نعم، لم أظن ذلك حقاً، وهو أمر يحزنني، فأنا يجب أن أعرف.

عادت عيناها الدقيقتان من الأفق البعيد والتقتا بعيني. كانتا عينين قلقتين وكأن حيرة الأطفال الصادقة بادية فيهما، فقلت لها: وكيف لك أن تعرفي؟

- أنا أعرف في العادة ، لقد شعرت دائماً أن هذه هي وظيفتي .
أن كالب يعطي مواعظ جيدة ويشرح المبادئ ، وهذا هو واجب
الكاهن . ولكن إذا ما سمحت للكاهن بالزواج فأظن أن من واجب
زوجته معرفة ما يشعر به الناس وما يفكرون فيه ، حتى لو لم تستطع
عمل شيء بشأن مشاعرهم وأفكارهم تلك . وليست لدي أي فكرة
عن صاحب ذلك العقل الذي ...

سكتت ، ثم أضافت وهي شاردة الذهن : إنها رسائل سخيفة .

- هل ... هل تلقيتِ أيّاً منها؟

شعرت ببعض الحياء وأنا أسألها هذا السؤال ، ولكن السيدة
كالثروب ردّت بطريقة طبيعية تماماً وقد اتسعت عينها قليلاً : آه ،
نعم ، اثنتين ... لا بل ثلاثاً ، وقد نسيت ما قيل فيها بالضبط . أظنها
ذكرت شيئاً سخيفاً جداً عن كالب والمدرّسة . سخيفة تماماً ، لأن
كالب ليس من هذا النوع من الرجال بأي حال .

- تماماً ، تماماً .

- إنه غارق بين كتبه مستغرق في أبحاثه بحيث ينسى كل
شيء حوله .

لم أشعر بأنني مؤهل للإجابة على هذا النقد ، وعلى أي حال
فقد واصلت السيدة كالثروب كلامها وهي تقفز من الحديث عن
زوجها إلى الرسائل مرة أخرى بطريقة محيرة : توجد أشياء كثيرة
جداً يمكن أن تقولها الرسائل ولكنها لا تقولها ... هذا هو الغريب
في الأمر .

قلت بمرارة: لا أكاد أرى أن الرسائل قصّرت في مسألة الحشمة والتحفّظ.

- ولكنها لا توحى بمعرفة أي شيء، لا شيء من الأمور الحقيقية.

- ماذا تقصدين؟

نظرت إلي بعينيها الدقيقتين الغامضتين وقالت: بالطبع يوجد في هذه البلدة الكثير من الفواحش والخطايا... ومن الأشياء الأخرى. أسرار مخزية كثيرة، فلماذا لا يستغلها كاتب الرسائل؟

سكتت ثم سألت فجأة: ماذا قال في رسالتك؟

- قال إن أختي ليست أختي فعلاً.

- وهل هي أختك؟

سألت السيدة كالثروب هذا السؤال باهتمام ودّي لا حرج فيه.

- جونا شقيقتي بالتأكيد.

أومأت برأسها وقالت: هذا يوضح لك ما أعنيه. وأظن أن أموراً أخرى...

نظرت إليّ متأملة بعينيها الصافيتين اللامبالييتين، وفجأة أدركتُ سبب خوف أهالي لايمستوك من السيدة كالثروب، ففي حياة كل امرئ فصول مستترة يأمل أصحابها أن لا تُعرّف أبداً، وقد قدّرت أن السيدة كالثروب كانت تعرفها.

لأول مرة شعرت بالبهجة إذ سمعتُ صوت إيمي غريفيث

المرح يصيح بقوة: مرحباً يا مود. أنا سعيدة لأنني وجدتك، أريد أن أقترح عليك تغيير موعد المزاد. صباح الخير يا سيد بيرتن... يجب أن أدخل إلى البقال وأترك عنده طلبي، ثم سأذهب إلى المعهد مباشرة إن كان هذا يناسبك؟

قالت السيدة كالثروب: نعم، نعم. هذا جيد.

دخلت إيمي غريفيث إلى المتجر الصغير الذي يسمي نفسه «المخازن الدولية»، وقالت السيدة كالثروب: مسكينة!

شعرت بالحيرة، فهل يُعقل أن ترثي لحال إيمي؟ ولكنها أكملت حديثها: أتعلم يا سيد بيرتن؟ إنني خائفة بعض الشيء...

- من مسألة الرسائل هذه؟

- نعم، إنها تعني... لا بد أنها تعني...

سكتت مستغرقةً في التفكير وقد ضاقت عيناها، ثم قالت ببطء كمن يحل لغزاً: إنها كراهية عمياء. نعم، كراهية عمياء. ولكن حتى الرجل الأعمى قد يطعن أناساً حتى قلوبهم بمحض المصادفة، فما الذي سيحدث عندها يا سيد بيرتن؟

وقد قُدر لنا أن نعرف ذلك قبل أن يمر علينا اليوم.

- ٢ -

كانت بارتريدج هي التي أبلغتنا بخبر المأساة. وبارتريدج امرأة تتلذذ بالفواجع، وكنت أرى أنفها يرتجف نشوة عندما تريد إبلاغنا بأي خبر سيئ. جاءت إلى غرفة جوانا وأنفها يعمل بكامل

طاقته، وعيناها تلمعان، وقد انخفض فمها ليعطي انطباعاً مبالغاً به من التجهم. قالت وهي تفتح مغاليق النافذة: يوجد خبر رهيب هذا الصباح يا آنسة.

كانت جوانا -بعاداتها اللندنية- تحتاج لبعض الوقت حتى تتنبّه تماماً في الصباح، فاكتفت بالقول: "آه"، ثم تقلبت في فراشها دون اهتمام حقيقي. وضعت بارتريدج شاي الصباح إلى جانبها وقالت مرة أخرى: إنه خبر رهيب يبعث على الصدمة، لم أكد أصدقه عندما سمعته!

سألت جوانا وهي تجاهد للاستيقاظ: ما هو الرهيب؟

قالت بارتريدج: السيدة سيمنغن المسكينة!

وسكتت على نحو درامي ثم عادت لتقول: لقد ماتت.

- ماتت؟! -

انتصبت جوانا جالسة في سريرها وقد استيقظت الآن تماماً.

- نعم يا آنسة، عصر أمس. والأسوأ من هذا أنها انتحرت.

- آه، أحقاً يا بارتريدج؟

صُدِمَت جوانا بالفعل، فالسيدة سيمنغن لم تكن -بشكل ما- ممّن يمكن للمرء أن يربط بينهم وبين هذه المآسي.

- نعم يا آنسة، إنها الحقيقة. لقد قتلت نفسها عمداً. وهذا

لا يعني أنها لم تُدفع لذلك، المسكينة!

- تُدفع؟

لمحت جوانا ومضة للحقيقة، وقالت: لا تقولي...

كانت عيناها نظران إلى بارتريدج نظرات تساؤل، فأومأت بارتريدج برأسها وقالت: هذا صحيح يا آنسة، بسبب واحدة من تلك الرسائل القذرة.

- ماذا قالت الرسالة؟

كان هذا - مع شديد أسف بارتريدج - ما لم تنجح في معرفته.

قالت جوانا: إنها أعمال وحشية، ولكنني لا أرى سبباً يجعلها تدفع المرء للانتحار.

استنشقت بارتريدج ثم قالت بكثير من المعنى: ما لم تكن رسائل صحيحة يا آنسة.

- آه.

شربت جوانا الشاي بعدما غادرت بارتريدج الغرفة، ثم ألقت رداء على كتفيها وانطلقت إليّ لتخبرني بالخبر.

فكرتُ فيما قاله أوين غريفيث: "عاجلاً أو آجلاً ستنتقل رصاصة في الظلام لتصيب مقتلاً"، وقد أصابت مقتلاً لدى السيدة سيمينغتن. لقد كان لها سرّها، وهي التي تبدو أبعد النساء عن ذلك. وفكرتُ بأنها - رغم كل ذكائها - لم تمتلك قوة التحمل، كانت من النوع الشاحب الضعيف المتشبث الذي ينهار بسهولة.

وكزتني جوانا وسألتنني عما أفكر فيه، فكررت على مسامعها ما قاله أوين لي، فقالت بحدة: من شأنه طبعاً أن يعرف كل شيء

عن هذا الأمر، فهو يرى أنه يعرف كل شيء.

- إنه ذكي.

- بل هو مغرور، مغرور لدرجة بغیضة!

ثم قالت بعد وقت قصير: إنه حادث فظيع بالنسبة للزوج،
وللفتاة أيضاً. كيف ستشعر ميغان إزاء هذا الأمر برأيك؟

لم تكن لدي أية فكرة عن ذلك، وهو ما قلته لها. كان غريباً
أن لا يستطيع المرء معرفة ما يمكن أن تفكر به ميغان أو تشعر به.

أومأت جوانا برأسها وقالت: نعم، ليس بوسع المرء أبداً أن
يعرف شيئاً من مشاعر طفلة مُستبدلة.

ثم قالت بعد سكوت قصير: هل ترى... أترغب بأن... لا
أدري إن كانت الفتاة ترغب بالمجيء للبقاء عندنا يوماً أو اثنين؟
إنها صدمة كبيرة لفتاة بهذا السن.

وافقتها وقلت: يمكننا الذهاب واقتراح هذا عليها.

- لا بأس على الصبيين، فعندهما تلك المربية. ولكنني أظنها
من النوع الذي قد يدفع فتاة مثل ميغان إلى الجنون.

رأيت أن ذلك ممكن جداً. كنت أستطيع تصور الأنسة هولاند
وهي تتفوه بعبارات تافهة واحدة تلو الأخرى وتقترح عليها عدداً
لا يحصى من فناجين الشاي. إنها لطيفة، ولكنني لم أرَ فيها مربية
تستطيع التعامل مع فتاة حساسة.

كنت قد فكرت في إبعاد ميغان عن بيتها، وقد سررت جداً

لأن جوانا فكرت في هذا الأمر تلقائياً دون حث مني. ذهبنا إلى بيت سيمينغتن بعد الإفطار، وكنا مرتبكين قليلاً كلانا، إذ ربما بدا وصولنا مجرد فضول لمعرفة تفاصيل الحوادث المفجعة. لحسن الحظ التقينا بأوين غريفيث وهو خارج لتوه عبر البوابة، وقد بدا قلقاً مهموماً مشغول الذهن، ولكنه حياني ببعض الحرارة قائلاً: مرحباً يا بيرتن، تسرني رؤيتك. إن ما خشيتُ وقوعه عاجلاً أو آجلاً قد وقع فعلاً. قضية مؤسفة جداً!

قالت جوانا بصوت كانت تدخره لعمّة لنا صماء: صباح الخير يا دكتور غريفيث.

فوجئ غريفيث واحمرّ وجهه وقال: آه، آه، صباح الخير آنسة بيرتن.

قالت جوانا: حسبتك لم ترني.

ازداد احمرار وجه أوين غريفيث وأخذ الحياء منه كل مأخذ وقال: أنا... أنا آسف. كنت مشغول البال ولم...

أكملت جوانا دون رحمة: رغم أنني بنفس حجمي، لم أغير.

قلت لها بعبارة جانبية لاذعة: ولكنك بحجم صورة نصفية.

ثم أكملت: لقد تساءلنا أنا وأختي -يا غريفيث- إن كان من المستحسن أن تأتي الفتاة لتقييم معنا يوماً أو يومين؟ ما رأيك؟ لا أحب التدخل ولكن الأمر سيكون صعباً على الفتاة المسكينة دون شك. ماذا سيكون رأي السيد سيمينغتن في هذا الأمر برأيك؟

قلّب غريفيث الفكرة في رأسه لبعض الوقت ثم قال أخيراً:

أظنها ستكون فكرة ممتازة. إنها فتاة عصبية غريبة الأطوار ومن الأفضل لها أن تبتعد عن البيت. إن الأنسة هولاند ممتازة، إنها فتاة عاقلة جداً، ولكن لديها ما يكفيها من العمل مع الولدين ومع سيمنغن نفسه. إنه منهار تماماً، لقد صعقه المصاب.

قلتُ بتردد: أكان الأمر... انتحاراً؟

أوماً غريفيث برأسه وقال: نعم؛ لا يمكن أن حادثاً. لقد كتبت ملاحظة على ورقة صغيرة تقول فيها: «لا يمكنني الاستمرار». لا بد أن الرسالة وصلت في بريد عصر أمس. كان المغلف على الأرض بجانب كرسيها، وكانت الرسالة نفسها قد كُورِت وألقيت قرب الموقد.

- ماذا كانت... -

سكتُ وقد أربكتني جرأتي، فقلت: أرجو المعذرة.

ابتسم غريفيث ابتسامة حزن سريعة وقال: لا تتحرج من السؤال، فلا بد أن تُقرأ تلك الرسالة في التحقيق. هذا ما لا مفر منه، وهو أمر يدعو لمزيد من الأسى. كانت رسالة من ذلك الطراز وقد كُتبت بنفس الأسلوب الشرير. ولكن الاتهام المحدد هو أن الولد الثاني، كولين، لم يكن ابن سيمنغن.

صحت غير مصدق: أتظن هذا صحيحاً؟

رفع غريفيث كتفيه حيرة وقال: ليس لديّ من الوسائل ما يمكنني من تكوين حكم، فأنا لم آتِ إلى هذه البلدة إلا منذ خمس سنوات، وحسبما رأيت دوماً فإن سيمنغن وزوجته كانا زوجين

هادئين سعيدين متحابين ويحبان أطفالهما. صحيح أن الولد لا يشبه والديه بشكل محدد، فشعره أحمر فاتح (من ضمن أمور أخرى) لكن الطفل كثيراً ما يعود لحمل أوصاف جده أو جدته.

- ربما كان عدم التشابه هذا هو الذي تسبب في ذلك الاتهام تحديداً. إنه اتهام شنيع أُطلق جزافاً دون أي مبرر.

- محتمل جداً، فلم يكن ذلك القلم المسموم لينطلق من أية معرفة دقيقة باستثناء الحقد والضغينة.

قالت جوانا: ولكنه صادف أن أصاب مقتلاً، وإلا لما كانت ستقتل نفسها، أليس كذلك؟

قال غريفيث مرتاباً: لست متأكداً تماماً. كانت السيدة معتلة منذ بعض الوقت، وكانت مصابة بعُصاب وهستيريا كنت أعالجها منهما. أظن من الممكن أن تكون الصدمة -عند تلقيها مثل هذه الرسالة التي صيغت بتلك العبارات- قد أدت إلى حالة من الذعر والاكْتئاب اليائس مما جعلها تفكر في الانتحار. ربما قلقت لدرجة شعرت معها أن زوجها قد لا يصدقها إذا أنكرت القصة، وربما أثر عليها الشعور بالخزي العام والاشمئزاز بقوة أدت إلى زعزعة قدرتها على الحكم على الأشياء لفترة مؤقتة.

قالت جوانا: انتحار في حالة عقلية مضطربة.

- بالضبط. أظن أنني سأكون معذوراً تماماً في عرض وجهة النظر هذه أثناء التحقيق.

قالت جوانا: فهمت.

كان في صوتها شيء جعل أوين يقول بصوت غاضب: سأكون
معذوراً تماماً. ثم أضاف: ألا توافقين على ذلك يا آنسة بيرتن؟

- آه، بلى، أوافقك. لو كنت مكانك لصنعت ذلك.

نظر أوين إليها نظرة ارتياب، ثم ذهب ببطء في الشارع،
ودخلنا إلى البيت. كان الباب الأمامي مفتوحاً وبدا الدخول أسهل
من رنّ الجرس، لا سيما عندما سمعنا صوت إلسي هولاند في
الداخل. كانت تتحدث إلى السيد سيمينغتن الذي ألقى بجسمه
مترهلاً على كرسي وهو يبدو ذاهلاً تماماً: لا، يجب أن تأكل
شيئاً يا سيد سيمينغتن. أنت لم تتناول إفطارك، أو ما أسميه الإفطار
الصحيح، ولم تأكل شيئاً الليلة الماضية. الصدمة ستجعلك تمرض
أنت الآخر، وأنت تحتاج لكل قوتك. هذا ما قاله الطبيب قبل أن
يغادر.

قال سيمينغتن بصوت لا حياة فيه: هذا من لطفك يا آنسة
هولاند، ولكن...

قالت إلسي هولاند: "فنجان من الشاي الساخن الجيد"... ثم
دفعت له بالشاي أمامه.

أنا شخصياً كنت سأعطي هذا المسكين كأساً من الليمون
لينعشه قليلاً، فقد بدا أنه بحاجة إليه. ومع ذلك قبل الشاي وقال
وهو يرفع بصره إلى إلسي هولاند: لا أستطيع التعبير عن شكري
لكل ما فعلته وتفعلينه يا آنسة هولاند، لقد كنت رائعة تماماً.

احمرّ وجه الفتاة وبدت مسرورة وقالت: جميل منك أن
تقول هذا يا سيد سيمينغتن. يجب أن تتركني أفعل كل ما أستطيع

لمساعدتك. لا تقلق على الطفلين، سأتولاهما برعايتي، وقد هدأتُ الخدم، وإذا كان هناك شيء يمكنني فعله، كتابة رسائل أو مكالمات هاتفية، فلا تتردد بطلبه مني.

قال سيمنغنثانية: هذا من لطفك الشديد.

عندما التفتت إليسي هولاند رأتنا وجاءت إلى الصلاة مسرعة قائلة بهمس خافت: أليس الأمر مرعباً؟

رأيت وأنا أنظر إليها أنها فتاة لطيفة حقاً. لطيفة، وقديرة وعملية في أوقات الطوارئ. كانت عيناها الزرقاوان الرائعتان محمرتين قليلاً، مما يظهر أنها كانت من الرقة بحيث ذرفت الدموع على موت سيدتها.

قالت جوانا: أيمكننا الحديث معك دقيقة؟ لا نريد إزعاج السيد سيمنغنثان.

أومأت إليسي هولاند برأسها مستوعبةً وتقدمتنا إلى غرفة الطعام في الجانب الآخر من الصلاة. قالت: كان وقع الأمر كبيراً عليه. يا لها من صدمة! من كان يظن أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث؟ لكنني أدرك الآن بالطبع أنها كانت غريبة الأطوار منذ زمن، كانت عصبية المزاج كثيراً وكثيرة البكاء. كنت أظن ذلك بسبب صحتها، رغم أن الدكتور غريفيث كان يقول دائماً إن صحتها جيدة. ولكنها كانت عصبية متوترة سريعة الالتهياج، وأحياناً لم نعرف كيف نعاملها.

قالت جوانا: إنَّ ما جئنا لأجله في الحقيقة هو معرفة ما إذا

كان باستطاعتنا أخذ ميغان عندنا بضعة أيام... هذا إن رغبت هي بالأمر.

بدأت إلسي هولاند مدهوشة بعض الشيء، ثم قالت بارتياح: ميغان؟ لا أعرف. أقصد أنه لطف كبير منكما، ولكنها فتاة غريبة الأطوار. لا أحد يعرف ما الذي ستقوله أو تشعر به بخصوص الأشياء.

قالت جوانا بشيء من الغموض: توقعنا أن هذه الفكرة قد تساعد.

- آه، من هذه الناحية فهي تساعد فعلاً. أقصد أنني يجب أن أرى الولدين (وهما الآن مع الطاهية) والسيد سيمينغتن المسكين، فهو يحتاج حقاً إلى العناية كالأخرين، وعندى الكثير مما ينبغي القيام به والإشراف عليه، وأنا لا أملك -فعلاً- وقتاً كافياً لرعاية ميغان. أظنها في غرفة الأطفال القديمة في الطابق العلوي. يبدو أنها تريد الابتعاد عن الجميع. لا أعرف إن كانت...

نظرت جوانا إليّ نظرة خفيفة فُهرعت خارج الغرفة وصعدت الدرج وفتحت باب غرفة الأطفال ودخلت. كانت غرفة الأطفال القديمة في أعلى البيت، وكانت الغرفة الواقعة تحتها تشرف على الحديقة من الخلف ولم تكن الستائر فيها مسدلة، أما في هذه الغرفة التي تواجه الطريق فكانت الستائر مسدلة.

رأيت ميغان من خلال ضوء خافت. كانت جاثمة على أريكة عند الحائط البعيد وتراءت لي على الفور صورة حيوان خائف مختبئ. بدأت كمن شلّه الخوف. قلت: ميغان! وتقدمت نحوها

متبنيًا - دون وعي - نبرة من يريد طمأنة حيوان خائف. وأنا مدهوش حقاً لأنني لم أمد يدي بجزرة أو قطعة من السكر، فقد كان هذا ما شعرت به.

نظرت إليّ، ولكنها لم تتحرك ولم تتغير ملامح وجهها. قلت مرة أخرى: ميغان، لقد جئتُ وجوانا لنطلب منك القدوم لتقيمي معنا بعض الوقت إن شئت.

جاء صوتها من خلال الضوء الخافت عميقاً كأنما هو آتٍ من أخذود: أقيم معكما؟ في بيتكما؟

- نعم.

- أتعني أنك ستأخذني بعيداً عن هذا المكان؟

- نعم يا عزيزتي.

فجأة بدأ جسدها كله يرتجف، وكان ذلك مخيفاً ومؤثراً. قالت: آه، أرجوك أن تأخذني بعيداً! أرجوك... إن البقاء هنا والشعور بكل هذا الشر أمر فظيع.

تقدمتُ منها فتشبثتُ يداها بأكمام معطفي وقالت: أنا جبانة جداً، لم أكن أعرف أنني جبانة هكذا.

- لا بأس عليك، هذه الأمور ترهق الأعصاب. هيّا.

- هل يمكننا الذهاب فوراً؟ دون انتظار دقيقة واحدة؟

- أظن أن عليك أن تجمعني بعض أغراضك.

- أي أغراض؟ لماذا؟

- يا عزيزتي! يمكننا أن نوفر لك سريراً وحمّاماً، ولكنني لا أستطيع إعارتك فرشاة أسناني.

ضحكت ضحكة ضعيفة باهتة وقالت: فهمت. أظن أنني غبية اليوم! سأذهب وأحزم بعض الأشياء. ألن تذهب؟ هل ستنتظرنني؟
- سأنتظرك.

- أشكرك، أشكرك كثيراً. آسفة لأنني بمثل هذا الغباء، ولكن فقدان الأم أمر فظيع.
- أعرف.

ربّت على ظهرها بحنان فنظرت إليّ نظرة امتنان وذهبت إلى غرفة نومها، فيما نزلت أنا إلى الطابق السفلي.
قلت: تحدثت إلى ميغان، وهي قادمة.

صاحت إلسي هولاند: هذا رائع، هذا سيلهيهها تماماً. إنها فتاة صعبة عصبية المزاج، سأرتاح تماماً حين أشعر أنني لن أنشغل بها مع المشاغل الأخرى. هذا لطف كبير منك يا آنسة بيرتن. أرجو أن لا تكون مصدر إزعاج لكما. آه، جرس الهاتف يرنّ. يجب أن أذهب للرد عليه، فعزيزي سيمنغتن ليس مستعداً لذلك.

ثم أسرع خارجة من الغرفة، فقالت جوانا: إنها الملاك الحارس تماماً!

قلت: لقد قلتِ هذا بشيء من اللؤم. إنها فتاة لطيفة وكريمة، وواضح أنها قديرة جداً.

- جداً، وهي تعرف ذلك.

- هذا ليس من طبعك يا جوانا.

- لا أتحمّل رؤية من يزهو بنفسه، فهذا يثير أسوأ غرائزي!
كيف وجدت ميغان؟

- كانت جاثمة في غرفة معتمة أشبه بغزال مُصاب.

- مسكينة. أكانت راغبة تماماً في المجيء؟

- لقد قفزت من الفرحة.

سمعنا صوت أقدام في الصالة دلّت على نزول ميغان حاملة حقيبتها، فقمّت وأخذتها منها، وقالت جوانا بالحاح: هيا بسرعة، ألا يكفي أنني رفضت مرتين حتى الآن شرب كوب حار رائع من الشاي؟

خرجنا إلى السيارة فدخلتها ميغان وتبعتها، وانطلقت بنا جوانا. وصلنا إلى «ليتل فيرز» ودخلنا غرفة الاستقبال، فألقت ميغان نفسها في مقعد وانفجرت في البكاء. بكت بكاء الأطفال المرير، وكان بكاءؤها أقرب إلى الصراخ. تركتُ الغرفة بحثاً عن علاج، فيما وقفت جوانا وهي تشعر بالعجز كما أظن.

وسرعان ما سمعتُ ميغان وهي تقول بصوت خنقته العبرات: أنا آسفة لأنني صنعت ذلك، يبدو كتصرف الحمقى.

قالت جوانا بلطف: إطلاقاً يا عزيزتي، خذي منديلاً آخر.
وأحسب أنها قدمت لها ما يصلح حالها قبل أن آتيتها بكوب

من عصير الليمون قبلته مني بامتنان. ثم حوّلت انتباهها إلى جوانا وقالت: أنا آسفة حقاً لهذا الإزعاج الذي سببته لك في الصباح بهذه الطريقة. لا أعرف لماذا؟ يبدو تصرفاً سخيفاً مع سعادتني الكبيرة بوجودي هنا.

قالت جوانا: لا بأس، نحن سعيدان جداً بوجودك معنا.

- لا يمكن... هذا لطف منكما، لكنني ممتنة لكما.

- أرجو أن لا تشكرينا، فهذا سيشعرنني بالحرج. كنت أقول الحقيقة عندما أكدت أننا سعيدان لوجودك معنا، لقد استهلكنا أنا وجيري كل الحديث فما عدنا نستطيع التفكير بأشياء أخرى نقولها.

قلت: ولكن سيمكننا الآن التحدث معاً في موضوعات شيقة مختلفة... عن جونيريل وريغان وغير ذلك من الأمور.

أشرق وجه ميغان وقالت: كنت أفكر بهذا، وأظن أنني أعرف الإجابة: والدهما العجوز الفظيع كان يلحّ دائماً على سماع مثل هذا التملق والتذلل. عندما تُضطر دوماً لأن تقول: "شكراً" و"هذا لطف منك" وغير ذلك من كلمات التملق والمديح فإن هذا يخلف في داخلك بذرة غضب وشذوذ، وسوف تشتاق لأن تكون إنساناً قاسياً من باب التغيير. وعندما تتاح لك الفرصة فربما وجدت أن الفكرة قد دخلت رأسك، فتذهب بعيداً في ردود أفعالك. لقد كان الملك العجوز لير فظيلاً جداً، أليس كذلك؟ أقصد أنه كان يستحق فعلاً التوبيخ الذي سمعه من ابنته كورديليا.

قلت: يبدو أننا سنخوض في كثير من الأحاديث المشوقة عن شكسبير؟

قالت جوانا: أرى أنكما ستكشفاً عن ثقافة ريفية واسعة، أما أنا فأخشى القول بأنني وجدت كتابات شكسبير دائماً كثيفة مملة.

قلت وأنا ألتفت إلى ميغان: كيف تشعرين الآن؟

- على ما يرام، أشكرك.

أخذت جوانا ميغان إلى الدور العلوي لتفريغ حقيبتها، ودخلت بارتريدج وهي تبدو متجهمة فقالت إنها أعدت كأسين من حلوى الكستر للغداء، فماذا تصنع حيال هذا الأمر؟

* * *

الفصل السادس

- ١ -

عُقدت جلسة التحقيق بعد ذلك بثلاثة أيام، وقد جرت الأمور بصورة لائقة قدر الإمكان. ولكن الحضور كانوا بأعداد كبيرة، وكما علّقت جوانا: كانت قلنسوات النساء حول وجوههن تتحرك صعوداً ونزولاً لكثرة أحاديثهن.

حُدِّد وقت وفاة السيدة سيمينغتن فيما بين الساعة الثالثة والرابعة. كانت وحدها في البيت، وكان زوجها في مكتبه، فيما غابت الخادومات في عطلتهن الأسبوعية، وكانت إلسي هولاند والولدان في الخارج يتمشون، أما ميغان فكانت قد خرجت في جولة على الدراجة.

لا بد أن الرسالة وصلت في بريد العصر، ويبدو أن السيدة سيمينغتن أخذتها من الصندوق وقرأتها، ثم ذهبت -وهي في حالة من الاهتياج والغضب- إلى سقيفة الأواني فأحضرت بعضاً من السيانيد (الموجود هناك للقضاء على أعشاش الزنابير) فحلّته في الماء وشربته بعدما كتبت كلماتها المنفصلة الأخيرة تلك: «لا يمكنني الاستمرار».

قدّم أوين غريفيث شهادته الطبية، وشدّد على رأيه الذي أوضحه لنا عن الحالة العصبية عند السيدة سيمينغتن وضعف قدرتها على الاحتمال. كان قاضي التحقيق لطيفاً وحكيماً، وقد جرّم بمرارة أولئك الذين يكتبون هذه الأشياء الحقيرة، الرسائل المُعْغَلّة، وقال إن كاتب تلك الرسالة الشريرة والكاذبة -كائناً من كان- مسؤول أخلاقياً عن جريمة القتل، وأعرب عن أمله في أن يتمكن الشرطة قريباً من اكتشاف الفاعل لاتخاذ إجراء ضده رجلاً كان أم امرأة، لأن تصرفاً جباناً حاقداً كهذا يستحق أقصى عقوبة يفرضها القانون.

وبناء على أقواله تلك وصل المحلفون إلى الحكم الحتمي: انتحار في لحظة جنون مؤقت.

وقد بذل القاضي كل ما في وسعه، وكذلك أوين غريفيث، ولكني بعد ذلك -عندما اختلطت بجموع نسوة القرية المحتشدة المتلهفة- سمعت نفس الهمسات البغيضة التي بدأت أعرفها جيداً مثل: "لا دخان بلا نار، هذا رأيي"، أو "لا بد من وجود شيء في الأمر، وإلا ما كانت لتفعل ذلك أبداً"...

في تلك اللحظة كرهت لايمستوك، وكرهت حدودها الضيقة ونساءها الهامسات الثرثارات.

- ٢ -

يصعب تذكر الأشياء حسب ترتيبها الزمني الدقيق. كانت الحادثة المهمة التالية بالطبع هي زيارة المفتش ناش، ولكن أذكر أننا تلقينا قبل تلك الزيارة زيارات أخرى من أشخاص عديدين من

البلدة، وكانت كل زيارة من تلك الزيارات مثيرة للاهتمام بطريقتها الخاصة بإلقائها بعض الضوء على الشخصيات المعنية.

جاءت إيمي غريفيث في صباح اليوم الذي تلا التحقيق. بدت كعادتها مليئة بالحيوية والنشاط والحماسة ونجحت -كعادتها أيضاً- في إزعاجي على الفور تقريباً. كانت جوانا وميغان خارج البيت فقمتم بالواجب.

قالت الآنسة إيمي غريفيث: صباح الخير، سمعت أنكما تستضيفان ميغان هنتر عندكما هنا؟

- نعم.

- إنه عمل طيب منكما، ولا بد أن فيه إزعاجاً لكما. جئت لأقول إن بوسعها أن تأتي إلينا إن شاءت. أظن أن باستطاعتي العثور على وسائل لجعلها مفيدة في البيت.

نظرت إلي إيمي غريفيث نظرة استياء شديد وقلت: هذا لطف منك، لكننا نود بقاءها معنا. إنها سعيدة تماماً بالتسكع هنا.

- أظن هذا. هذه الطفلة تحب التسكع كثيراً، ولعلها لا تملك أن تكون غير ذلك، فهي عملياً بنصف عقل.

- أظن أنها فتاة ذكية.

نظرت إيمي غريفيث إليّ نظرة قاسية وقالت: هذه هي أول مرة أسمع فيها شخصاً يقول هذا عنها، حتى إنك عندما تتحدث إليها فإنها تنظر إليك وكأنها لا تفهم ما تقوله!

- ربما لا تكون مهتمة بالموضوع فقط.

- إن كانت كذلك فهي وقحة جداً.

- ربما، ولكنها ليست بنصف عقل.

قالت بحدة: إنه الشرود والغفلة في أحسن الأحوال. ما تحتاجه ميغان هو عمل دؤوب جيد، شيء يجعلها تهتم بالحياة. أنت لا تتصور الاختلاف الذي يحدثه ذلك في حياة الفتاة. أنا أعرف الكثير عن الفتيات، وسيدهشك الاختلاف الذي يحدث عند الفتيات حتى من الانخراط في سلك الكشافة. إن ميغان أصبحت أكبر بكثير من أن تقضي وقتها في التسكع والبطالة.

- كان من الصعب عليها حتى الآن عمل شيء آخر، فقد بدا دوماً أن السيدة سيمنغتن ترى فيها فتاة في الثانية عشرة من عمرها.

زفرت الأنسة غريفيث بازدرء وقالت: أعرف، ولم أكن أطيع صبراً على موقفها ذاك. المسكينة ميتة الآن بالطبع فلا أريد قول المزيد، ولكنها كانت مثلاً نموذجياً للمرأة غير الذكية التي لا تشغلها إلا هموم المنزل: لعب البريدج وأطفالها والقبيل والقال... حتى الطفلان كانت لديها الأنسة هولاند لعنتي بهما. أنا لم أكن من المعجبات أبداً بالسيدة سيمنغتن، رغم أنني لم أشك في الحقيقة أبداً.

قلت بحدة: الحقيقة؟

احمرّ وجه الأنسة غريفيث وقالت: لقد أسفت كثيراً على السيد سيمنغتن بسبب نشر كل تلك الأمور في التحقيق، كان ذلك شديد الحرج بالنسبة له.

- ولكن لا بد أنك سمعته وهو يؤكد عدم صحة كلمة واحدة في تلك الرسالة وأنه متأكد تماماً من هذا؟

- طبعاً قال ذلك، وهو موقف صحيح تماماً. لا بد أن يقف الرجل مدافعاً عن زوجته، ومن شأن ذلك أن يفعل هذا قطعاً.

سكتت قليلاً ثم أوضحت: لقد عرفتُ ذلكُ سيمنغن منذ وقت طويل.

فوجئتُ قليلاً وقلت: حقاً؟ لقد فهمت من أخيك أنه اشترى عيادته هنا منذ بضع سنوات فقط.

- نعم، ولكن ذلك سيمنغن كان يقيم قبل ذلك في منطقتنا في الشمال. لقد عرفته منذ سنوات.

إن النساء يقفزن إلى نتائج لا يقفز إليها الرجال، ومع ذلك فإن نبرة إيمي غريفيث التي أصبحت ناعمة فجأة جعلت أفكاراً عديدة تراودني. نظرت إليها بفضول فيما واصلت هي حديثها بذلك الصوت الناعم: أعرف ذلك جيداً، إنه رجل ذو كبرياء ومتحفظ جداً، ولكنه من النوع الذي يمكن أن يكون غيراً جداً.

قلت متأنياً: هذا يوضح سبب خوف السيدة سيمنغن من عرض الرسالة عليه أو إخباره بها. كانت تخشى أن لا يصدق إنكارها بسبب غيرته.

نظرت الآنسة غريفيث إليّ بغضب وازدراء وقالت: يا إلهي! هل تظن أن من شأن امرأة أن تذهب وتبتلع كمية من سيانيد البوتاسيوم بسبب اتهام غير صحيح؟

- يبدو أن قاضي التحقيق رأى هذا ممكناً ، وأخوك أيضاً...

قاطعتني إيمي: الرجال كلهم سواء، كلهم يريدون المحافظة على الآداب العامة. ولكنك لن تجدني أنا أصدق هذا الهراء. إذا تلقت امرأة بريئة رسالة مجهولة قدرة فإنها تضحك وتلقي بها بعيداً. أنا هكذا...

سكتت فجأة ثم أكملت: كنت سأفعل.

لكنني تنبعت لسكوتها القصير هذا. كدت أكون واثقاً أن ما أرادت قوله هو: "أنا هكذا فعلت". قررت نقل الحرب إلى ساحة الخصم فقلت بمرح: فهمت، إذن فقد استلمت واحدة من تلك الرسائل أيضاً؟

كانت إيمي غريفيث من النوع الذي يحقر الكذب، فسكتت لبعض الوقت واحمرّ وجهها ثم قالت: حسناً، نعم، لكنني لم أتركها تقلقني!

سألته متعاطفاً إذ كنا في البلية سواء: هل كانت بذيئة؟

- بالطبع، هذه الأشياء بذيئة دائماً. إنها هذيان شخص معتوه. قرأت بضع كلمات منها وفهمت ما هي فألقيتها مباشرة في سلة المهملات.

- ألم تفكري في أخذها إلى الشرطة؟

- لم أفكر بذلك وقتها، فقد شعرت - كما يقول المثل - بأن الكلام كلما قلّ كان إصلاحه أسرع.

شعرت بدافع في داخلي يدفعني لأقول: "لا دخان بلا نار!"

ولكنني ضبطت نفسي. ولكي أتجنب هذا الإغراء انتقلت إلى موضوع ميغان. قلت: هل لديك أي علم بوضع ميغان المالي؟ ليس هذا فضولاً تافهاً من ناحيتي، ولكنني كنت أتساءل إن كان من الضروري لها أن تعمل.

- لا أظنه ضرورياً بالمعنى المحدد. لقد تركت لها جدتها لأبيها دخلاً صغيراً كما أظن، وعلى أي حال سيبقى دك سيمينغتن موفراً لها السكن والمصروف حتى لو لم تترك لها أمها أي شيء. لا، ولكن المسألة مسألة مبدأ.

- أي مبدأ؟

- العمل يا سيد بيرتن، لا شيء مثل العمل. إن الكسل هو الخطيئة التي لا تغتفر.

قلت: لقد طُرد السير إدوارد غري (الذي صار فيما بعد وزيراً للخارجية) من جامعة أكسفورد بسبب كسله الذي لا سبيل لإصلاحه، وسمعت أن دوق ويلنغتن كان غيباً ومهملاً لواجباته الدراسية. ثم ألم يخطر ببالك -يا آنسة غريفيث- أنك ربما لم تكوني قادرة على استقلال قطار سريع إلى لندن لو أن جورج ستيفنسن كان قد خرج في نشاط شبابي بدل أن يتسكع سئماً في مطبخ والدته حتى استرعت انتباهه الكسول الطريقة الغريبة التي يعلو ويهبط فيها غطاء الإبريق على النار، فكان ذلك بداية ابتكار القطار؟

اكتفت إيمي بأن زفرت بتأفف، فيما قلت وأنا أتحمس لموضوعي: إن لديّ نظرية تقول إننا ندين بمعظم اختراعاتنا العظيمة ومعظم الإنجازات العبقريّة إلى الكسل، الإجماري منه والطوعي.

إن العقل البشري يفصل أن يتغذى بأفكار الآخرين ، وعندما يُحرَم من هذا الغذاء فإنه سيبدأ كارهاً في التفكير لذاته. تذكري إن مثل هذا التفكير هو تفكير إبداعي وقد يؤدي إلى نتائج قيّمة.

ثم أكملت قبل أن تزفر إيمي من جديد: هذا بالإضافة إلى الجانِب الفَنِّي في الموضوع.

نهضتُ وأخذت من مكتبي صورة كانت تلازمني دائماً لمنظر صيني مفضل عندي. كانت تمثل عجوزاً يجلس تحت شجرة ويسلي نفسه بتلك اللعبة القديمة التي يشبك الأطفال فيها خيوطاً بين أصابعهم حتى يؤلفوا منها شكلاً هندسياً. أحضرت الصورة وقلت لها: كانت هذه في المعرض الصيني ، وقد سحرتني. إنها تُدعى «رجل عجوز يستمتع بالكسل».

لم تتأثر إيمي غريفيث بصورتي الجميلة ، قالت : حسناً ، إننا نعرف جميعاً كيف هي طبيعة الصينيين!

سألتها: ألا تعجبك؟

- بصراحة أنا لست مهتمة بالفن كثيراً ، ويبدو أن موقفك موقف تقليدي لمعظم الرجال يا سيد بيرتن ، فأنت تكره فكرة عمل النساء ومنافستهن.

فوجئتُ بكلامها ، فقد وجدت نفسي فجأة في موقف معاد للحركة النسائية. وسرعان ما غضبت إيمي وقالت وقد احمرت وجنتاها: أنت تستغرب سعي المرأة وراء مهنة لها. والداي أيضاً كانا يستغربان. كنت شديدة الحرص على دراسة الطب ، ولكنهما

لم يوافقا على دفع رسوم الدراسة، ومع ذلك دفعها لأخي أوين عن طيب خاطر. ربما كان من شأني أن أصبح طبيبة أفضل منه!

- أنا آسف لسماع هذا. ربما كان وقعه صعباً عليك، فإذا أراد المرء فعل شيء...

أكملت حديثها بسرعة: لا تأسف؛ لقد تغلبت على مرارة تلك المشاعر، فأنا أملك الكثير من قوة الإرادة وحياتي الآن مشغولة ونشطة. إنني واحدة من أسعد الناس في لايمستوك. لدي الكثير من الأعمال أقوم بها، لكنني أحارب ذلك التمييز الرجعي السخيف الذي يقول إن مكان المرأة في بيتها دائماً.

- أنا آسف إن كنت قد أغضبتك، فهذا لم يكن ما قصدته حقاً، ولكنني لا أستطيع تصور ميغان في دور امرأة يشكل البيت محور حياتها.

- نعم، إنها طفلة مسكينة. أخشى أنها لن تصلح في أي مجال.

كانت إيمي قد هدأت وعادت تتحدث بأسلوبها الطبيعي: أبوها كما تعلم...

ثم سكتت، فقلت بفضاضة: لا، لا أعلم. الجميع يقولون «أبوها» ثم يخفضون أصواتهم، ماذا كان يفعل الرجل؟ أما زال على قيد الحياة؟

- لا أعرف حقاً. كما أنني شخصياً أجهل الكثير من شؤون أبيها، ولكنه كان رجلاً سيئاً بالتأكيد. أظنه من أصحاب السجون،

كما أن في عائلته عرق شذوذ قوياً. هذا ما لا يجعلني أفاًجاً إذا ما كانت ميغان «ناقصة» قليلاً.

- بل هي في كامل قواها العقلية، وكما قلت من قبل فإنني أعتبرها فتاة ذكية. وأختي تراها كذلك أيضاً، إن جونا تحبها كثيراً.

قالت: أخشى أن أختك تجد المكان هنا مملاً جداً دون شك؟

عندما قالت عبارتها تلك أدركت أمراً آخر، فقد كانت إيمي غريفيث تكره أختي. كان ذلك واضحاً في نبرات صوتها التقليدية الهادئة، قالت: لقد تعجبنا جميعاً من قدرتكما على تحمل العزلة في مكان ناءٍ كهذا.

كان ذلك سؤالاً وقد أجبت عنه: إنها أوامر الطبيب. كان عليّ أن أذهب إلى مكان هادئ جداً لا يحدث فيه شيء.

وسكتت ثم أضفت: وهو ما لا يصح تماماً على لايمستوك الآن.

- صحيح، صحيح.

بدت قلقة، ثم نهضت لكي تذهب قائلة: يجب وضع حد لكل هذه الوحشية! لا يمكننا السماح باستمرار هذا الحال.

- ألا يفعل الشرطة شيئاً؟

- لا أدري، لكنني أظن أن علينا معالجة الأمر بأنفسنا.

- نحن لا نملك الوسائل التي يملكونها.

قالت قبل أن توذّعتني وتنصرف مسرعة: هراء! ربما كنا أكثر منهم إدراكاً وذكاء. إن كل ما نحتاجه هو شيء من التصميم.

عندما عادت جوانا وميغان من رحلتها عرضت صورتي الصينية على ميغان، فأشرق وجهها وقالت: إنها رائعة، أليس كذلك؟

- في الواقع هذا هو رأيي أيضاً.

تجعد جبينها بالطريقة التي كنت أعرفها جيداً عنها، وقالت: ولكن من شأن هذا أن يكون صعباً، أليس كذلك؟

- أن يكون المرء كسولاً؟

- لا، ليس أن يكون كسولاً ولكن أن يستمتع بالكسل، فعليك أن تكون كبيراً جداً.

سكتت فقلت لها: وهو بالفعل رجل عجوز.

- لا أقصد أنه كبير بهذا المعنى. لا أقصد السن، أقصد أن يكون كبيراً في... في...

- تقصدين أن على المرء أن يرقى إلى درجة عالية من التحضر حتى يبدو له الأمر على هذا النحو، أي أنها نقطة دقيقة لا يفهمها إلا عقل متطور معقد؟ أظن أنني سأكمل تعليمك يا ميغان بأن أقرأ عليك مئة قصيدة شعرية مترجمة عن اللغة الصينية.

قابلت سيمينغتن في البلدة في نفس ذلك اليوم وسألته: هل في الأمر شيء لو أن ميغان بقيت عندنا قليلاً؟ إنها تؤنس جوانا، فهي تشعر بالوحشة أحياناً لعدم وجود أي من صديقاتها.

- آه، ميغان؟ آه، نعم، كرم كبير منك.

شعرت عندها بكرهية لسيمينغتن لم أستطع التخلص منها تماماً بعد ذلك، فمن الواضح أنه نسي كل شيء عن ميغان. ما كنت لأهتم لو أنه كره الفتاة كرهاً إيجابياً إذا صح التعبير، فقد يغار الرجل أحياناً من ابن الزوج الأول، ولكنه لم يكن يكرهها، بل إنه لا يكاد يشعر بوجودها.

كان شعوره نحوها أشبه بشعور رجل لا يهتم بالكلاب وتصادف أن في بيته كلباً. في هذه الحالة لا تلاحظ وجود الكلب إلا عندما ترتطم به فتشتمه، وأنت تربت عليه بشكل عارض عندما يتمسح بك. لقد أزعجتني كثيراً عدم مبالاة سيمينغتن المطلقة بابنة زوجته.

قلت له: ما الذي تخطط لعمله بشأنها؟

بدا وكأنه قد جفل لسؤالي وقال: بشأن ميغان؟ ستواصل حياتها في البيت. أقصد أنه بيتها طبعاً.

كانت جدتي التي كنت أحبها كثيراً تغني أغاني قديمة وهي تعزف على قيثارتها، وأذكر إن إحدى تلك الأغاني كانت تنتهي بهذه الكلمات:

أنا لست هنا يا فتاتي الغالية،
ليس عندي بيت أو مكان،
ولم يعد لي مأوى لا في البحر ولا على الشاطئ،
سوى في قلبك الحنون.
ذهبت إلى البيت وأنا أدندن بهذه الأغنية.

- ٤ -

جاءت إيميلي بارتُن بعد تناولنا الشاي مباشرة. أرادت الحديث بشأن الحديقة، فخرجنا وتحدثنا نحواً من نصف ساعة، ثم درنا وعدنا إلى البيت، وعندها خففت صوتها وهمست: أرجو أن لا تكون تلك الطفلة قد تضايقت كثيراً من كل هذا الأمر الرهيب؟

- تقصدين وفاة أمها؟

- عنيت ذلك طبعاً. ولكن ما قصده أكثر هو... بشاعة الاتهام الذي يقف خلف ذلك.

شعرت بالفضول وأردت معرفة رد فعل الأنسة بارتُن فقلت:
ما رأيك بذلك الاتهام، أكان صحيحاً؟

- آه، لا، لا بالتأكيد. أنا واثقة أن السيدة سيمنغن لم يسبق لها... أنه لم يكن...

احمرّ وجه إيميلي بارتُن وارتبكت، ثم أكملت قائلة: أقصد أنه غير صحيح على الإطلاق، رغم أنه قد يكون بالطبع حكماً تم إطلاقه.

قلت وأنا أحدق إليها: حكماً؟

اشتد احمرار وجهها وقالت: لا أملك إلا أن أشعر بأن كل هذه الرسائل الفظيعة وكل هذا الحزن والألم الذي سببته إنما أرسل لغرض معين.

قلت متجهماً: لقد أرسل لغرض بالتأكيد.

- لا، لا، لقد أسأت فهمي يا سيد بيرتن. لا أتحدث عن ذلك الإنسان الضال الذي كتبها، فلا بد أنه شخص منبوذ تماماً. أقصد أن العناية الإلهية هي التي سمحت بذلك حتى توقظنا وتنبهنا إلى عيوبنا.

- لا، لا يعاقب الله الناس بغير ذنوب يرتكبونها، فإن لم نكن كما تقول تلك الرسائل فلا بد أن الذي كتبها إنسان شاذ.

- ما لا أستطيع فهمه هو لماذا يريد أي امرئ فعل مثل هذا الشيء؟

رفعتُ كتفي حيرة وقلت: عقلية مريضة.

- يبدو أمراً محزناً جداً.

- لا يبدو لي محزناً، بل يبدو أمراً يستحق اللعنة، ولست بأسف على استخدام هذه الكلمة، فهذا ما أعنيه تماماً.

اختفت الحمرة من وجنتي الآنسة بارتن وأصبحتا شاحبتين تماماً وهي تقول: ولكن لماذا يا سيد بيرتن، لماذا؟ أي متعة يمكن للمرء أن يحصل عليها من هذا الأمر؟

- هذا ما لا نستطيع فهمه لا أنت ولا أنا والحمد لله.

خففت إميلي بارتن صوتها وقالت: يقولون إنها السيدة كليت، ولكن لا يمكنني تصديق ذلك.

هزرت رأسي، فواصلت حديثها باهتياج: لم يحدث مثل هذا الشيء من قبل أبداً، لا أذكر حدوث أمر كهذا. كانت بلدة صغيرة سعيدة. ماذا كانت أمي العزيزة ستقول؟ لا بد أن نحمد الله إذ وفرّ عليها شهود هذا الأمر.

وفكرت بأن السيدة بارتن العجوز - من كل ما سمعته عنها - كانت امرأة قوية لا يمكن لشيء أن يؤثر فيها، ولعلها كانت ستستمع بهذا الحدث المثير.

أكملت إميلي حديثها: إنه أمر يحزنني كثيراً.

- ألم... ألم تتلقي شيئاً منها؟

احمرّ وجهها كثيراً وقالت: آه، أبداً، سيكون مثل هذا الأمر فظيلاً!

أسرعتُ بالاعتذار لها، ولكنها ذهبت وهي منزعجة بعض الشيء. ثم دخلتُ البيت لأجد جوانا تقف قرب النار في غرفة الاستقبال، وكانت قد أشعلتها لتوها إذ كان المساء بارداً، وكانت تمسك بيدها رسالة مفتوحة.

عندما دخلتُ التفتت إليّ بسرعة وقالت: جيري! وجدت هذه في صندوق الرسائل، لقد وُضعت في الصندوق باليد. إنها تبدأ بالقول: أيتها المومس المتبرجة...

- ماذا تقول غير ذلك؟

قالت وقد كشرت تكشيرة عريضة: نفس القذارات القديمة.

ثم ألقته في النار، فقفزت بحركة سريعة ألمت ظهري
وسحبته قبل أن تشتعل فيها النار قائلاً: لا ترميها، قد نحتاج إليها.

- نحتاج إليها؟

- لأجل الشرطة.

- ٥ -

جاء المفتش ناش لرؤيتي في صباح اليوم التالي، ومنذ
اللحظة الأولى التي رأيته فيها أحبته كثيراً. كان كأفضل ما يكون
عليه مفتش شرطة محلي، طويل القامة عسكري السميت، ذا عينين
هادئتين متأملتين وأسلوب صريح متواضع.

قال: صباح الخير يا سيد بيرتن، أظن أنك تستطيع تخمين
سبب مجيئي لرؤيتك؟

- نعم، أظن ذلك. بخصوص تلك الرسالة.

أوماً برأسه موافقاً وقال: فهمتُ أنك تلقيت واحدة منها.

- نعم، بعد وصولنا إلى هنا مباشرة.

- ماذا كان فيها بالضبط؟

فكرت دقيقة، ثم كررت كلمات الرسالة بأكبر قدر ممكن
من الدقة. أصغى المفتش بلا أدنى حركة من وجهه ودون أن يبدي

أي نوع من الانفعال، وعندما انتهيت قال: فهمت، وهل احتفظت بتلك الرسالة يا سيد بيرتن؟

- أنا آسف، لم أحفظ بها، فقد ظننتها حدثاً منفرداً لمناكفتنا كقادمين جدد إلى المنطقة.

أوماً برأسه متفهماً ثم قال باقتضاب: هذا مؤسف.

- ثم تلقت أختي واحدة أخرى بالأمس، وقد منعتها في الوقت المناسب من إحراقها.

- أشكرك يا سيد بيرتن، هذا عمل حكيم.

ذهبت إلى مكثبي وفتحت الدرج الذي وضعت فيه الرسالة، فقد رأيت من غير المناسب أن تراها بارتريدج. وقدمتها لناش فقرأها متمعناً، ثم رفع بصره وسألني: أكانت الرسالة الأولى تشبه هذه من حيث المظهر؟

- أظن ذلك حسبما أذكر.

- نفس الاختلاف بين المغلف ونص الرسالة؟

- نعم. كان المغلف مكتوباً على الآلة الطابعة، أما الرسالة فكانت من كلمات قُصّت ولُصقت على الورقة.

أوماً ناش برأسه ووضعها في جيبه، ثم قال: ترى هل يمكنك أن تأتي إلى مركز الشرطة معي يا سيد بيرتن؟ بإمكاننا أن نتباحث في الأمر هناك، وسوف يوفر علينا هذا وقتاً كبيراً بالإضافة إلى تجنب تداخل العمل.

- بالتأكيد. أتريدني أن أذهب الآن؟

- إن لم يكن عندك مانع.

كانت سيارة الشرطة تنتظر عند الباب فانطلقنا بها إلى المركز.
قلت: هل تعتقد أن باستطاعتكم التوصل إلى حقيقة هذه المسألة؟
أوماً ناش برأسه واثقاً وقال: نعم، سنصل إلى الحقيقة
بالتأكيد، إنها مسألة وقت وروتين. مثل هذه القضايا تستغرق وقتاً،
ولكنها مضمونة الحل. إنها مسألة تضيق للاحتتمالات وصولاً إلى
الفاعل.

- عن طريق استثناء أسماء معينة؟

- نعم، بالإضافة إلى الإجراءات الروتينية الأخرى.

- أتعني مراقبة صناديق البريد وفحص الآلات الطابعة
والبصمات وأمثال هذه الأمور؟

ابتسم وقال: كما تقول.

في مركز الشرطة وجدت سيمنعتن وغريفيث قد سبقاني إلى
هناك، وقدماني لرجل طويل ذي فك طويل بارز يرتدي ملابس
مدنية اسمه المفتش غريفز.

أوضح المفتش ناش قائلاً: لقد جاء المفتش غريفز من لندن
لمساعدتنا، فهو خبير في قضايا الرسائل المجهولة.

ابتسم المفتش غريفز ابتسامة حزينة، وفكرت في نفسي بأن
حياة يقضيها المرء في ملاحقة كاتب الرسائل المجهولة لا بد أن

تكون حياة كئيبة إلى أبعد الحدود ، ومع ذلك أظهر المفتش غريفز نوعاً من الحماسة الكئيبة. قال بصوت عميق حزين ككلب الصيد المحبط: هذه القضايا متشابهة كلها. سوف تُدهش للتشابه في كلمات الرسائل والأشياء التي تقولها.

قال ناش: حدثت عندنا قضية منها قبل سنتين فقط ، وقد ساعدنا المفتش غريفز فيها.

رأيت بعض تلك الرسائل منشورة على الطاولة أمام غريفز ، ومن الواضح أنه كان يفحصها. قال ناش: تكمن الصعوبة في الحصول على الرسائل ، فالناس إما أن يحرقوها أو أنهم لا يعترفون أصلاً بأنهم استلموها. إنهم أغبياء ويخافون من التورط مع الشرطة ، الناس هنا متخلفون.

قال غريفز: ومع ذلك لدينا عدد لا بأس به هنا ويمكننا العمل به.

أخرج ناش من جيبه الرسالة التي أعطيتها له ووضعها أمام غريفز الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم وضعها مع الرسائل الأخرى قائلاً باستحسان: جميل جداً ، حقاً هذا جميل جداً.

ما كنت أنا لأصف الرسالة تلك بهذه الطريقة ، ولكن أحسب أن للخبراء وجهات نظرهم الخاصة ، وقد أسعدني أن يستمتع أحدٌ بهذا الكم من الرسائل القادحة البذيئة الفاحشة.

قال المفتش غريفز: أعتقد أن لدينا ما يكفي لنباشر عملنا ، وسوف أطلب منكم أيها السادة أن تحضروا لنا أية رسائل تحصلون

عليها على الفور. وأيضاً إذا سمعتم عن شخص آخر تلقى واحدة منها. وأن تبذل أنت أيها الطبيب -على وجه الخصوص- بين مرضاك جهدك لإقناعهم بالمجيء برسائلهم إلى هنا.

ثم قال وهو يفرز الرسائل المكومة أمامه: لدينا واحدة وُجّهت إلى السيد سيمنغن استلمها قبل نحو شهرين، وواحدة إلى الدكتور غريفيث، وواحدة إلى الأنسة غينش، وواحدة مكتوبة إلى السيدة مدج زوجة الجزار، وواحدة لجينيفر كلارك الساقية في مقهى ثري كراونز، والرسالة التي تلقتها السيدة سيمنغن، وهذه الرسالة الآن إلى الأنسة بيرتن... آه، نعم، وواحدة أخذناها من مدير البنك.

قلت: إنها مجموعة تمثل كل الشرائح تماماً.

- ولها كلها مثيل في القضايا الأخرى! هذه الرسالة هنا لا تختلف بشيء عن تلك التي كتبتها بائعة القبعات تلك. وهذه الأخرى صورة طبق الأصل عن حملة رسائل محمومة شهدناها في نورثامبرلاند، وكانت كاتبها طالبة مدرسة في ذلك الوقت. ولعلي أقول إنني أود رؤية شيء جديد أحياناً أيها السادة، بدلاً من هذه الأساليب المكرورة نفسها.

تمتمت قائلاً: لا جديد تحت الشمس.

- هذا صحيح، لو كنت في مهنتنا لعلمت ذلك جيداً.

تنهد ناش وقال: نعم، هذا صحيح.

ثم تساءل سيمنغن: هل وصلتكم إلى رأي محدد بخصوص هوية الكاتب؟

تنحج غريفز وألقى محاضرة صغيرة: توجد بين كل هذه الرسائل عوامل مشتركة معينة، وسوف أعدّها عليكم أيها السادة لعلها توحى لكم بشيء: إن نص الرسائل مؤلف من كلمات مركبة من حروف منفصلة تم قصّها من كتاب مطبوع، وهو كتاب قديم أظنه طُبع في نحو العام ١٨٣٠. ومن الواضح أن الكاتب قد فعل ذلك لتجنب خطر التعرف عليه من خلال خط اليد، وهو أمر في غاية السهولة كما يعرف معظم الناس في أيامنا هذه، فمحاولات تغيير الخط لا تصمد أمام اختبارات الخبراء. لا توجد على الرسائل أو المغلفات بصمات أصابع لشخص محدد، وهذا يعني أن الرسائل مرت بأيدي موظفي البريد وأيدي من أرسلت إليهم، كما أن هناك بصمات أخرى، ولكن لا توجد بصمات تشترك فيها جميع الرسائل، مما يظهر أن الشخص الذي كتب الرسائل كان حريصاً على ارتداء القفازات. وقد طُبعت العناوين على المغلفات الخارجية بواسطة آلة كاتبة بالية تماماً من نوع «وِنْدَسور ٧» يخرج فيها حرفا الألف والتاء عن الخط المستقيم. ومعظم هذه الرسائل أرسلت من مكتب بريد البلدة أو أنها كانت توضع في صندوق البريد المنزلي باليد، لذلك فمن الواضح أنها من أصل محلي. وقد كتبتها امرأة، وبرأيي أنها امرأة في وسط العمر أو أكبر قليلاً من ذلك، وربما لم تكن متزوجة، رغم أن هذا ليس أكيداً.

ران علينا صمت مطبق لبعض الوقت، ثم قلت: إن الآلة الكاتبة هي أسهل السبل لمعرفة الفاعل، أليس كذلك؟ لا ينبغي أن يكون كشفها صعباً في بلدة صغيرة كهذه.

هزّ غريفز رأسه بحزن وقال: أنت مخطئ في هذا يا سيدي.

قال المفتش ناش: لسوء الحظ يستطيع أي واحد الوصول إلى الآلة بسهولة كبيرة، فهي آلة قديمة من مكتب السيد سيمنغن أهداها لجمعية المرأة، ويمكنني القول إن بإمكان أي امرئ أن يصل إليها هناك، فما أكثر السيدات اللاتي يذهبن إلى الجمعية في هذه البلدة!

- ألا يمكنك الجزم بشيء محدد من ال... من اللمسة الفنية كما تسمونها؟

أوماً غريفز برأسه ثانية وقال: بلى، هذا ممكن، ولكن هذه المغلفات طُبعت كلها بواسطة شخص يستخدم إصبعاً واحداً.

- إذن فهو شخص غير معتاد على استخدام الآلة الكاتبة؟

- ما كنتُ لأقول ذلك. بل لنقل إنه شخص يتقن الطباعة ولكنه لا يريدنا أن نعرف هذه الحقيقة.

قلت ببطء: أيّاً كان كاتب هذه الرسائل فهو ماكر جداً.

قال غريفز: إنها ماكرة فعلاً يا سيد بيرتن، ماكرة فعلاً، تستخدم كل الحيل الممكنة في هذا المجال.

قلت: لا أظن أن من شأن واحدة من النساء القرويات هنا أن تملك هذا القدر من الذكاء.

سعل غريفز وقال: أخشى أنني لم أوضح قصدي كما يجب، فهذه الرسائل كتبها امرأة مثقفة.

- ماذا؟ أكتبها «ليدي»؟

خرجت الكلمة من فمي رغماً عني. لم أكن قد استخدمت كلمة «ليدي» منذ سنوات، لكنها صدرت الآن بصورة آلية، وقد عاد صداها من أيام طويلة مضت تذكرت فيها صوت جدتي الضعيف وهو يقول لي: "إنها بالطبع ليست ليدي يا عزيزي"!

فهم ناش ما قصدته على الفور، فكلمة «ليدي» ما تزال تعني له شيئاً، لذلك قال: ليس ضرورياً أن تحمل لقب ليدي، لكنها بالتأكيد ليست امرأة قروية. إنهن أممات هنا في الغالب ولا يعرفن التهجئة، ولا يستطعن -قطعاً- التعبير عن أنفسهن بطلاقة.

بقيت صامتاً لأنني صُدمت، فالمجتمع هنا كان صغيراً جداً، وكنت قد تصورت في اللاوعي أن كاتبة الرسائل امرأة مثل السيدة كليت، امرأة مناكفة ماكرة بنصف عقل.

عبّر سيمينغتن عن أفكاره، إذ قال بحدة: وهذا يحصر الأمر بين ست نساء واثنتي عشرة في القرية كلها!

قال ناش: هذا صحيح.

صاح سيمينغتن باذلاً بعض المجهود وهو ينظر أمامه مباشرة وكأنه أحس أن مجرد صوت كلماته كان مُحرجاً: لا أستطيع تصديق هذا. لقد سمعتم ما قلته في التحقيق، ولئن ظننتم أن تلك الشهادة كانت بدافع الرغبة في حماية سمعة زوجتي فإنني أود أن أكرر الآن أنني مقتنع تماماً بأن موضوع الرسالة التي تلقتها زوجتي كان ملفقاً تماماً. أعرف أنه ملفق. كانت زوجتي امرأة حساسة جداً ويمكنكم وصفها بالمبالغة بالحشمة في بعض الجوانب، وكان من شأن مثل هذه الرسالة أن تشكل صدمة كبيرة لها، بالإضافة إلى

أنها كانت معتلة الصحة.

كانت استجابة غريفز فورية: هذا هو المرّجح يا سيدي. ليس في أي واحدة من هذه الرسائل ما يدل على معرفة وثيقة. إنها مجرد اتهامات عمياء، ولا توجد أي محاولة للابتزاز، كما لا يظهر فيها أي تعصب ديني كالذي نشهده أحياناً. إن موضوع الرسائل ينحصر في الجنس والحقد! وسوف يعطينا هذا مؤشراً جيداً باتجاه كاتبها.

نهض سيمنغتن، ورغم ما كان يتصف به من برود فقد كانت شفتاه ترتجفان. قال: أرجو أن تتمكنوا قريباً من اكتشاف الشيطانة التي كتبتها. لقد قتلت زوجتي كما لو أنها غرست سكيناً في جسدها. لا أدري ما هو شعورها الآن؟

ثم خرج تاركاً ذلك السؤال بلا إجابة.

سألت: ما هو شعورها يا غريفيث؟

بدالي أن الإجابة عن هذا السؤال كانت ضمن دائرة اختصاصه. قال: الله أعلم. ربما كانت نادمة، ولكنها قد تكون أيضاً مستمتعة بقوتها وقد غذت وفاة السيدة سيمنغتن هوسها.

قلت وأنا أرتعد: أرجو أن لا تكون كذلك، وإلا فإنها س...

ترددت، فأكمل ناش الجملة عني: ستحاول ثانية؟ سيكون هذا يا سيد بيرتن أفضل شيء يمكن أن يحدث بالنسبة لنا، إذ لا تسلم الجرة في كل مرة.

صححت: ستكون مجنونة لو أنها واصلت عملها هذا.

قال غريفز: سوف تواصل، فهم يواصلون دائماً؛ إنها رذيلة

لا يستطيعون تركها.

هززت رأسي وأنا أرتعد. وسألتهم إن كانوا بحاجة إلي ، فقد أردت الخروج إلى الهواء الطلق إذ بدا الجو ملبداً بغيوم الشر.

قال ناش: لا شيء آخر يا سيد بيرتن. كن حذراً فقط واعمل كل ما يمكنك من دعاية، أي انصح الجميع بأن يبلغونا عن أي رسالة يتلقونها.

أومات برأسي وقلت: أحسب أن كل من في القرية استلم الآن واحدة من هذه الرسائل القذرة.

قال غريفز وقد أمال رأسه الحزين جانباً: ترى، ألا تعرف بالتحديد شخصاً لم يتلق رسالة من هذه؟

- يا له من سؤال غريب! لا يُعقل أن يفضي لي السكان بشكل عام بأسرارهم.

- لا، لا يا سيد بيرتن، لم أقصد هذا. لقد تساءلت فقط إن كنت تعرف -تحديداً- أي شخص أنت واثق تماماً أنه لم يتلق رسالة مجهولة.

ترددت وقلت: أنا في الحقيقة أعرف بمعنى ما.

ثم كررت حديثي مع إميلي بارتن وما أخبرتني به، فتلقى غريفز المعلومة بوجه خال من أي تعبير وقال: حسناً، قد يكون هذا مفيداً، سأسجله.

خرجت مع أوين غريفيث وكانت شمس العصر ساطعة، وفور أن أصبحنا في الشارع قلت بصوت مرتفع: أهذا مكان يأتي

إليه الرجل ليستلقي تحت شمسهِ ويعالج إصابته؟ إنه مليء بالسم القاتل رغم أنه يبدو هادئاً وبريثاً كجنة عدن. ثم سألت: قل لي يا غريفيث، هل يعرف الشرطة شيئاً؟ هل لديهم أي فكرة؟

- لا أعرف. إن للشرطة أسلوباً فنياً رائعاً، إنهم صريحون من حيث الظاهر، ومع ذلك لا تفهم منهم شيئاً.

- نعم، إن ناش رجل لطيف.

- وهو كفء أيضاً.

قلت بشيء من الاتهام: إن كان في القرية شخص معتوه فأنت من يجب أن يعرفه.

هز غريفيث رأسه. بدا محبطاً، ولكنه بدا أكثر من ذلك، بدا قلقاً. وتساءلت إن كان لديه شكٌ ما.

كنا نسير في الشارع العام، فوقفت أمام باب وكلاء البيت الذي نسكنه وقلت: لقد حان موعد دفع القسط الثاني من الأجرة، وهو يُدفع مقدماً. إنني أفكر في دفع القسط والرحيل أنا وجوانا مباشرة، وهكذا سأخسر بقية الأجرة.

قال أوين: لا ترحل.

- ولمَ لا؟

لم يجبني على الفور، وبعد وقت قصير قال ببطء: أحسبك على صواب في النهاية؛ إن لايمستوك ليست مكاناً صحياً في الوقت الحالي. وربما، ربما آذتك أو... أو آذت أختك.

- لا شيء يؤدي جوارنا، فهي صلبة. أنا الضعيف، إن هذا الأمر يصيبني بالنفور.

- إنه يصيبني أنا أيضاً بذلك.

فتحت باب وكلاء البيت وقلت: ولكني لن أرحل. الفضول البدائي أقوى من الجبن، أريد أن أعرف النتيجة.

ثم دخلت فنهضت امرأة كانت تطبع وجاءت نحوي. كان شعرها مجعداً وقد ابتسمت ابتسامة متكلفة، ولكنني وجدتتها أكثر ذكاء من تلك الفتاة ذات النظارة التي كانت تشرف سابقاً على المكتب الخارجي. وبعد دقيقة أو اثنتين طاف بذهني خاطر مألوف بشأن هذه المرأة، فقد كانت الأنسة غينش الموظفة التي كانت تعمل سابقاً عند السيد سيمنغتن. علقت على هذه الحقيقة قائلاً: كنت تعملين في مكتب محاماة السيد سيمنغتن، أليس كذلك؟

- بلى، لكنني رأيت أن من الأفضل لي المغادرة. هذه وظيفة جيدة رغم أن راتبها ليس جيداً كثيراً، ولكن ثمة أشياء أكثر قيمة من المال، ألا تعتقد ذلك؟

- دون شك.

همست الأنسة غينش قائلة: تلك الرسائل الفظيعة! تلقيت واحدة منها تتحدث عني وعن السيد سيمنغتن. آه، كانت رهيبة وتحتوي على كلمات فظيعة جداً! وأنا أعرف واجبي ولذلك أخذتها إلى الشرطة، رغم أن الأمر لم يكن ساراً بالنسبة لي، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ ليس ساراً أبداً.

- لقد شكروني وقالوا إنني فعلت الصواب، ولكنني قلت
لنفسي بعد ذلك: إذا كان الناس يتحدثون بهذا الأمر (والواضح
أنهم كانوا يتحدثون دون شك، وإلا من أين حصل كاتب الرسائل
على فكرته تلك؟) فعلياً أن أتجنب حتى مظاهر الشبهة، رغم عدم
وجود أي خطأ في العلاقة بيني وبين السيد سيمينغتن.

شعرت بشيء من الحرج وقلت: طبعاً، طبعاً لا يوجد خطأ.

- لكن الناس يفكرون بطريقة سيئة، وللأسف فإن لهم عقولاً
شريرة!

ورغم أنني حاولتُ حرجاً تجنب النظر إليها إلا أن عينيَّ
قابلتا عينيها واكتشفت اكتشافاً غير سار أبداً؛ كانت الأنسة غينش
مستمتعة تماماً بالموضوع! وقد سبق لي اليوم أن التقيت بشخص
كانت ردود أفعاله إزاء الرسائل المُغفلة من التوقيع تتسم بالاهتمام
المستمتع، ذلك هو المفتش غريفز، ولكن حماسة المفتش غريفز
كانت حماسة مهنية، أما استمتاع الأنسة غينش فقد وجدته موحياً
ومقززاً.

وخطرت بذهني المدهوش فكرة سريعة: هل كتبت الأنسة
غينش تلك الرسائل بنفسها؟

* * *

الفصل السابع

- ١ -

حين عدت إلى البيت وجدت السيدة كالثروب جالسة تتحدث مع جوانا، وقد بدت لي شاحبة ومريضة. قالت: كان هذا صدمة عنيفة لي يا سيد بيرتن. مسكينة، مسكينة.

قلت: نعم، من الفظيع التفكير بشخص دُفع إلى الانتحار.

- آه، هل تقصد السيدة سيمنغن؟

- ألم تكوني تقصدينها؟

هزت السيدة كالثروب رأسها بالنفي وقالت: إن المرء يأسف عليها بالطبع، ولكن ذلك كان سيحدث على أية حال، أليس كذلك؟

قالت جوانا ببرود: حقاً؟

التفتت السيدة كالثروب إليها: آه، أظن ذلك يا عزيزتي. إن كنتِ ترين في الانتحار طريقة للهروب من المتاعب فإن نوعية هذه المتاعب لا تهتم كثيراً، فقد كان من شأنها أن تفعل نفس الشيء

عندما تحل بها أي صدمة بغیضة يجب عليها مواجهتها. المهم في الأمر كله هو أنها من هذا النوع من النساء. مع أن المرء ما كان ليخمن ذلك فيها، لقد بدت لي دوماً امرأةً أنانية غبية بعض الشيء، مع تمسك قوي بالحياة. ما كان المرء ليخمن أنها من النوع الذي يشله الذعر والخوف... ولكنني بدأت أدرك قلة معرفتي بالناس.

- ما زلت أشعر بالفضول لمعرفة من كنت تعنين بقولك «مسكينة».

نظرت إليّ وقالت: المرأة التي كتبت الرسائل بالطبع.

قلت ببرود: لا أظنني أشعر بأي تعاطف معها.

مالت السيدة كالثروب إلى الأمام، ووضعت يدها على ركبتي وقالت: ولكن ألا تدرك، أليس بوسعك الشعور؟ استخدم خيالك. فكر في مدى التعاسة واليأس المطبق للذين يدفعان شخصاً للجلوس وكتابة هذه الأشياء. كيف يعاني مثل هذا الشخص من الوحدة والقطيعة التامة مع عالم البشر! يكون السم قد بلغ أعماق أعماقه، ولم يجد ذلك السم مخرجاً إلا بهذه الطريقة! لذلك أشعر بشيء من تأنيب الذات. لقد عانى أحد أهالي هذه البلدة من بؤس شديد ولم أعرف عن ذلك شيئاً، وكان يجب أن أعرف. لا يمكن للمرء أن يتدخل بإجراءات عملية، أنا لا أفعل هذا أبداً، ولكن ذلك البؤس الداخلي الأسود أشبه بذراع التهبت وتورمت حتى غدت سوداء منتفخة، ولو استطاع المرء إجراء فتحة فيها لكان ممكناً أن يخرج السم دون أذى. نعم، إنها مسكينة، مسكينة.

ثم نهضت لتذهب، ولم أشعر بأنني أتفق معها بالرأي، فلم

أكن لأحس بأي تعاطف مع كاتبة الرسائل المجهولة، ولكنني سألتها بفضول: هل لديك أي فكرة عن هوية تلك المرأة يا سيدة كالشروب؟

التفتت إلي بعينيها الصغيرتين الحائرتين وقالت: أستطيع أن أخمن، ولكنني قد أكون مخطئة، أليس كذلك؟

ثم خرجت مسرعة من الباب قبل أن تطلّ منه ثانية لتسأل: قل لي يا سيد بيرتن، لماذا لم تتزوج؟

لو كان السائل أحداً غير السيدة كالشروب لكان سؤاله وقاحة، أما في حالتها فإن المرء يشعر أن هذه الفكرة قد خطرت لها فجأة وأرادت فعلاً أن تعرف. قلت وأنا أستجمع شتات نفسي: لنقل إنني لم ألتقِ بالمرأة المناسبة.

- يمكننا قول هذا، ولكنه لن يكون رداً جيداً، لأن كثيراً من الرجال تزوجوا نساء غير مناسبات.

ثم غادرت هذه المرة بالفعل، فقالت جوانا: أظن حقاً أنها مجنونة، ولكنني أحبها. أهل القرية هنا يخافونها.

- وكذلك أنا، قليلاً.

- ألا أنك لا تعرف ما هو تصرفها القادم؟

- نعم، كما أن في تخميناتها ذكاء لا مبالياً.

قالت جوانا: أظن حقاً أن من كتب تلك الرسائل بائس جداً؟

- لا أعرف ما الذي تفكر فيه أو تشعر به تلك اليد الآثمة،

كما أنني لا أهتم لذلك. إن ضحاياها هم الذين آسفٌ عليهم.

يبدو لي غريباً الآن أنا - في تأملاتنا للعقلية التي تقف خلف ذلك القلم المسموم - أغفلنا أكثر التفسيرات وضوحاً ، فقد صورها غريفيث على أنها ربما كانت مبتهجة جذلي بما تفعله ، أمّا أنا فقد تصورتها امرأة يمزقها الندم وقد هالها ما جنته يداها ، في حين رأت فيها السيدة كالشروب امرأة تعاني . ومع ذلك فنحن لم نفكر في ردّ الفعل الواضح والحتمي ، أو ربما لم أفكر أنا فيه . وردّ الفعل ذاك هو الخوف ، لأن الرسائل انتقلت - مع وفاة السيدة سيمنغتن - لتدخل ضمن تصنيف جديد .

لا أدري كيف كان الوضع القانوني ، أظن أن سيمنغتن يعرف ، ولكن من الواضح أن وقوع وفاة نتيجة لهذا الفعل قد جعل موقف كاتب الرسائل أكثر خطورة من قبل ، فلم يعد ممكناً اعتبارها مجرد مزاح إذا ما اكتشفت هوية الفاعل . وقد نشطت الشرطة واستدعي خبير من شرطة سكتلنديارد ، وبهذا بات من الضروري للكاتب المجهول أن يبقى مجهولاً .

وإذا ما سلّمنا أن الخوف هو ردّ الفعل الأساسي فإن ذلك يستتبع أموراً أخرى . وقد كنت غافلاً تماماً عن تلك الاحتمالات أيضاً ، رغم أنها كان يجب أن تكون واضحة .

- ٢ -

نزلنا أنا وجوانا لتناول الإفطار صباح اليوم التالي في ساعة متأخرة ، أعني وفق عادات قرية لايمستوك ، فقد كانت الساعة التاسعة والنصف ، وهي ساعة كانت جوانا فيها - وهي في لندن -

توشك أن تفتح عينيها، وربما كانت عيناى أنا أيضاً ما تزالان فيها مغمضتين. ومع ذلك عندما سألتنا بارتريدج: "أتريدان الإفطار في الساعة الثامنة والنصف أم في التاسعة؟" لم تكن لدى أيّ منا الجرأة لاقتراح موعد متأخر أكثر من ذلك.

وقد أزعجتني رؤية إيمي غريفيث تقف على عتبة الباب تتحدث مع ميغان، وعندما رأنا أطلقت العنان للسانها بحيويتها المعتادة: مرحباً أيها الكسالى! إنني مستيقظة منذ ساعات.

كان ذلك بالطبع هو شأنها الخاص. لا شك أن على الطبيب أن يتناول إفطاره مبكراً، وعلى أخته -إذا ما أرادت القيام بواجبها- أن تفطر معه وتصب له الشاي أو القهوة. ولكن هذا لا يبرر لها أن تأتي وتتدخل في نوم جيران أكثر ميلاً للنوم، فالتاسعة والنصف ليست موعداً لزيارات الصباح.

انسلت ميغان إلى داخل البيت ثم إلى غرفة الطعام لتعود إلى إفطارها الذي أحسب أن إيمي قطعتة عليها. وقالت إيمي غريفيث: لقد قلت إنني لن أدخل.

قالتها رغم أنني لا أعرف لماذا يُعدُّ إجبار أهل البيت على المجيء للتحدث عند عتبة الباب مسألة ألطف وأقل كلفة من الحديث داخل البيت! ثم أضافت: أردت فقط سؤال الأنسة بيرتن إن كان لديكم أي خُصْر فائضة عن الحاجة لنضعها في كشك الصليب الأحمر على الشارع العام ونبيعها للأغراض الخيرية. إن كان عندكم فسوف أطلب من أوين أن يمر لأخذ الخُصْر معه في السيارة.

قلت: أنت تمارسين أنشطتك في وقت مبكر جداً.

- العصفور المبكر هو الذي يحصل على الدود! إن الفرصة أفضل للعثور على الناس في هذا الوقت من الصباح. حسناً، سأذهب الآن إلى منزل السيد باي، ثم عليّ الذهاب إلى بريتن عصاراً من أجل الكشافة.

قلت: إن حيويتك تُشعرنني بعجزي!

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، فدخلت إلى الصالة للرد عليه تاركاً جوانا تتمتم بارتياب عن الفاصوليا الفرنسية وغير ذلك من الخضراوات، كاشفة عن جهلها في هذا الموضوع.

رفعت سماعة الهاتف وقلت: نعم؟

سمعت على الطرف الآخر صوتاً لاهتاً مرتبكاً، ثم قال صوت أنثوي مرتاب: آه!

كررت القول على سبيل التشجيع: نعم؟

سأل الصوت ذو الخنّة مرة أخرى: آه، هل هذا... أقصد...
أهذا منزل ليتل فيرز؟

- نعم، هذا ليتل فيرز.

- آه!

بدا أن هذه الآه كانت لازمة البدء في كل جملة. سأل الصوت بحذر: أيمكنني التحدث مع الأنسة بارتريدج؟

- بالتأكيد. أقول لها من؟

- آه، أخبرها أنني أغنيس... أغنيس وُدل.

- أغنيس وُدل؟

- تماماً.

وضعت السماعة مقاوماً إغراء يدفعني لأن أسألها: ماذا يقربُك بطّوط؟ وناديت باتجاه الطابق العلوي حيث كنت أسمع صوت بارتريديج وهي تؤدي عملها: بارتريديج، بارتريديج.

ظهرت بارتريديج عند أعلى الدرج حاملة ممسحة بيدها وخلف سلوكها المؤدب دائماً نظرة كأنها تقول: "ما الأمر هذه المرة؟"، ولكنها قالت: نعم يا سيدي؟

- أغنيس وُدل تريدك على الهاتف.

- ماذا يا سيدي؟

رفعت صوتي قائلاً: أغنيس وُدل.

- أغنيس وُدل؟ ماذا عساها تريد الآن؟

ألقت بارتريديج بممسحتها وقد تغيرت سحنتها كثيراً، وأسرعت تنزل الدرج بكثير من الانفعال، أما أنا فعدت إلى غرفة الطعام دون تطفل حيث كانت ميغان تأكل اللحم بنهم. وخلافاً لإيمي غريفيث لم تكن ميغان تُبدي وجهاً صبوراً متفائلاً، والحقيقة أنها ردت على تحية الصباح بفضاظة وأكملت أكلها بصمت.

فتحت صحيفة الصباح، وبعد دقائق دخلت جوانا وهي تبدو مرهقة وقالت: ووه! إنني متعبة جداً، وأظنني كشفت عن جهلي

الكامل بالخضراوات ومواعيد زراعتها. ألا توجد فاصولية في هذا الوقت من العام؟

قالت ميغان: الفاصولية في شهر آب.

ردّت جوانا مدافعة: إننا نحصل عليها في لندن في أي وقت.

قلت: تلك فاصولية معلّبة يا مغفلتي الجميلة، وتكون مبردة ومخزنة على السفن وتأتي من الأطراف البعيدة للعالم.

قالت جوانا: مثل العاج والقردة والطواويس؟

- بالضبط.

قالت جوانا متأملة: أحب أن يكون لي طاووس.

قالت ميغان: أما أنا فأفضل اقتناء قرد.

قالت جوانا وهي تقشر برتقالة وتتأمل: ترى كيف يكون شعوري لو كنتُ إيمي غريفيث، بكل تلك القوة والحيوية والتمتع بالحياة؟ أظنّها تشعر أبدأً بالتعب أو الحزن أو الاكتئاب؟

قلت لها إنني متأكد تماماً أن إيمي غريفيث لم تكتتب أبدأً، ثم تبعّت ميغان إلى الشرفة خارج الغرفة. وحين وقفتُ هناك أملاً غليونني سمعت بارتريديج وهي تدخل غرفة الطعام من الصالة وسمعتها وهي تقول متجهمة: هل يمكنني الحديث معك لحظة يا سيدتي؟

وفكرت قائلاً: يا إلهي! أرجو أن لا تكون بارتريديج بصدد إشعارنا بتركها العمل، لأن إيميلي بارتن ستزعج منا كثيراً إذا

حدث ذلك.

أكملت بارتريديج: أريد الاعتذار يا سيدتي لأن واحدة اتصلت بي هاتفياً. ما كان ينبغي للفتاة التي خابرتني أن تفعل ذلك، فأنا لم أعتد أبداً استخدام الهاتف أو السماح لأصدقائي بإزعاج ساكني البيت به، وإني آسفة فعلاً لحدوث ذلك ولاضطرار سيدي للرد على الهاتف.

قالت جوانا مهدئة: لا بأس بهذا يا بارتريديج، لماذا لا تستخدم أصدقاءك الهاتف إن كانوا يريدون الحديث معك؟

كان بوسعي أن أشعر -رغم أنني لا أرى الحدث- بأن وجه بارتريديج غداً أكثر صرامة من قبل وهي تجيب ببرود: إن هذا الأمر لم يحدث معي في هذا البيت قط. ما كانت الأنسة إميلي لتسمح بذلك أبداً، وكما قلت فإني آسفة لحدوث ذلك. لكن أغنيس ودل (وهي الفتاة التي خابرتني) كانت منزعة، وهي صغيرة أيضاً، ولا تعرف ما هي الأصول في بيوت المحترمين.

فكرت في نفسي فَرِحاً: هذه واحدة عليك يا جوانا.

أكملت بارتريديج: إن أغنيس هذه التي خابرتني كانت تعمل معي هنا تحت إمرتي، وكانت يومها في السادسة عشرة من عمرها، وقد جاءت من ملجأ الأيتام مباشرة. لم يكن لها منزل أو أم أو أي أقارب لتقديم النصيحة لها، لذلك اعتادت أن تأتيني فأقدم لها النصيحة.

قالت جوانا: "نعم؟" ثم انتظرت، وبدا واضحاً أن القادم من الكلام أكثر مما مضى منه.

- لذلك فإنني أتجرأ يا سيدتي وأطلب منك السماح لأغنيس بالمجيء إلى هنا لشرب الشاي معي مساء هذا اليوم في المطبخ. إنه يوم عطلتها ولديها شيء تريد استشارتي بشأنه. ما كنت لأفكر في مثل هذا الطلب في الحالات المعتادة.

قالت جوانا حائرة: ولماذا لا يأتي أحد لشرب الشاي معك؟

انتصبت بارتريديج في وقفتهما عند هذا السؤال (وهو ما أخبرتني به جوانا فيما بعد) وبدأت مرعوبة وهي ترد: لم يكن هذا الأمر من عادة هذا البيت في أي يوم. لم تكن السيدة بارتُن العجوز لتسمح للزوار أبداً بدخول المطبخ، إلا إذا كان ذلك في يوم عطلتنا، حيث كانت تسمح لنا باستقبال الصديقات بدلاً من الخروج. ولكن فيما عدا ذلك وفي الأيام العادية لم تكن تسمح، وقد استمرت الآنسة إميلي على نفس النهج القديم.

إن جوانا لطيفة جداً مع الخدم وكان معظمهم يحبها، ولكنها لم تستطع استمالة بارتريديج أبداً. قلت لها عندما خرجت بارتريديج وانضمت جوانا إليّ في الشرفة: لا فائدة من ذلك يا عزيزتي؛ إن تعاطفك وتساهلك ليسا موضع تقدير. يجب اتباع العادات القديمة المتغترسة مع بارتريديج والإبقاء على طريقة تسيير الأمور كما ينبغي في بيوت الناس المحترمين.

قالت جوانا: لم أسمع عن مثل هذا الاستبداد في عدم السماح لهم برؤية أصدقائهم. إنني أفهم كل شيء يا جيرى، ولكن لا يمكن أن يحبوا معاملتهم كما يُعامل العبيد.

- واضح أنهم يحبون ذلك، على الأقل أمثال بارتريديج في

هذا العالم.

- لا أستطيع تصور سبب عدم حبها لي! معظم الناس يحبونني.

- ربما كرهتك لأنك لست ربة بيت قديرة. أنت لم تمرّري أصبعك أبداً على أحد الرفوف لتفحصي إن كان عليه غبار أم لا. إنك لا تنظرين إلى ما تحت السجّاد، ولا تسألين ما الذي حدث لبقايا الكعكة ولا تطليين أبداً فطائر الخبز الشهية.

تأففت جوانا ثم قالت بحزن: أنا فاشلة في كل شيء هذا اليوم. ازدرتني أيمي لجهلي بمملكة الخُصْر، ووبختني بارتريديج لأنني إنسانة. سأخرج الآن إلى الحديقة لأكل الديدان!

- لقد سبقتك ميغان إلى هناك.

ذلك أن ميغان كانت قد تجولت في الخارج قبل ذلك ببضع دقائق، وعادت الآن لتقف دون هدف في وسط المرجة كطائر متأمل ينتظر طعامه. ثم عادت إلينا وقالت فجأة: يجب أن أعود إلى البيت اليوم.

فوجئتُ وقلت: ماذا؟

أكملت وقد احمرّ وجهها ولكن بتصميم مرتبك: كانت استضافتكم لي هنا موقفاً رائعاً منكما، وأظن أنني أزعجتكما تماماً. لقد استمتعت برفقتكما كثيراً، ولا بد لي من العودة الآن إلى بيتي لأنه بيتي رغم كل شيء ولا يستطيع المرء البقاء بعيداً عن بيته إلى الأبد، لذلك أظن أنني سأذهب هذا الصباح.

حاولنا أنا وجوانا إقناعها بالعدول عن قرارها، ولكنها كانت مصممة تماماً، وفي نهاية الأمر أخرجت جوانا السيارة من المرأب وصعدت ميغان إلى الدور العلوي ثم نزلت بعد دقائق وقد حزمت أمتعتها من جديد. وبدا أن الشخص الوحيد الذي سرّه رحيلها هو بارتريدج التي كادت ترسم ابتسامة على وجهها المتجهم، فهي لم تحب ميغان كثيراً.

كنت أقف في وسط المرجة عندما عادت جوانا، وعندما رأيت وفتيتي تلك سألتني إن كنت أظن نفسي ساعة شمسية أو مزولة. قلت: لماذا؟

- تقف هناك كتمثال حديقة، إلا أننا لا نستطيع وضع شيء عليك يحدد الساعات الشمسية. كنت تبدو مثل الرعد!

- أنا متعكر المزاج، بدأت صباحي أولاً بإيمي غريفيث...

تمتت جوانا بجملة معترضة قائلة: يا إلهي! أكان لزاماً عليّ أن أتحدث عن تلك الخُصْر!

أكملتُ أنا حديثي قائلاً: ثم جاء خروج ميغان. لقد فكرت في أخذها في نزهة على الأقدام إلى ليغ تور.

- وأحسب أنك كنت ستأخذ معك طوق الكلب ورسنه؟

- ماذا؟

كررت جوانا كلامها بصوت مرتفع وواضح وهي ذاهبة إلى حديقة المطبخ: قلت: مع طوق الكلب ورسنه! لقد فقد السيد كلبه... هذه هي مشكلتك الآن!

أعترف بأنني انزعجتُ من الطريقة الفجائية التي غادرتنا بها ميغان. ربما ملّت منا فجأة، فالحياة معنا لم تكن -في نهاية الأمر- حياة مسلية لفتاة مثلها. وسمعت جوانا تعود فتحركت بسرعة بعيداً حتى لا أسمع منها مزيداً من الملاحظات الوقحة عن الساعات الشمسية.

جاء أوين غريفيث في سيارته قبل موعد الغداء بقليل، وكان البستاني ينتظره ومعه منتجات الحديقة اللازمة. وبينما كان البستاني آدمز يضع الخضراوات في السيارة دعوت أوين إلى البيت لتناول الشاي، ولم يقبل البقاء لتناول الغداء.

عندما جيئت حاملاً الشاي وجدت جوانا وقد بدأت تؤدي عملها. لم تكن ثمة مؤشرات لعداء الآن، كانت قد كوّمت نفسها في زاوية الأريكة باطمئنان وراحت تطرح على أوين أسئلة عن عمله وإن كان يحبه كطبيب عام، وما إذا كان من الأفضل له لو تخصص في حقل معين. وسمعتها تعبّر عن رأيها بأن عمل الطبيب هو أحد أروع الأشياء في الدنيا.

كائناً ما كانت الملاحظات على جوانا فإنها تبقى مستمعة رائعة. وبعد إصغائها للكثير الكثير من العباقر الواعدين وهم يخبرونها كيف لم ينالوا التقدير المطلوب فإن استماعها لأوين غريفيث كان أمراً سهلاً. وهو -بدوره- انطلق مسترسلاً يحدثها عن بعض الآفات الجسدية أو ردود الأفعال المرضية مستخدماً عبارات علمية متخصصة لا يستطيع فهمها إلا طبيب.

بدأت جوانا مهتمة جداً، وشعرتُ -للحظة- بغصّة تأنيب للضمير. كان ذلك تصرفاً سيئاً جداً من جوانا، فغريفيث أطيب من أن يُعبَث به على هذا النحو. إن النساء لذوات كيد عظيم!

ثم نظرت إلى غريفيث بطرف عيني، بذقنه الطويل المحدد ووضع شفثيه المتجهم، ولم أعد متأكداً كثيراً من أن جوانا ستنجح فيما تريده في نهاية الأمر. وعلى أي حال فلا ينبغي للرجل أن يضع نفسه موضع سخرية المرأة، ولو فعل لكان ذلك شأنه وحده.

قالت جوانا: أرجو أن تغير رأيك وتبقى معنا على الغداء يا دكتور غريفيث.

احمرّ وجه غريفيث قليلاً وقال إنه كان ليقى لولا أن أخته تنتظر عودته، فقالت جوانا بسرعة: ستتصل بها هاتفياً ونشرح لها الأمر.

ثم اتجهت إلى الصالة لتتصل بالهاتف، وأظن أن غريفيث بدأ مضطرباً بعض الشيء، وقد خطر ببالي أنه ربما كان خائفاً قليلاً من أخته. وما لبثت جوانا أن عادت وهي بتبسم وقالت إنها سوت المسألة، وبقي أوين غريفيث حتى الغداء وبدأ مستمتعاً.

تحدثنا عن القصص والمسرحيات وعن السياسة الدولية والموسيقى والرسم والعمارة الحديثة. لم نتحدث عن لايمستوك على الإطلاق ولا عن الرسائل المجهولة أو عن انتحار السيدة سيمينغتن. تجنبنا كل هذه الأمور تماماً، وأعتقد أن أوين غريفيث كان سعيداً، فقد أشرق وجهه الأسمر الحزين وأظهر عقلية تثير الاهتمام. وعندما غادرنا قلت لجوانا: هذا الرجل أفضل من أن

تجعليه هدفاً للأعيانك.

قالت جوانا: هذا رأيك. أنتم معشر الرجال تدافعون بعضكم عن بعض!

- لماذا كنت تسعين لاصطياده يا جوانا؟ أهى الخيلاء المجروحة؟

- ربما.

- ٤ -

كان مقرراً أن نذهب عصر ذلك اليوم لتناول الشاي مع الأنسة إميلي بارتُن في شقتها في القرية.

ذهبنا هناك مشياً على الأقدام، فقد شعرت الآن بالقدرة على تسلق الهضبة عند العودة. ويبدو أننا قدّرنا لطريقنا وقتاً أطول مما ينبغي فوصلنا في وقت مبكر، فقد فتحت لنا الباب امرأة طويلة القامة بارزة العظام قاسية المظهر وأخبرتنا أن الأنسة بارتُن لم تصل بعد، وقالت: ولكنى أعرف أنها تنتظركما، لذلك أرجو أن تتفضلاً بالدخول.

كان واضحاً أن تلك هي فلورنس المخلصة. تبعناها إلى الطابق العلوي وفتحت باب إحدى الغرف، وأشارت إلينا بالدخول إلى غرفة جلوس كانت تبدو مريحة رغم كثرة أثاثها. وشككتُ بأن بعضاً من هذا الأثاث قد حملته معها من «ليتل فريز».

بدت المرأة فخورة بغرفتها، فقد سألت: أليست غرفة جميلة؟

قالت جوانا بحماسة: جميلة جداً.

- أنا أحرص على راحة الأنسة بارتُن قد استطاعتي ، رغم أنني لا أستطيع أن أخدمها كما أحب وبالطريقة التي يجب أن تكون. كان يجب أن تبقى في بيتها ولا تتركه لتعيش في شقة.

نقلت فلورنس -وقد بدت مثل تنين- بصرها بيني وبين جوانا بنظرة توبيخ. وشعرت أن اليوم لم يكن يوم سعدنا، فقد وبّخت إيمي غريفيث شقيقتي جوانا ووبختها أيضاً بارتريدج وها هي فلورنس التين توبخنا نحن الاثنين. وأضافت تقول: لقد عملت خادمة استقبال لمدة خمس عشرة سنة هناك.

قالت جوانا بدافع من الإحساس بالظلم: لقد أرادت الأنسة بارتُن تأجير البيت وأدرجته للإيجار عند الكلاء.

ردّت فلورنس: كانت مجبرة على ذلك. إنها تعيش حياة مقتصدة جداً، ولكن حتى مع ذلك فإن الحكومة لا يمكن أن تتركها وشأنها! إنها مضطرة للإبقاء على وضعها المعيشي كما هو.

هززت رأسي بحزن، فأكملت فلورنس: في زمن السيدة العجوز كانت الأموال كثيرة، ثم ماتت هي وماتت بناتها الواحدة بعد الأخرى، المسكينات! كانت الأنسة إميلي تقوم على تريضهن واحدة بعد الأخرى. لقد أرهقت نفسها وكانت صبورة لا تتذمر، ولكن هذا أثر عليها، ثم بعد ذلك كله تأتي لتقلق على موضوع المال! تقول إن الأسهم لا تعطيهما عائداً كما كانت من قبل. لماذا لا تعطي مثل هذا العائد؟ هذا ما أود معرفته. كان يجب أن يخجلوا من أنفسهم، إنهم يخدعون سيدة في مكانتها لا تعرف شيئاً عن الأرقام ولا تستطيع مواجهة ألعبيهم.

قلت: الواقع أن الجميع تأثروا بذلك.

ولكن فلورنس بقيت مصممة وقالت: لا بأس بذلك بالنسبة لبعض الناس الذين يستطيعون العناية بأنفسهم، ولكن ليس بالنسبة لها؟ إنها تحتاج إلى رعاية، وما دامت معي فلن أسمح لأحد بأن يؤذيها أو يزعجها. إنني مستعدة لفعل أي شيء من أجل الآنسة إيميلي.

غادرت فلورنس الصلبة الغرفة بعدما حملقت فينا لبضع لحظات لتتأكد من أنها أفهمتنا هذه النقطة بوضوح، وأغلقت الباب وراءها بحذر.

سألته جوانا: هل تشعر أنك مصّاص دماء يا جيري؟ لعلني أنا أحسّ بذلك بعدما سمعتُ ما سمعت. ما الذي يجري لنا؟

- لا يبدو أننا تلقى قبولاً حسناً! لقد سئمت ميغان منّا، وبارتريدج مستاءة منك، وفلورنس المخلصة مستاءة منّا كلينا.

تمتت جوانا: إنني أتساءل لماذا غادرت ميغان؟

- لقد سئمت.

- لا أظن هذا صحيحاً. أكان ذلك بسبب شيء قالته إيمي غريفيث؟

- تقصدين هذا الصباح عندما كانتا تتحدثان على عتبة الباب؟

- نعم، لم يكن لديها وقت كاف بالطبع، ولكن...

أكملت الجملة: ولكن وطأة تلك المرأة أثقل من وطأة الفيل!

ربما قالت لها شيئاً.

فُتح الباب ودخلت الأنسة إميلي. كانت متوردة الخدين ولاهثة بعض الشيء وبدا عليها الانفعال، وكانت عيناها تلمعان بزرقه شديدة. تمتمت بتحيّتها وكأنها شاردة الذهن وقالت: آه يا عزيزي، أنا آسفة جداً لتأخري. كنت أتسوّق في البلدة، ولم يكن الكعك في محل بلو روز طازجاً فذهبت إلى متجر السيدة ليغون. إنني أحب دائماً أن يكون الكعك آخرَ ما أشتريه حتى أحصل عليه طازجاً من الفرن مباشرة وليس بارداً من الأيس. أنا منزعة لترككما تنتظران، إنه تقصير لا يُغتفر...

تدخلت جوانا قائلة: إنها غلطتنا يا آنسة بارتُن، فقد جئنا مبكرين، لقد صار جيرري سريعاً في مشيه بحيث نصل إلى وجهتنا بأسرع مما نظن.

- أنت لم تبكّري كثيراً يا عزيزتي. لا تقولي هذا، فالمرء لا يكاد يحس بانقضاء الأوقات الجميلة.

ثم ربّبت السيدة العجوز على كتف جوانا بحنان، فتهلل وجه جوانا، إذ بدا أخيراً أنها حققت نجاحاً. نشرت إميلي بارتُن ابتسامتها لتشملني ولكن بشيء طفيف من الخنوع كما يقترب امرؤ من نمر مفترس ضَمِنَ للحظات أن لا يؤذيه. قالت: جميل منك أن تأتي لمناسبة نسوية كشرب الشاي.

أظن أن الصورة الذهنية عن الرجال لدى إميلي بارتُن كانت ترسمهم كأناس منهمكين دوماً في استهلاك كميات ضخمة من لفائف التبغ، وفي أثناء الاستراحات يخرجون لإغواء فتيات القرية.

بعد بضع دقائق فُتح الباب ودخلت فلورنس تحمل صينية الشاي وعليها بعض الفناجين الفاخرة التي أظن أن الأنسة إميلي أحضرتها معها من البيت. كان الشاي صينياً وكانت هناك أطباق عليها الشطائر والخبز الرقيق والزبدة وكمية من الكعك. والآن أشرق وجه فلورنس وأخذت تنظر إلى الأنسة إميلي بفرح أم تنظر إلى طفلها المدلل وهو يستمتع باللعب بدميته.

أكلنا أنا وجوانا أكثر بكثير ممّا كنا نريد، وذلك تحت ضغط وإصرار مضيفتنا. وبدا واضحاً أن المرأة تستمتع بحفل الشاي هذا، وأدركت أن إميلي بارتن تنظر إلى علاقتها معنا -نحن الاثنين- كمغامرة مثيرة مع اثنين جاءا من عالم لندن المتطور الغامض.

وكان طبيعياً أن يتحول حديثنا بسرعة إلى المواضيع المحلية. تحدثت الأنسة بارتن عن الدكتور غريفيث بحرارة، مشيدة بلطفه وذكائه كطبيب. وأشادت أيضاً بالسيد سيمينغتن كمحام ذكي جداً ساعدها في أن تستعيد من ضريبة الدخل بعض الأموال التي ما كان لها أن تعرف بها لولاه، وقالت إنه كان لطيفاً جداً مع أطفاله مخلصاً لهم ولزوجته.

ثم سارعت لتستدرك قائلة: مسكينة السيدة سيمينغتن! أمر محزن جداً بقاء هؤلاء الأطفال دون أم. ربما لم تكن امرأة قوية أبداً، كما أن صحتها ساءت أخيراً. لا بد أنها كانت نوبة عصبية. قرأت عن مثل هذه الأشياء في الصحف. الناس لا يدركون أبعاد تصرفاتهم في مثل هذه الظروف، ولعلها لم تفكر فيما أقدمت عليه، وإلا لكانت تذكرت السيد سيمينغتن والأطفال.

قالت جوانا: لا بد أن تلك الرسالة المجهولة قد هزتها كثيراً.

احمرَّ وجه الأنسة بارتُن، وقالت ونبرة طفيفة من التأنيب في صوتها: ليس هذا بالموضوع الجميل للمناقشة، أليس كذلك يا عزيزتي؟ أعرف ما تم تداوله من رسائل، ولكننا لن نتحدث عنها، فهي كريهة. أظن أن من الأفضل تجاهلها.

قد تكون الأنسة بارتُن قادرة على تجاهل تلك الرسائل، لكن ذلك لم يكن سهلاً على بعض الناس. ومع ذلك فقد غيرت موضوع الحديث طائعاً وتناقشنا حول إيمي غريفيث.

قالت إيميلي بارتُن: إنها رائعة، رائعة تماماً. طاقتها وقدراتها التنظيمية رائعة حقاً، كما أنها لطيفة جداً مع الفتيات، وهي فتاة عملية وعصرية في كل شيء. إنها حقاً تدير هذا المكان، كما إنها مخلصه لأخيها. جميل جداً أن نرى مثل هذا الإخلاص بين الإخوة.

سألته جوانا: ألا يجد فيها أبداً شيئاً من السيطرة؟

نظرت إيميلي بارتُن إليها وقد أجفلها السؤال وقالت بشيء من التأنيب والإباء: لقد ضحّت كثيراً من أجله.

رأيت في عيني جوانا ما يوشك أن يكون صيحة انتصار ساخرة، فأسرعت في تحويل النقاش إلى السيد باي. كانت إيميلي بارتُن مترددة مرتابة قليلاً في حديثها عن السيد باي، وكل ما استطاعت قوله وإعادته بشيء من الارتياب هو أنه رجل لطيف جداً. نعم، لطيف جداً. كما أنه غني جداً وكريم جداً، يزوره أحياناً أشخاص غرباء جداً، ولكن لا غرابة في ذلك فقد سبق له أن سافر كثيراً.

اتفقنا على أن السفر لا يوسع المدارك فحسب، بل يقود المرء إلى صداقات غريبة أيضاً. قالت إميلي بارتن باكتئاب: كنت أتمنى دائماً أن أخرج في رحلة بحرية، فالمرء يقرأ عنها في الصحف وتبدو رائعة جداً.

سألته جوانا: لماذا لا تسافرين؟

بدا أن تحويل هذا الحلم إلى حقيقة أثار الذعر في نفس الأنسة إميلي، هتفت: آه، لا، لا، إن هذا مستحيل تماماً.

- ولكن لماذا؟ إنها رحلات رخيصة جداً.

- ليس السبب هو التكاليف فقط، ولكنني لا أحب الذهاب وحدي. إن سفر المرء وحيداً سيبدو أمراً غريباً، أليس كذلك؟

قالت جوانا: لا أظن.

نظرت الأنسة إميلي إليها بارتياب ثم قالت: كما أنني لا أعرف كيف سأصرف بأمّعتي. والنزول أيضاً في موانئ أجنبية وكل تلك العملات المختلفة...

بدا أن عدداً لا يحصى من العقبات ظهر أمام العينين الخائفتين للسيدة العجوز، فأسّرت جوانا لتهدئتها بسؤالها عن المهرجان الزراعي القريب ومبيعات الأشغال، وقد قادنا هذا الأمر -بشكل طبيعي- إلى الحديث عن السيدة كالشروب.

ظهر على وجه الأنسة بارتن للحظة شيء من التشنج الذي لا يكاد يُلاحظ وقالت: إنها امرأة شديدة الغرابة يا عزيزتي، بما تقوله من أشياء أحياناً.

سألته عن تلك الأشياء فقالت: آه، لا أعرف. أشياء غير متوقعة أبداً. والطريقة التي تنظر بها إليك، كما لو لم تكن أنت الموجود هناك بل شخص آخر. إنني لا أعبر عن هذا الأمر بشكل جيد، ومن الصعب جداً التعبير عن الانطباع الذي أقصده. ثم إنها لا تقبل... لا تقبل التدخل إطلاقاً. يوجد الكثير من القضايا التي يمكن لزوجة الكاهن أن تقدم فيها المشورة، وربما التحذير. أعني توبيخ الناس وجعلهم يصلحون سلوكهم. الناس سيصغون إليها، أنا واثقة من ذلك، فهم جميعاً يخافون منها. لكنها تصر على أن تكون بعيدة محايدة، ولديها عادة غريبة في الشعور بالأسف على أناس لا يستحقون أي أسف.

قلت وأنا أنظر إلى جوانا نظرة سريعة: هذا مثير جداً.

- ومع ذلك فهي امرأة كريمة الأصل. كانت من عائلة فاروواي من بيلباث، وهي عائلة عريقة، ولكن أظن أن هذه العائلات العريقة تكون غريبة الأطوار أحياناً. لكنها مخلصه لزوجها ذي العقل المثقف جداً، وأشعر أحياناً أن عقله ضائع في محيط ريفي كهذا. رجل طيب ومخلص جداً، ولكنني أجد عاداته في الاستشهاد بنصوص لاتينية مربكة بعض الشيء.

قلت متحمساً: نعم، نعم.

قالت جوانا: إن جيرري لا يعرف اللاتينية، مع أنه تلقى تعليمه في مدرسة حكومية باهظة التكاليف.

أدى هذا بالآنسة بارتُن إلى الدخول في موضوع جديد، إذ قالت: إن مديرة المدرسة هنا شابة كريهة جداً، أخشى أنها شيوعية

(وقد خفضت صوتها عندما لفظت كلمة شيوعية)!

بعد ذلك قالت جوانا ونحن نصعد التلة عائدتين إلى البيت:
إنها سيدة لطيفة.

- ٥ -

عند العشاء في تلك الليلة قالت جوانا لبارتريدج إنها ترجو
أن يكون لقاء الشاي ناجحاً.

احمرّ وجه بارتريدج وتصلب جسدها أكثر من عادته وقالت:
أشكرك يا سيدتي، لكن أغنيس لم تأت في نهاية الأمر.

- آه، إني آسفة.

- هذا لا يهمني أنا.

كان التذمر قد بلغ بها حدّاً جعلها تتعطف علينا ببث شكواها:
لست أنا التي فكرت في دعوتها. هي التي اتصلت وقالت إن لديها
شيئاً تود قوله وسألت إن كان بإمكانها أن تأتي باعتباره يوم عطلتها،
وأجبتها بالإيجاب بشرط موافقتك التي أخذتها منك. وبعد ذلك
لم أسمع منها شيئاً، كما أنها لم تعتذر لي بكلمة واحدة! آمل أن
أستلم منها خبراً صباح الغد. هؤلاء الفتيات اليوم! لا يعرفن كيف
يتصرفن ولا يعرفن شيئاً عن الأصول.

حاولت جوانا مداواة مشاعر بارتريدج المجروحة قائلة: ربما
شعرت بتوعك في صحتها. ألم تتصلي بها لتعرفي سبب تغييها؟
انتصبت بارتريدج وقالت: لم أفعل يا سيدتي، ولن أتصل.

إن رغبت أغنيس في التصرف بطريقة وقحة فهذا شأنها، ولكنني سأوبخها بشدة عندما نلتقي.

خرجت بارتريدج من الغرفة ساخطة، وضحكنا أنا وجوانا. قلت: ربما كان لجوء أغنيس لطلب النصيحة من قبيل تلك الحالات التي يكتبون فيها للصحف في باب مشكلات القراء، «العمة نانسي تحل لك مشكلتك»، ويبدو أن أغنيس فشلت في الحصول على مشورة العمة نانسي فكان عليها أن تلجأ إلى بارتريدج لطلب النصيحة. ولكن يبدو أن أغنيس حلت مشكلتها الآن.

ضحكت جوانا وقالت إنها تظن الأمر على هذا النحو، وبدأنا نتحدث عن الرسائل المجهولة وتساءلنا عما يمكن أن يكون ناش وغريفز الكتيب قد توصلا إليه.

قالت جوانا: لقد مضى أسبوع كامل على انتحار السيدة سيمينغتن ولا بد أنهم وصلوا إلى نتيجة ما، بصمات أصابع أو خط اليد أو شيء ما.

أجبتها شارد الذهن، ففي منطقة ما خلف عقلي الواعي كان ينمو تمللم غريب، وكان هذا التمللم وعدم الارتياح مرتبطاً بطريقة ما بالعبرة التي استخدمتها جوانا: «أسبوع كامل». كان عليّ -كما أظن- أن أخرج ببعض الاستنتاجات مما أعرفه، وربما كان عقلي قد بدأ شكوكه في اللاشعور. كانت الخميرة تعمل عملها، وكان التمللم ينمو ويقترّب من النتائج.

لاحظت جوانا فجأة إنني لم أكن أصغي لحديثها الحماسي عن مناوشة في القرية فقالت: ما الأمر يا جيري؟

لم أجبها لأن ذهني كان مشغولاً بجمع الأشياء الصغيرة بعضها مع بعض: انتحار السيدة سيمينغتن. كانت وحدها في البيت عصر ذلك اليوم، وحيدة في البيت لأن الخادmates كنّ يقضين يوم إجازتهن. قبل أسبوع واحد بالضبط...

- جيري، ماذا...

قاطعتها: جوانا، الخادmates يأخذن يوم عطلة مرة واحدة في الأسبوع، أليس كذلك؟

- ويتناوبن على عطلة الأحد. ما الذي...

- لا عليك من أيام الأحد. ولكنهن يخرجن في نفس اليوم من كل أسبوع، أليس كذلك؟

- بلى، هذا هو الأمر المعتاد.

كانت جوانا تحدد إليّ بفضول، إذ لم يهتد عقلها إلى الطريق الذي اهتدى له عقلي. وقمت فوراً ففرعت الجرس، وجاءت بارتريدج فسألتها: أخبريني عن أغنيس ودل هذه، هل تعمل في الخدمة؟

- نعم يا سيدي، في بيت السيدة سيمينغتن. أو بالأحرى في بيت السيد سيمينغتن الآن.

استنشقت نفساً عميقاً ثم نظرت إلى ساعة الحائط. كانت تشير إلى العاشرة والنصف. قلت: أتظنين أنها عادت الآن؟

بدت بارتريدج مستاءة وقالت: نعم يا سيدي. هناك يجب أن تعود الخادmates قبل العاشرة، فالبيت يُدار على الطراز القديم.

- أنا ذاهب للاتصال.

خرجت إلى الصالة وتبعتني جوانا وبارتريدج. كان واضحاً أن بارتريدج نائرة وكانت جوانا حائرة. قالت وأنا أحاول إدارة رقم الهاتف: ماذا ستفعل يا جيري؟

- أريد أن أتأكد أن الفتاة عادت على ما يُرام.

زفرت بارتريدج باستياء، مجرد زفرة لا أكثر، ولكنني لا أهتم ذرة واحدة لزفير بارتريدج. ردّت إلسي هولاند على الطرف الآخر من الخط فقلت لها: أنا آسف للاتصال بكم، جيري بيرتن يتكلم. هل... هل عادت خادمتمكم أغنيس؟

لم أشعر بأنني كنت مغفلاً إلا بعد أن طرحت سؤالي، فإن كانت الفتاة قد عادت وكان الأمر على ما يرام فكيف لي أن أبرر سبب اتصالي وسؤالي. كان من الأفضل أن أجعل جوانا هي التي تتصل وتسال، رغم أن سؤال جوانا أيضاً يحتاج إلى شيء من التفسير. وبدأت أرى في الأفق كلاماً يدور في لايمستوك عن علاقة بيني وبين أغنيس وُدل المجهولة هذه!

بدأت إلسي هولاند مدهوشة جداً، وحوّ لها ذلك. قالت: أغنيس؟ آه، لا بد أنها عادت الآن.

شعرت بأنني أحقق لكمني واصلت مغامرتي: هل تمانعين في التأكد من وجودها في البيت يا آنسة هولاند؟

لدى المربيات حسنة لا بد من ذكرها، فقد اعتدن أن ينفذن ما يُطلب منهن دون أن يرين أن من حقهن التساؤل عن السبب!

وضعت إلسي هولاند السماعة وذهبت طائفة، وبعد دقيقتين سمعتُ صوتها: أما زلت على الخط يا سيد بيرتن؟

- نعم.

- الحقيقة أن أغنيس لم تُعدُّ بعد.

عرفت عندها أن حدسي كان صحيحاً. سمعت أصواتاً غامضة عند الطرف الآخر ثم تحدثت سيمنغتن نفسه معي: مرحباً يا بيرتن، ماذا في الأمر؟

- ألم تعد خادمتك أغنيس بعد؟

- نعم، لم تعد بعد، لقد تأكدت الآنسة هولاند الآن من ذلك. ماذا في الأمر؟ هل وقع حادث؟

- ليس حادثاً.

- أتعني أن لديك سبباً للاعتقاد بأن أمراً قد حدث للفتاة؟

قلت متجهماً: لن يُفاجئني ذلك.

* * *

الفصل الثامن

- ١ -

لم أنم جيداً في تلك الليلة، وأحسب أن بعض أجزاء اللغز كانت تدور في ذهني طوال الليل، ولعلي - لو كرست كل عقلي لذلك اللغز - لكنت قادراً على حل المشكلة كلها في ذلك الحين. وإلا فلماذا تحوم هذه الأجزاء في ذهني بكل هذا الإلحاح؟

ما هو مقدار ما نعرفه في أي وقت؟ إن ما نعرفه - باعتقادي - هو أكثر بكثير مما ندرك أننا نعرفه، لكننا لا نستطيع النفاذ إلى تلك المعرفة المخبوءة الخفية. إنها هناك ولكننا لا نستطيع الوصول إليها.

استلقيت في سريري أتقلب متململاً فيما راودتني نُفث غامضة فقط من اللغز لتزيد من عذابي: إن ثمة نمطاً ينظم الأمر كله، لو قُدِّر لي فقط أن أمسك به. كان يجب أن أعرف مَنْ كتب تلك الرسائل التعيسة. كان ثمة أثر في مكان، لو استطعتُ فقط أن أتبعه!

وفيما أنا أستسلم للنوم تراقصت الكلمات في ذهني الناعس على نحو مزعج: «لا دخان بلا نار». لا نار بلا دخان. دخان، دخان؟ الساتر الدخاني؟ لا، كان ذلك في الحرب. عبارة حرب.

الحرب... قصاصة ورق... مجرد قصاصة ورق. بلجيكا، ألمانيا...
نمت وحلمت أنني كنت آخذ السيدة كالشروب -وقد تحولت
إلى كلب صيد- في نزهة وحول رقبتها طوق وحبل.

- ٢ -

كان رنين الهاتف هو الذي أيقظني، رنين متواصل.
جلست على السرير ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة
والنصف، وكان جرس الهاتف يرن في الصالة في الطابق الأرضي.
قفزت عن سريري ونزلت مسرعاً. سبقت بارتريديج التي جاءت
من الباب الخلفي من المطبخ للرد على الهاتف، ورفعت السماعة
قائلاً: مرحباً.

شعرت بالارتياح حين سمعت صوت ميغان من الطرف الآخر
للخط وهي تقول: آه، أهذا أنت!

كانت نبرة الخوف والحزن واضحة في صوتها. وأكملت:
أرجوك أن تأتي... تعال. آه، أرجوك تعال! هل ستأتي؟

قلت: أنا قادم على الفور. هل تسمعين؟ على الفور.

ارتقيت الدرج درجتين درجتين واقتحمت غرفة جوانا قائلاً:
اسمعي يا جوانا، أنا ذاهب إلى بيت سيمينغتن.

رفعتُ جوانا رأسها الأشقر عن الوسادة وفركت عينيها كطفل
صغير وقالت: لماذا... ماذا حدث؟

- لا أعرف. إنها تلك الطفلة، ميغان. بدت في أسوأ حال.

- ماذا تظن في الأمر؟

- إنها الفتاة أغنيس... ما لم أكن مخطئاً بشكل فاحش.

وعندما خرجتُ نادتنِي جوانا: انتظر، سآتي لأوصلك.

- لا حاجة لذلك، سأقود السيارة بنفسِي.

- لا يمكنك قيادة السيارة.

- بل أستطيع.

وقد قدتها فعلاً. أذتني قيادتها ولكن ليس كثيراً. كنت قد حلقت ذقني ولبست ملابسِي وأخرجت السيارة من الموقف ثم انطلقت بها إلى بيت سيمينغتن، وذلك كله خلال نصف ساعة. وكان ذلك وقتاً لا بأس به.

لا بد أن ميغان كانت تترقب وصولي، فقد خرجت من البيت بسرعة وأمسكت بي. كان وجهها النحيل الصغير شاحباً ومرتعشاً. قالت: آه، ها قد جئت... ها قد جئت!

- تماسكي يا طفليتي. نعم، لقد جئت. ما الأمر الآن؟

بدأت ترتعش، فأحطتها بذراعي. قالت: لقد... لقد وجدتها.

- وجدتِ أغنيس؟ أين؟

ازداد ارتعاشها وقالت: تحت الدرج، حيث توجد خزنة لحفظ صنابير الصيد ومضارب الغولف والأشياء الأخرى.

أومأت برأسي، فقد كانت الخزنة المعتادة. وأكملت ميغان:

كانت هناك... مكومة و... وباردة... باردة جداً. كانت... كانت
ميتة!

سألته بفضول: ما الذي جعلك تبحثين هناك؟

- لا أعرف. أنت خابرتنا الليلة الماضية، وبدأنا جميعاً
نتساءل عن مكان أغنيس. انتظرناها لبعض الوقت ولكنها لم تأت،
وأخيراً ذهبنا للنوم. لم أتم جيداً ونهضت مبكرة. لم يكن في البيت
إلا روز، الطاهية. كانت غاضبة جداً لعدم عودة أغنيس وقالت
إنها كانت تعمل من قبل في أحد البيوت وهربت فتاة من هناك
بنفس الطريقة هذه. تناولت الحليب والخبز والزبدة في المطبخ،
ثم فجأة دخلت روز وهي تبدو بمظهر غريب وقالت إن ملابس
أغنيس التي تخرج بها موجودة في غرفتها وإن أفضل ملابسها ما
تزال هناك. وبدأت أتساءل إن كانت... إن كانت قد غادرت البيت
أصلاً، وبدأت أفتش في البيت، وفتحت الخزانة التي تحت الدرج
فوجدتها هناك!

- أحسب أن أحدكم قد أبلغ الشرطة، أليس كذلك؟

- بلى، إنهم هنا الآن. خابرههم زوج والدتي مباشرة. ثم
شعرت... شعرت بعدم استطاعتي تحمل الأمر فاتصلت بك. أرجو
أن لا يكون لديك مانع؟

- نعم، لا أمانع.

نظرت إليها باستغراب وقلت: هل قدّم أحد لك شراب
الليمون أو القهوة أو الشاي بعد... بعد أن وجدتها؟

هزت ميغان رأسها بالنفي ، فصببت اللعنات على آل سيمينغتن جميعاً لأن حشوة القميص تلك ، السيد سيمينغتن ، لم يفكر بشيء سوى الشرطة. لا إلسي هولاند ولا الطاهية فكرتا في تأثير ذلك الاكتشاف الرهيب على طفلة رقيقة. قلت: هيا ندخل يا عزيزتي ، سنذهب إلى المطبخ.

درنا حول البيت إلى الباب الخلفي ودخلنا المطبخ. وكانت روز (وهي امرأة في الأربعين من عمرها ذات وجه منتفخ) تشرب الشاي الثقيل قرب مدفأة المطبخ.

حيّتنا بسيل دافق من الكلام ويدها على قلبها. أخبرتني بأنها أصبحت كالمجنونة وازداد خفقان قلبها! فكّر في الأمر فقط ، إذ كان يمكن أن تكون هي الضحية! ويمكن أن تكون أي واحدة أخرى في البيت ، تُقتل أثناء نومها في سريرها.

قلت: صُبي فنجان شاي للآنسة ميغان لو سمحت ، فقد صُدمت. تذكري أنها هي التي اكتشفت الجثة.

مجرد ذكر الجثة أصاب روز بالذعر ثانية ، إلا أنني قمعتها بنظرات صارمة فصبت فنجان شاي أسود. وقلت لميغان: خذي أيتها الفتاة ، اشربي هذا.

طلبتُ من ميغان أن تبقى مع روز وقلتُ مخاطباً الأخيرة: هل أعتمد عليك في العناية بالآنسة ميغان؟

ردّت روز بلطف قائلة: آه ، نعم يا سيدي.

ثم دخلت البيت. ولئن لم تخبُ معرفتي بروز ومثيلاتها فإنها

سرعان ما ستجد أن من الضروري لها أن تحافظ على قوتها بتناول قليل من الطعام، وهذا سيكون جيداً لميغان أيضاً. تباً لهؤلاء الناس، كيف لا يستطيعون العناية بهذه الطفلة؟

وجدت إلسي هولاند في الصلاة، وكنت أشتعل في داخلي. ويبدو أنها لم تفاجأ برؤيتي. كان الشرطي بيرت راندل قرب الباب الأمامي، وشهقت إلسي هولاند قائلة: آه يا سيد بيرتن، أليس ذلك فظيلاً؟ منذاً يمكن أن يفعل مثل هذا الأمر الرهيب؟

- كانت جريمة قتل إذن؟

- آه، نعم. لقد ضربت على مؤخرة رأسها. رأسها كله دم وشعر. آه! أمر فظيع! كانت مكومة في تلك الخزانة. من يمكن أن يفعل مثل هذا الفعل الشرير؟ ولماذا؟ المسكينة أغنيس، أنا واثقة أنها لم تؤذ أحداً أبداً.

قلت: نعم، لقد حرص أحدهم على أن لا يدعها تفعل ذلك، وبأقصى سرعة.

نظرت إليّ بإمعان. ورأيت أنها لم تكن ذات عقل سريع لمّاح، ولكنها ذات أعصاب قوية. كان لونها كعادته محمراً قليلاً بالانفعال، بل إنني تخيلت أنها كانت تستمتع بهذه الدراما بطريقة لا تخلو من رهبة، بالرغم من طبيعتها الطبيعية. قالت معتذرة: يجب أن أذهب إلى الأولاد. السيد سيمنغتن حريص جداً على أن لا يتعرضا لصدمة، وهو يريد مني إبعادهما.

- سمعت أن ميغان هي التي وجدت الجثة. أرجو أن يكون أحد قائماً على رعايتها؟

لا بد من إنصاف إلسي هولاند والقول إنها بدت كمن يعذبه ضميره. قالت: يا إلهي! لقد نسيت أمرها تماماً. أرجو فعلاً أن تكون على ما يرام. لقد داهمتني الأعمال من كل صوب، مع وجود الشرطة وهذا كله... ولكنه إهمال مني. مسكينة، لا بد أنها في وضع سيئ. سأذهب وأبحث عنها على الفور.

رققتُ لها وقلت: إنها بخير، روز تقوم على رعايتها. اذهبي إلى الأطفال.

شكرتني بابتسامة ظهرت خلفها أسنانها البيضاء وأسرعت إلى الطابق العلوي، فقد كانت مهمتها -في نهاية الأمر- تنصب على الولدين لا على ميغان. لم تكن ميغان من مهمة أحد! لقد عُيِّنت إلسي للعناية بأولاد سيمينغتن، ولا يكاد المرء يستطيع لومها على ذلك.

عندما لمحتها تنعطف بسرعة عند الزاوية في أعلى الدرج حبست أنفاسي، فقد لمحتُ -للحظة- التماعة لانتصار مُحلَّق لا شأن له بمربية أطفال حية الضمير.

ثم فُتح أحد الأبواب وخرج المفتش ناش منه إلى الصالة ووراءه سيمينغتن. قال: آه، سيد بيرتن، كنت بصدد الاتصال بك توأ. يسعدني أنك هنا.

لم يسألني لماذا أنا هنا. ثم التفت وقال لسيمينغتن: سأستخدم هذه الغرفة إن أمكن.

كانت غرفة صغيرة لجلسة الصباح فيها نافذة تطل على مقدمة البيت، وقال السيد سيمينغتن: بالتأكيد، بالتأكيد.

كان رابط الجأش، ولكنه بدا مرهقاً جداً. قال ناش بلطف:
لو كنت مكانك لتناولتُ إفطاراً ما يا سيد سيمينغتن. أنت والآنسة
هولاند والآنسة ميغان ستشعرون بتحسّن كثير لو تناولتم قهوة
وبيضاً ولحماً، فمواجهة جريمة قتل بمعدة خاوية مسألة صعبة
جداً.

كان يتكلم بأسلوب طبيب العائلة المريح. وحاول سيمينغتن
أن يبتسم ابتسامة باهتة وقال: أشكرك أيها المفتش، سأعمل
بنصيحتك.

تبعْتُ ناش إلى الغرفة الصغيرة، فأغلق الباب خلفه ثم قال:
لقد وصلت إلى هنا بسرعة. كيف سمعت الخبر؟

أخبرته أن ميغان اتصلت بي، وشعرت نحوه بالود، فهو لم
ينس أن ميغان تحتاج طعاماً هي الأخرى. قال: سمعت أنك اتصلت
في الليلة الماضية تسأل عن هذه الفتاة يا سيد بيرتن. لماذا؟

أظن أن عملي بدا غريباً بالفعل، فأخبرته عن مكالمة أغنيس
مع بارتريدج وعدم قدومها فقال: نعم، فهمت.

قالها ببطء وتفكير وهو يفرك ذقنه، ثم تنهد وقال: حسناً، إنها
جريمة قتل هذه المرة، جريمة قتل دون أي شك. اعتداء جسدي
مباشر. السؤال هو: ماذا كانت الفتاة تعرف؟ هل قالت أي شيء
لبارتريدج هذه؟ أي شيء محدد؟

- لا أظن ذلك، ولكن يمكنك سؤالها.

- نعم، سأذهب وأقابلها عندما أنتهي من هنا.

- ما الذي حدث بالضبط؟ أم أنكم ما زلتم لا تعلمون؟

- لدينا صورة تقريبية. كان يوم عطلة الخدم...

- كلا الخادمتين؟

- نعم، يبدو أنه كانت هنا في السابق خادمتان شقيقتان كانتا تحبان الخروج معاً، لذلك رتبت السيدة سيمينغتن عطلتها بهذه الطريقة، وعندما جاءت هاتان الخادمتان بدلاً منهما بقيت على النظام نفسه. وقد اعتادت ترك العشاء بارداً في غرفة الطعام، وكانت الأنسة هولاند هي التي تحضر الشاي.

- فهمت.

- الأمر واضح حتى نقطة محددة. الطاهية روز من سكان نيدر ميكفورد، وحتى تصل إلى هناك في يوم عطلتها عليها أن تلحق بحافلة الساعة الثانية والنصف، لذلك كان على أغنيس أن تنظف طاولة الغداء دائماً. ولكي تجازيها روز على ذلك فإنها اعتادت غسل الأطباق المستخدمة على العشاء نيابة عنها.

وهذا ما حدث بالأمس. ذهبت روز في الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة لتلحق بالحافلة، وذهب سيمينغتن إلى مكتبه في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة، وخرجت إلسي هولاند مع الأطفال الساعة الثالثة إلا ربعاً، كما خرجت ميغان على دراجتها بعد ذلك بخمس دقائق. وبذلك تكون أغنيس وحدها في البيت. وحسبما استطعتُ استنتاجه فإنها كانت تغادر البيت في العادة بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف.

- وهل يبقى البيت خالياً بعدها؟

- آه، إنهم لا يابهون لذلك هنا في البلدة ولا يقفلون بيوتهم كثيراً في هذه المناطق. وكما قلت: كانت أغنيس في الساعة الثالثة إلا عشر دقائق وحدها في البيت، وواضح أنها لم تغادره أبداً لأنها كانت ترتدي قبعة وصدريّة العمل عندما وجدنا جثتها.

- لعلكم تعرفون موعد وفاتها على التقريب؟

- لم يشأ الدكتور غريفيث إلزام نفسه بموعد دقيق. رأيه الطبي الرسمي أن الوفاة وقعت بين الساعة الثانية والرابعة والنصف.

- وكيف قُلت؟

- ضُربت أولاً على مؤخرة رأسها بحيث فقدت الوعي، وبعد ذلك جيء بسبخ مما يُستخدم في المطابخ (وقد سُحذ حتى صار رأسه دقيقاً) وُغرز في قاعدة جمجمتها مما سبب وفاتها على الفور.

قلت: جريمة بدم بارد تماماً.

- نعم، كان هذا واضحاً.

- من فعلها؟ ولماذا؟

قال ناش ببطء: لا أظننا سنعرف السبب بدقّة أبداً، لكننا نستطيع التخمين.

- أكانت تعرف شيئاً؟

- نعم، كانت تعرف شيئاً.

- ألم تلمح لأحد هنا بشيء؟

- لم تلمح حسبما استنتجتته. تقول الطاهية إنها كانت متضايقة منذ وفاة السيدة سيمنغن، وحسب كلام روز هذه كان قلقها يزداد شيئاً فشيئاً، وظلت تقول إنها لا تعرف ما ينبغي عليها عمله.

زفر زفرة غيظ قصيرة وقال: نفس الأسلوب دائماً؛ إنهم لا يأتون إلينا، فلديهم عقدة عميقة الجذور اسمها «الاحتكاك بالشرطة». لو أنها جاءت إلينا وأخبرتنا عما يقلقها لكانت اليوم على قيد الحياة.

- ألم تلمح للمرأة الأخرى بأي شيء؟

- نعم. أو هذا ما تقوله روز، وأنا أميل إلى تصديقها، لأنها لو فعلت لأخبرتنا روز به على الفور مع إضافة الكثير من زخارف خيالها عليه.

- أمر يبعث على الجنون أن لا نعرف.

- ما زال بإمكاننا التخمين يا سيد بيرتن. فالسبب بدايةً لا يمكن أن يكون شيئاً محدداً جداً. لا بد أنه من تلك الأشياء التي تعيد التفكير فيها، وكلما أعدت التفكير فيها زاد تمللك وعدم ارتياحك. أتفهم ما أعنيه؟

- نعم.

- عملياً أحسب أنني أعرف ما هو.

- هذا عمل جيد أيها المفتش.

- حسناً، إن الأمر هو أنني أعرف شيئاً لا تعرفه أنت يا سيد بيرتن. في عصر اليوم الذي انتحرت فيه السيدة سيمينغتن كان من المفروض أن تخرج الخادمتان، فقد كان يوم عطلةتهما، ولكن أغنيس عادت إلى البيت.

- هل تعرف هذا؟

- نعم. إن لأغنيس صديقاً، وهو شاب اسمه ريندل يعمل في محل الأسماك. كان يخرج من عمله مبكراً أيام الأربعاء ويأتي لمقابلة أغنيس فيتمشيان أو يذهبان إلى السينما إن كان الجو ممطراً. وقد تشاجرا في ذلك الأربعاء عندما التقيا مباشرة. فقد كانت كاتبة الرسائل المجهولة نشيطة وأوحت بأن لأغنيس صديقاً آخر، واثارت ثائرة الشاب فريد ريندل فتشاجرا شجاراً عنيفاً، فعادت أغنيس إلى البيت قائلة إنها لن تخرج إلا بعد أن يعتذر الشاب منها.

- حسناً، وبعد؟

- إن المطبخ يواجه ظهر البيت، لكن حجرة الخزين تطل على نفس المكان الذي نطل عليه في غرفتنا هذه. هناك بوابة دخول واحدة فقط، تدخل منها ثم تأتي إما إلى الباب الأمامي أو تمشي على الطريق الموازي لجانب البيت إلى الباب الخلفي.

سكت قليلاً ثم قال: سأخبرك الآن شيئاً. تلك الرسالة التي وصلت إلى السيدة سيمينغتن عصر ذلك اليوم لم تأت عن طريق البريد. فقد ألصق عليها طابع سبق استخدامه من قبل، وكان ختم البريد على الرسالة مزوراً بطريقة متقنة باستخدام سخام المصاييح حتى تبدو وكأن ساعي البريد هو الذي سلمها مع بريد العصر،

إلا أنها في الواقع لم تأت عن طريق البريد. هل ترى ما يعنيه هذا؟
قلت ببطء: يعني أنها وُضعت باليد في صندوق الرسائل قبل
وقت قصير من وصول البريد المسائي حتى تكون بين الرسائل
الأخرى.

- تماماً. إن بريد المساء يأتي في الساعة الرابعة إلا ربعاً تقريباً.
رأيتي هو أن الفتاة كانت في غرفة الخزين تنظر من النافذة (والنافذة
مستترة وراء الشجيرات لكن بوسع المرء النظر من خلالها جيداً)
وكانت ترقب مجيء صديقها ليعتذر لها.

- وقد رأيت من وضع تلك الرسالة، أليس كذلك؟

- هذا هو تخميني يا سيد بيرتن، وقد أكون مخطئاً بالطبع.

- لا أظنك مخطئاً. الأمر بسيط ومقنع أيضاً، وهو يعني أن
أغنيس عرفت من هو كاتب هذه الرسائل المجهولة.

- نعم.

قلت: ولكن لماذا لم...

ثم سكتُ متجهماً، فقال ناش بسرعة: الأمر - كما أظن -
هو أن الفتاة لم تدرك مغزى ما رأته. لم تدرك في البداية. نعم،
مجرد شخص ترك رسالة في البيت، ولكن ذلك الشخص لم يكن
شخصاً تتوقع أغنيس أن يكون ذا صلة بالرسائل المجهولة. لقد
كان -وفق هذه النظرية- شخصاً فوق الشبهات تماماً، ولكن كلما
كانت تفكر في هذا الأمر أكثر كان قلقها يزداد. هل تخبر شخصاً
بهذا الأمر؟ وفي حيرتها تلك فكرت في الأنسة بارتريدج التي أظن

أنها ذات شخصية مهيمنة من شأن أغنيس أن تقبل حكمها دون تردد، وقررت أن تسألها عما ينبغي عليها عمله.

قلت متأملاً: نعم، هذا يناسب الوقائع بشكل جيد. وقد اكتشفت صاحبة القلم السام هذا الأمر بطريقة ما. كيف اكتشفت ذلك أيها المفتش؟

- أنت غير معتاد على العيش في الريف يا سيد بيرتن. إن الأمور تنتشر هنا بنوع من المعجزة. هناك أولاً المكالمات الهاتفية... من الذي سمع المكالمة عندك؟

فكرت ثم قلت: أنا الذي أجبت على الهاتف في البداية، ثم ناديت بارتريديج وكانت في الطابق العلوي.

- هل ذكرت اسم الفتاة؟

- نعم، فعلت.

- هل سمعك أحد؟

- ربما سمعني أختي أو الأنسة غريفيث.

- آه، الأنسة غريفيث. ما الذي كانت تفعله هناك؟

أوضحت له، فسأل: هل كانت ستعود إلى القرية؟

- كانت ذاهبة إلى السيد باي أولاً.

تنهد الضابط ناش وقال: هذا يعني وجود مصدرين لنشر الخبر في المنطقة.

قلت غير مُصدق: هل تقصد أن أياً من الأنسة غريفيث أو السيد باي يمكن أن يكلف نفسه عناء إشاعة معلومة صغيرة لا معنى لها كهذه؟

- إن أي شيء يُعدّ خبراً في مثل هذه القرية. سيدهشك هذا الأمر، لكن لو حدث أن والدة خياطة الملابس ظهر في أصبع قدمها مسمار فإن الجميع هنا سيعرفون ذلك! ثم هناك الطرف الآخر على الخط هنا. الأنسة هولاند وروز... ربما كان بوسعهما سماع ما قالته أغنيس، وفريد ريندل. ربما كان خبر عودتها إلى البيت عصر ذلك اليوم قد انتشر عن طريقه هو.

ارتعدت قليلاً. كنت أنظر عبر النافذة، كانت أمامي أرض صغيرة مربعة مزروعة بالحشائش وممر وبوابة صغيرة. لقد فتح شخص ما البوابة ومشى بطريقة طبيعية وبهدوء وجاء إلى البيت ووضع الرسالة في صندوق الرسائل. رأيت بعين عقلي شكل تلك المرأة الغامضة. كان الوجه صفحة بيضاء لا ملامح لها، ولكن لا بد أنه وجه كنت أعرفه.

قال المفتش ناش: ومع ذلك فإن هذا يضيق دائرة المشبوهين. هكذا نمسك بهم في النهاية دائماً، نحذف أسماءهم واحداً بعد الآخر بعد تمحيص طويل وصبور. لا يمكن أن يكون قد بقي الآن الكثير من المشبوهين.

- ماذا تعني؟

- هذا يستبعد أي امرأة عاملة كانت في مكان عملها عصر الأمس، وهو يستبعد مديرة المدرسة، فقد كانت في مدرستها

تعمل. كما يستبعد ممرضة المنطقة، فأنا أعرف أين كانت بالأمس. وهذا لا يعني أنني كنت أشك بأية واحدة منهن، ولكننا الآن متأكدون. كما ترى يا سيد بيرتن فإن لدينا الآن وقتين محددتين نركّز عليهما: عصر أمس والأسبوع الذي قبله، أي في يوم وفاة السيدة سيمينغتن، ولنقل بين الساعة الثالثة والرابع (وهو أقرب وقت كان يمكن أن تعود فيه أغنيس إلى البيت بعد المشاجرة) والساعة الرابعة عندما يكون البريد قد وصل دون ريب (ويمكن تحديد هذا الوقت بمزيد من الدقة مع ساعي البريد). وأمس من الساعة الثالثة إلا عشر دقائق (عندما غادرت الأنسة ميغان البيت) إلى الساعة الثالثة والنصف أو حتى الساعة الثالثة والرابع باعتبار أن أغنيس لم تكن قد بدأت بتغيير ملابسها.

- ما الذي ترى أنه حدث بالأمس؟

كشّر ناش وقال: ما الذي أراه؟ أرى أن امرأة معينة مشت إلى الباب الأمامي ودقت الجرس وهي تبسم بكل هدوء باعتبارها زائرة المساء، وربما سألت عن الأنسة هولاند أو الأنسة ميغان أو ربما أحضرت معها طرداً. وعلى أي حال فقد التفتت أغنيس فضربتها السيدة الزائرة على مؤخرة رأسها على حين غرة.

- بماذا؟

- السيدات هنا يحملن معهن حقائب يدوية كبيرة الحجم في العادة. لا أحد يعرف ما يمكن أن يكون في داخلها.

- ثم طعنتها في مؤخرة عنقها ووضعته في الخزانة؟ أليس من شأن ذلك أن يكون عملاً ثقيلاً بالنسبة لامرأة؟

نظر ناش إليّ نظرات غريبة وقال: إن المرأة التي نبحث عنها ليست عادية، ليست طبيعية أبداً، وهذا النوع من الاضطراب العقلي ترافقه عادة قوة مدهشة. ثم إن أغنيس لم تكن كبيرة الحجم. سكت قليلاً ثم قال: ما الذي جعل الأنسة ميغان هنتر تفكر في البحث في الخزانة؟

قلت: مجرد غريزة. ثم سألتها: لماذا سُحبت أغنيس ووضعت في الخزانة؟ ما الغرض من ذلك؟

- كلما استغرق العثور على الجثة وقتاً أطول زادت صعوبة تحديد وقت الوفاة بالضبط. لو أن الأنسة هولاند -على سبيل المثال- عثرت على الجثة بمجرد وصولها لاستطاع الطبيب تحديد وقت الوفاة بدقة تبلغ نحو عشر دقائق، وهو أمرٌ سيكون خطيراً على صاحبتنا هذه.

قلت عابساً: ولكن إن كانت أغنيس تشته في هذه المرأة...

قاطعني ناش قائلاً: لم تكن تشته فيها، ليس لدرجة الاشتباه المحدد الجازم. إنما رأيت أن أمر تلك المرأة «غريب». أظنها كانت فتاة قليلة الذكاء ولم تشته إلا بطريقة مبهمّة، شاعرةً أن ثمة شيئاً غير طبيعي. إنها لم تشك بالتأكيد بأنها تواجه امرأة يمكن أن ترتكب جريمة قتل.

سألتها: هل شككت أنت في ذلك؟

هز ناش رأسه بالنفي، ثم قال بتأثر: كان يجب أن أعرف. إن مسألة الانتحار تلك أرعبت صاحبة القلم المسموم، لقد أصابها

الذعر. والخوف أمر لا يمكن التنبؤ بعواقبه يا سيد بيرتن.

- نعم، إنه الخوف. هذا ما كان علينا أن نتنبأ به. الخوف في عقل مجنون!

قال المفتش ناش بعد ذلك كلمات جعلت الأمر كله يبدو مربعاً تماماً: نحن نواجه قاتلاً يحظى بالاحترام والتقدير، قاتلاً يتمتع حقاً بمركز اجتماعي مرموق!

- ٣ -

قال ناش إنه ذاهب لمقابلة روز مرة أخرى، وسألته بشيء من الحياء إن كان بإمكانه الذهاب معه. وقد دهشت قليلاً عندما وافق بحرارة قائلاً: أنا مسرور جداً بتعاونك معنا يا سيد بيرتن، إن كان لي أن أقول ذلك.

قلت: يبدو هذا مريباً، ففي الروايات عندما يرحب رجل التحري بمساعدة شخص ما فإن ذلك الشخص يكون في العادة هو القاتل.

ضحك ناش قليلاً ثم قال: أنت لا تكاد تكون من النوع الذي يكتب رسائل مجهولة يا سيد بيرتن. وبصراحة، يمكنك أن تفيدنا.
- هذا يسرني، لكنني لا أعرف كيف.

- أنت غريب هنا، هذا هو السبب. ليست عندك أفكار مُسبقة عن الناس هنا، وفي الوقت نفسه لديك الفرصة لمعرفة الأمور بطريقة اجتماعية.

تمتتم قائلاً: القاتل شخص ذو مكانة اجتماعية مرموقة.
- بالضبط.

- هل سأكون الجاسوس الذي يعمل من الداخل؟

- هل لديك أي مانع؟

فكرت بالأمر ثم قلت: لا، ليس عندي مانع. إن كان في المنطقة مجنون خطير يدفع النساء البريئات إلى الانتحار ويضرب الخادومات البائسات على رؤوسهن فإنني لن أتوانى عن التصرف بقليل من القذارة لوضع حدّ له.

- هذا تصرف واعٍ منك يا سيدي، ولكن دعني أخبرك بأن من نبحث عنها خطيرة، بل شديدة الخطورة.

ارتعدتُ قليلاً وقلت: الواقع أن علينا أن نعبّل في العمل.

- هذا صحيح. ولا تظن أننا نجلس دون عمل. لا، فنحن -في دائرة الشرطة- نتابع عدة خيوط مختلفة.

قالها عابساً، ورأيت في مخيلتي شبكة عنكبوت رقيقة تمتد على مساحة واسعة.

أوضح لي ناش أنه يريد سماع رواية روز مرة أخرى لأنها سبق وذكرت له روايتين مختلفتين، وكلما حصل منها على المزيد من الروايات كلما استطاع الحصول من تلك الروايات على نُتف صغيرة من الحقيقة يمكن جمعها معاً.

وجدنا روز تغسل أطباق الافطار، فتوقفت على الفور وقد

أدارت عينيها ووضعت يدها على قلبها وأوضحت ثانية كيف تعكر مزاجها طوال الصباح. كان ناش صبوراً معها ولكنه كان حازماً، وقد أخبرني أنه كان في المرة الأولى لطيفاً يهدئها، ثم غدا حازماً معها في المرة الثانية، وهو الآن يستخدم الأسلوبين معاً.

بالغت روز في وصف تفصيلات ما جرى في الأسبوع المنصرم باستمتاع، وكيف أن أغنيس كانت في حالة خوف قاتل، وكيف ارتعدت وقالت "لا تسأليني" عندما ألحت عليها روز لتخبرها عما بها. ثم أنهت روز حديثها قائلة إن أغنيس قالت لها: "سيكون جزائي الموت إن أنا أخبرتك". قالتها روز وهي تدير بصرها مسرورة.

- ألم تلمح أغنيس بأية إشارة لما كان يقلقها؟

- لم تفعل، باستثناء خوفها على حياتها.

تنهد المفتش ناش وترك الموضوع، مقنعاً نفسه بالاكتماء بانتزاع وصف دقيق لتحركات روز نفسها في عصر اليوم السابق.

ورد في وصفها - باختصار - أنها ركبت حافلة الساعة الثانية والنصف وقضت المساء مع عائلتها، وعادت في حافلة الساعة الثامنة وأربعين دقيقة من نيدر ميكفورد. وقد عقد قصتها ما انخرط به من سرد لهواجس الشر التي انتابتها خلال المساء، وكيف أن أختها علقت على ذلك وكيف أنها لم تستطع تذوق لقمة واحدة من الكعكة التي تم إعدادها.

خرجنا من المطبخ بحثاً عن إلسي هولاند التي كانت تشرف على دروس الأطفال. وكما هي عادت كانت قديرة ولطيفة، وقد نهضت قائلة: والآن يا كولين ستحل أنت وبرايان هذه المسائل

الثلاث وتجهزان الإجابات لي عندما أعود.

ثم أخذتنا إلى غرفة نوم الطفلين وقالت: هل تنفع هذه؟ رأيت من الأفضل أن لا نتحدث أمام الأطفال.

- أشكرك يا آنسة هولاندا. أريدك أن تخبريني فقط مرة أخرى: هل أنت واثقة تماماً من أن أغنيس لم تذكر لك أبداً أنها كانت قلقة من شيء ما. أقصد منذ وفاة السيدة سيمينغتن؟

- قطعاً لم تقل لي أي شيء. كانت فتاة هادئة جداً ولم تكن تتحدث كثيراً.

- إذن فهي تختلف عن الأخرى؟

- نعم، إن روز تتحدث كثيراً جداً. أحيانا أضطر لتوجيهها بعدم تجاوز الأصول في ذلك.

- هلاً أخبرتني بالضبط عما حدث بعد ظهر الأمس؟ كل ما يمكنك تذكّره.

- حسناً، تناولنا الغداء كالمعتاد في الساعة الواحدة، وأسرعنا قليلاً، فأنا لا أترك الأطفال يضيعون وقتهم سدى. دعني أتذكر. عاد السيد سيمينغتن إلى المكتب، وقمت أنا بمساعدة أغنيس في إعداد الطاولة للعشاء، وأسرع الطفلان خارجين إلى الحديقة إلى أن انتهيت من عملي وأخذتهما معي.

- إلى أين ذهبتن؟

- إلى كومبيكر، سالكين الطريق المار عبر الحقول. أراد

الأولاد صيد السمك، وقد نسيْتُ طُعم السمك واضطرتُّ للعودة لأخذه.

- متى كان ذلك؟

- دعني أتذكر. انطلقنا الساعة الثالثة إلا ثلثاً تقريباً أو بعد ذلك بقليل. كانت ميغان ستأتي معنا ولكنها غيرت رأيها، فقد أرادت الخروج في رحلة على الدراجة، إنها مولعة بالدراجات.

- أقصد كم كانت الساعة عندما عدت لأخذ طُعم الاسماك؟ هل دخلت البيت؟

- لا. كنت قد تركته في سقيفة الزراعة وراء البيت. لا أعرف كم كانت الساعة وقتها، ربما كانت الثالثة إلا عشر دقائق تقريباً.

- هل رأيت ميغان أو أغنيس؟

- أظن أن ميغان كانت خرجت، ولم أر أغنيس. لم أر أحداً.

- وبعد ذلك، هل ذهبتم لصيد السمك؟

- نعم، ذهبنا بمحاذاة النهر، ولم نصطد شيئاً، فنحن قلماً نصطاد شيئاً، ولكن الأولاد يستمتعون بالأمر. وقد ابتلت ملابس برايان قليلاً وتعين عليّ تغيير ملابسه عندما رجعنا إلى البيت.

- هل أنت التي تقدمين الشاي أيام الأربعاء؟

- نعم. يكون كل شيء جاهزاً للسيد سيمنغتن في غرفة الاستقبال فأعدّ الشاي عندما يأتي. أما أنا والأطفال فإننا نتناول الشاي في غرفة الدراسة... وميغان بالطبع. إنني أحتفظ بعدة الشاي

الخاصة بي في خزانة في الغرفة.

- كم كانت الساعة عندما دخلتم البيت؟

- في الخامسة إلا عشر دقائق. أخذت الولدين الى الطابق العلوي وبدأت أعد الشاي. وعندما عاد السيد سيمنغن في الساعة الخامسة نزلت لأقدم له الشاي هناك ، ولكنه قال إنه سيتناوله معنا في غرفة الدراسة. كان الأولاد مسرورين جداً، ثم قمنا ببعض الألعاب بعد ذلك. يبدو أمراً فظيماً عندما نفكر الآن أننا كنا نلعب وقتها وجثة الفتاة المسكينة محشورة داخل الخزانة كل الوقت.

- هل من شأن أحد أن يذهب إلى تلك الخزانة في العادة؟

- لا، فهي تُستخدم فقط لحفظ الأغراض القديمة. إننا نعلق القبعات والمعاطف في غرفة الملابس الصغيرة على يمين الباب الأمامي عند الدخول. لا أظن أحداً ذهب إلى الخزانة الأخرى منذ أشهر عديدة.

- فهمت. ألم تلاحظي عند عودتك أي شيء غير عادي، أي شيء شاذ؟

فتحت عينيها الزرقاوين على اتساعهما وقالت: آه، أبداً يا حضرة المفتش، لا شيء على الإطلاق. بدا كل شيء طبيعياً كالمعتاد. هذا ما كان رهيباً في الأمر!

- وفي الأسبوع الذي قبله؟

- تقصد اليوم الذي... ماتت فيه السيدة سيمنغن؟

- نعم.

- آه، كان ذلك فظيماً، فظيماً جداً!

- نعم، نعم، أعرف. هل كنتم في الخارج بعد ظهر ذلك اليوم أيضاً؟

- نعم، إنني آخذ الأولاد دائماً في نزهة بعد الظهر إذا كان الجو صحواً، وفي الصباح نقوم بالدراسة. وأذكر أننا ذهبنا إلى السبخة، وكانت بعيدة جداً. وخشيت أنني عدت متأخرة لأنني عندما دخلت البوابة رأيت السيد سيمينغتن قادماً من مكتبه عند الطرف الآخر من الطريق، ولم أكن قد وضعت إبريق الشاي على النار بعد، وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بعشر دقائق.

- ألم تصعدي إلى غرفة السيدة سيمينغتن؟

- لم أكن أفعل ذلك أبداً. كانت تتراح دائماً بعد الغداء، كانت تتابها آلام عصبية وكانت تصيبها -عادة- بعد الوجبات، وقد أعطها الدكتور غريفيث بعض الكبسولات لتتناولها، وكانت معتادة على الاستلقاء ومحاولة النوم.

قال ناش بصوت غير مكترث: إذن فإن أحداً لا يأخذ لها البريد؟

- بريد المساء؟ لا، كنت أفتح الصندوق وأضع الرسائل التي أجدتها فيه على طاولة الصالة عندما أدخل، ولكن السيدة سيمينغتن اعتادت في الغالب أن تنزل وتأخذ البريد بنفسها. لم تكن تنام طويلاً بعد العصر، فكان من عاداتها الاستيقاظ في الرابعة.

- ألم تفكري بوجود شيء غير طبيعي لأنها لم تستيقظ ذلك

المساء؟

- أبدأ، لم أتخيل وقوع مثل هذا الأمر. كان السيد سيمنغتن يعلق معطفه في الصالة وقلت له: "الشاي ليس جاهزاً تماماً، ولكن الماء في الإبريق على وشك أن يغلي". وقد أوماً برأسه ونادى: "مونا، مونا". وحين لم ترد السيدة سيمنغتن صعد إلى غرفتها فكانت صدمة عنيفة له دون شك. ناداني فجئت إليه، وقال: "أبعدي الأطفال عن المكان"، ثم اتصل بالدكتور غريفيث، ونسبنا كل شيء عن الإبريق فاحترق أسفله كله! آه، يا إلهي، كان ذلك رهيباً، مع أنها كانت سعيدة جداً ومبتهجة ساعة الغداء.

قال ناش بسرعة: ما هو رأيك الخاص بتلك الرسالة التي استلمتها يا آنسة هولاند؟

قالت إلسي هولاند ساخطة: أعتقد أنها عمل شرير، شرير جداً!

- نعم، نعم، لم أقصد ذلك. هل تظنين أن ما قالته الرسالة كان صحيحاً؟

قالت إلسي هولاند بجزم: كلا، لا أرى ذلك. كانت السيدة سيمنغتن حساسة، بل حساسة جداً، وكانت تتناول أنواعاً من الأدوية لتهدئة أعصابها، كما كانت... كانت مترتبة.

احمرّ وجه إلسي وأكملت: كان من شأن أي شيء من ذلك النوع (وأعني من النوع القذر) أن يسبب لها صدمة كبيرة.

صمت ناش لحظة ثم سألها: هل استلمتِ أيّاً من هذه الرسائل

يا آنسة هولاند؟

- لا، لا، لم أستلم شيئاً منها.

- هل أنت متأكدة؟ أرجوك...

ثم رفع يده وقال: لا تتعجلي الإجابة. أعرف أنها رسائل كريهة وأحياناً لا يحب الناس الاعتراف بأنهم تلقوا شيئاً منها، ولكن من المهم جداً في هذه القضية أن نعرف. إننا ندرك تماماً أن ما تحتويه هذه الرسائل من كلام هو كذب محض، ولذلك لا حاجة للإحساس بالحرج.

- ولكنني لم أستلم شيئاً منها أيها المفتش. لم أستلم -حقاً- أي شيء من هذا القبيل.

كانت ساخطة توشك أن تبكي، وبدا إنكارها صادقاً تماماً.

عندما عادت إلى الأطفال وقف ناش ينظر عبر النافذة، ثم قال: حسناً، هكذا إذن! تقول إنها لم تتلق أياً من هذه الرسائل، ويبدو أنها تقول الحقيقة.

- لقد قالت الحقيقة بالتأكيد، أنا واثق من ذلك.

قال: إن ما أريد معرفته هو: لماذا لم تستلم؟ ثم أكمل بشيء من نفاذ الصبر: إنها فتاة جميلة، أليس كذلك؟

قلت: إنها أكثر من جميلة في الواقع.

- بالضبط. الحقيقة أنها فتاة جميلة بطريقة غير عادية، كما أنها صغيرة. بل هي في الحقيقة مما يسيل له لعاب أي كاتب

لرسل المجهولة تلك. لماذا استُثيت إذن؟

هزرت رأسي حيرة فقال: إنه أمر مشير للاهتمام. يجب أن أذكر ذلك لغريفيز، لقد طلب منا أن نخبره عن أي شخص لم يتلق رسالة من هذه الرسائل.

- إنها المرأة الثانية. تذكر أن إميلي بارتن لم تستلم شيئاً أيضاً.

ضحك ناش ضحكة باهتة وقال: لا تصدق كل ما يقال لك يا سيد بيرتن. لقد استلمت الآنسة بارتن واحدة دون شك، بل أكثر من واحدة.

- وكيف عرفت؟

- تلك التينة المخلصة التي تعيش معها أخبرتني، خادمتها أو طاهيتها، فلورنس إلفورد. كانت ساخطة جداً من هذا الأمر وأرادت أن تشرب من دم كاتب الرسائل.

- ولماذا قالت الآنسة إميلي إنها لم تتلق أية رسالة؟

- إنها الرقة والتهذيب، فلغة الرسائل بذيئة. لقد قضت الآنسة بارتن حياتها وهي تتجنب كل ما هو جلف غير مهذب.

- وماذا قالت الرسائل؟

- الكلام المعتاد. ولكنه كان -في حالتها- كلاماً سخيلاً بدرجة مضحكة، مع تلميح إلى أنها قد سمّت أمها العجوز ومعظم أخواتها.

قلت غير مصدق: أتريد القول إن هذه المجنونة الخطيرة

ستبقى طليقة دون أن نحدد هويتها؟

قال ناش بصوت مكتئب: سنكشفها، فستكتب رسائل كثيرة
بعد.

- ولكن، يا إلهي! لا يمكن أن تواصل كتابة هذه الأشياء...
ليس الآن.

نظر إليّ وقال: نعم، ستكتب. لا تستطيع أن تتوقف الآن،
فهو هاجس فظيع يجري في الدم. ستستمر الرسائل، لا شك في
ذلك.

* * *

الفصل التاسع

- ١ -

ذهبت لرؤية ميغان قبل مغادرة البيت. كانت في الحديقة وابتدت وقد عادت إلى طبيعتها تقريباً، وحيثني بحرارة.

اقترحت عليها أن تعود للإقامة معنا لبعض الوقت، ولكنها هزت رأسها بالرفض بعد قليل من التردد وقالت: هذا لطف منك، ولكن أظنني سأبقى هنا، فهو في نهاية الأمر بيتي... كما أظن. وأحسب أن باستطاعتي مساعدة الأولاد قليلاً.

- حسناً، كما تشائين.

- أظن أنني سأبقى. يمكنني، يمكنني...

- ماذا؟

- لو... لو حدث شيء فظيع يمكنني الاتصال بك فتأتي، أليس كذلك؟

تأثرتُ وقلت: بالطبع. ولكن ما هو الشيء الفظيع الذي تظنين أنه قد يحدث؟

قالت بشيء من الإبهام: آه، لا أعرف. الأمور تبدو مقلقة في الوقت الحاضر، أليس كذلك؟

- بالله عليك لا تدسي أنفك لتستخرجي لنا مزيداً من الجثث، فهذا يضرّ بك!

ابتسمت لي ابتسامة خفيفة وقالت: صحيح، لقد جعلني هذا الأمر أشعر بالغيثان.

لم أكن أرغب كثيراً بتركها هناك، ولكنه -في نهاية المطاف- بيتها كما قالت، كما أنني تصورت أن إلسي هولاند ستشعر الآن بمزيد من المسؤولية تجاهها.

ذهبت مع ناش إلى بيتنا ليتل فيرز، وبينما كنت أسرد أحداث الصباح لجوانا كان ناش يحاور بارتريدج، ثم انضم إلينا محبباً وقال: ليس في كلامها ما يساعدنا كثيراً. حسبما تقوله هذه المرأة فإن كل ما قالته الفتاة هو أنها قلقة من شيء ما ولا تعرف ماذا تفعل، وأنها تريد نصيحة الآنسة بارتريدج.

سألته جوانا: هل حدثت بارتريدج بهذا الأمر أيّاً كان؟

أوماً ناش برأسه وهو يبدو متجهماً وقال: نعم، لقد أخبرت السيدة إيموري، الخادمة النهارية التي تعمل عندكم. أخبرتها بذلك بشكل عام كما فهمت، حيث قالت إن بعض الفتيات يبدن استعداداً لأخذ المشورة ممن هم أكبر منهن سناً، ولا يرين أن باستطاعتهم حل مشكلاتهن بأنفسهن تلقائياً! وإن أغنيس ربما لم تكن ذكية جداً، ولكنها كانت فتاة لطيفة محترمة وتعرف كيف تتصرف.

تمتت جوانا: إنما أرادت بارتريدج إطراء نفسها في حقيقة الأمر، وربما نشرت إيموري الخبر في أرجاء البلدة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا آنسة بيرتن.

قلت: يدهشني أمرٌ واحدٌ بعض الشيء. لماذا شملتُ أنا وأختي في قائمة الذين أرسلت لهم رسائل مجهولة؟ نحن غريان هنا ولا يمكن لأحد أن تكون له عداوة أو ضغينة تجاهنا.

- أنت لا تفهم عقلية أصحاب الرسائل المسمومة، فكل ما يقع أمام نظرهم يصلح موضوعاً لمكرهم. يمكنك القول إن حقدهم ينصبّ على الإنسانية عموماً.

قالت جوانا متأملة: أظن أن هذا ما عنته السيدة كالثروب.

نظر ناش إليها متسائلاً، ولكنها لم توضح له. قال المفتش: لا أعرف إن كنتِ قد نظرتِ عن كُتبٍ إلى مغلف الرسالة التي تلقيتها يا آنسة بيرتن. إن كنتِ فعلت ذلك فلعلك لاحظت أنها كانت في الواقع مُعنونةً إلى الآنسة بارتُن ثم حُوّل حرف الألف في بارتُن إلى الياء بعد ذلك.

كان يجب أن تعطينا تلك الملاحظة - لو فُسرَت بشكل صحيح - مفتاحاً لحل اللغز كله، لكن الذي حدث أن أحداً منا لم يلاحظ فيها أي أهمية.

خرج ناش وبقيت مع جوانا فقالت: أتظن أن تلك الرسالة كانت مرسلة حقاً إلى الآنسة إميلي؟

- لو كانت كذلك فلا أظنها كانت ستبدأً بعبارة: «أيتها

المومس المتبرجة!»!

وافقتني جوانا. ثم اقترحت عليّ أن أذهب إلى البلدة قائلة:
يجب أن تسمع ما يقوله كل واحد، سيكون هذا موضوع الصباح!
اقترحت عليها الذهاب معي، ولكنها رفضت، الأمر الذي
فاجأني قليلاً. قالت إنها تريد العبث في الحديقة، وقبل خروجي
من الباب وقفت وقلت وأنا أخفض صوتي: أظن أن بارتريديج
بريئة من ذلك؟

- بارتريديج!

جعلني الدهول الواضح في صوت جوانا أشعر بالخجل من
فكرتي هذه. قلت بلهجة المعتذر: كنت أتساءل فقط. إنها «غريبة
الأطوار» في بعض الأمور. عانس مخيفة، من ذلك النوع الذي
يمكن أن نجد لديه هوساً دينياً.

- ولكن الدافع هنا ليس الهوس الديني... أو هذا ما أخبرتني
بأن غريفز قد قاله.

- حسناً، إنها مكبوتة ومهذبة وقد عاشت هنا وراء أبواب
مغلقة مع العديد من النساء العجائز لسنوات عديدة.

- ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

قلت ببطء: ليس لدينا إلا أقوالها هي عما قالته الفتاة أغنيس
لها، أليس كذلك؟ افترضني أن أغنيس قد طلبت من بارتريديج أن
تخبرها لماذا جاءت (أي بارتريديج) وتركت رسالة في ذلك اليوم،
وقالت بارتريديج إنها ستزورها عصر ذلك اليوم لتشرح لها.

- ثم موّهت ذلك بالمجيء إلينا والسؤال عن إمكانية قدوم الفتاة هنا؟

- نعم.

- لكن بارتريديج لم تخرج من البيت أبداً عصر ذلك اليوم.

- لا نستطيع الجزم، كنا خارج البيت في ذلك الوقت، ألا تذكرين؟

- بلى، هذا صحيح، أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت جوانا وهي تقلب الأمر في ذهنها: ولكن لا أظن. لا أظن أن بارتريديج تملك العقلية المناسبة للتغطية على آثارها في تلك الرسائل: مسح بصمات الأصابع وكل هذه الأمور. فالمرء لا يحتاج إلى المكر فقط، بل إلى المعرفة أيضاً. ولا أظن أنها تملك المعرفة. أحسب أن...

ترددت جوانا ثم قالت ببطء: إنهم متأكدون أنها امرأة، أليس كذلك؟

هتفتُ غيرَ مصدّق: لا أظنك تحسبينه رجلاً؟!

- ليس... ليس رجلاً عادياً، ولكن رجل من نوع معين. في الحقيقة أنا أفكر في السيد باي.

- إذن فالسيد باي هو من وقع اختيارك عليه؟

- ألا تشعر أنت أنه احتمال ممكن؟ إنه من ذلك النوع من الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا وحيدين، تعسّين وحاقدين.

الجميع هنا يكادون يهزؤون به. ألا تراه في داخله يكره كل الناس الطبيعيين السعداء ويستمتع استمتاعاً شاذاً وغريباً فيما يفعله؟

- قال غريفز إنها عانس في متوسط العمر.

- والسيد باي «عانس» في أواسط عمره.

قلت ببطء: شاذ عن محيطه.

- هذا صحيح. إنه غني، ولكن المال لا يغني بشيء. أنا أشعر

فعالاً أنه قد يكون مضطرباً عقلياً، إنه حقاً قزم مخيف.

- تذكّري أنه استلم رسالة من هذه الرسائل.

- نحن لا نعرف ذلك يقيناً بل نظنه فقط، وعلى أي حال

فربما كان يمثل أمامنا. إن له من الذكاء ما يجعله يفكر في ذلك، ولا يبالغ في تمثيله للدور.

- لا بد أن يكون ممثلاً من الدرجة الأولى.

- بالطبع يا جيري، إن أيّ واحد يقوم بهذا العمل لا بد أن

يكون ممثلاً من الدرجة الأولى، وهذا ما يجعل في الأمر متعة.

- أرجوك يا جوانا، لا تتحدثي بكل هذا الفهم! هذا يجعلني

أشعر بأنك... بأنك تفهمين العقلية التي تقف خلف هذا الأمر.

- أظن أنني أفهمها وأستطيع أن أفهم المزاج الذي تنطلق منه.

لو لم أكن جوانا بيرتن، ولو لم أكن شابة وجذابة إلى حد معقول

وقادرة على الاستمتاع بوقتي، لو كنت... كيف أعبر عن ذلك؟ لو

كنت حبيسة وراء القضبان أرقب الآخرين وهم يستمتعون بالحياة،

فهل كان الشر الأسود سينمو في نفسي ويجعلني أرغب في الإيذاء والتعذيب، وحتى في التدمير؟

أمسكتها من كتفيها وهزرتها قائلاً: جوانا!

تنهدت قليلاً وارتعشت ثم ابتسمت لي قائلة: لقد أخفتك، أليس كذلك يا جيري؟ ولكنني أشعر بأن هذه هي الطريقة الصحيحة لحل هذه المشكلة. يجب أن تتمثل وضع الشخص نفسه وتعرف كيف يشعر وما الذي يجعله يتصرف، وعندها، عندها ربما عرفت ما الذي سيفعله ذلك الشخص بعد ذلك.

- آه، تبا! وأنا الذي جئت إلى هذا المكان لأكون كسولاً وأهتم بالفضائح المحلية الصغيرة. هه! الفضائح المحلية الصغيرة، قذف وذم وكلام بذيء وجرائم قتل!

- ٢ -

كانت جوانا محقة تماماً، فقد كان الشارع العام مليئاً بالمجموعات المهمة، وعزمت على معرفة رد فعل كل امرئ واحداً تلو الآخر.

التقيت أولاً بغريفيث، وقد بدا متعباً ومريضاً جداً لدرجة جعلتني أتعجب. إن جرائم القتل ليست حدثاً يومياً في حياة الطبيب بالتأكيد، ولكن مهنته تهيئه بالفعل لمواجهة معظم الأمور بما فيها المعاناة والجانب البشع من الطبيعة البشرية وحقيقة الموت.

قلت له: تبدو مرهقاً.

قال بشيء من الغموض: حقاً؟ آه! واجهتني بعض الحالات
المقلقة مؤخراً.

- بما فيها حالة مجنوننا؟

- بالتأكيد.

أبعد نظره عني وحوّله إلى الشارع، ولاحظت عصباً صغيراً
ينتفض في جفنه. قلت له: أليست لديك أية شكوك بالنسبة لهوية
الفاعل؟

- لا أشك بأي أحد بعينه، أتمنى مخلصاً لو كنتُ أعرف.

سأل فجأة عن جوانا، ثم قال متردداً إن لديه بعض الصور
التي كانت تريد رؤيتها. عرضت عليه أن آخذها لها فقال: آه، لا
يهم. سأمر أمام بيتكم في وقت لاحق من هذا اليوم.

بدأت أخشى أن يكون غريفيث قد أخذ موضوع جوانا على
محمل الجد. تباً لجوانا! كان غريفيث أطيب من أن تضمه إلى
قائمة انتصاراتها.

تركته يذهب لأنني رأيت أخته قادمة وأردت الحديث معها
هذه المرة. بدأت إيمي غريفيث الحديث كما لو أنها تكمله بعد
انقطاع: أمر مذهل تماماً! سمعت أنك كنت هناك في وقت مبكر؟

كانت كلماتها على صيغة سؤال وقد لمعت عيناها عندما
شدّدت على كلمة «مبكر». لم أخبرها أن ميغان اتصلت بي، وبدلاً
من ذلك قلت: كنت أشعر بشيء من عدم الارتياح ليلة أمس، كانت
الفتاة ستأتي لشرب الشاي في بيتنا لكنها لم تظهر.

- لذلك خشيت وقوع الأسوأ؟ هذا ذكاء شديد منك!

- نعم، أنا كلب صيد بشري.

- هذه أول جريمة قتل تقع عندنا في لايمستوك، والانفعالات على أشدها. أرجو أن يتمكن الشرطة من معالجة الأمر.

- لست قلقاً، فهم أصحاب كفاءة عالية.

- لا أستطيع حتى تذكر شكل الفتاة، رغم أنها فتحت لي الباب عشرات المرات فيما أظن. فتاة صغيرة الحجم هادئة لا شيء يميزها. ضربت على رأسها ثم طعنت في مؤخرة عنقها، هكذا قال أوين. يبدو لي أن ذلك من فعل صديق لها. ماذا ترى؟

- أهذا هو تصورك؟

- يبدو أرجح من غيره. أظنهما تشاجرا معاً، فكثير من الناس هنا وُلدوا من زيجات الأقارب، لذلك فإن لدى الكثير منهم شذوذاً وموروثات سيئة.

سكنت قليلاً ثم أكملت: يُقال إن ميغان هنتر هي التي وجدت الجثة؟ لا بد أنها أصيبت بصدمة عنيفة.

قلت باختصار: نعم.

- لا أظن هذا جيداً لها. رأيي أنها لا تتمتع بالكثير من القوة العقلية، وشيء كهذا قد يصيبها بالجنون التام.

أخذت قراراً مفاجئاً، إذ أردت أن أعرف شيئاً. قلت: أخبريني يا آنسة غريفيث، أنت التي أفنعت ميغان بالعودة إلى بيتها بالأمس؟

- حسناً، ما كنتُ لأستعمل كلمة «أفنتها» بالضبط.

أصررت على موقفي وقلت: ولكنك قلتِ لها شيئاً؟

ثبّتت إيمي غريفيث قدميها بقوة ونظرت إليّ وجهاً لوجه. كانت في موقف دفاعي إلى حد ما، قالت: ليس من الجيد أن تتهرب تلك الفتاة من مسؤولياتها، فهي شابة ولا تعرف كيف تدور الألسن، ولذلك شعرت أن من واجبي أن ألمّح لها بشيء.

- الألسن؟! -

سكّتُ لأنني لم أستطع مواصلة الكلام من شدة الغضب. أكملت إيمي غريفيث تتكلم مُظهرَةً خصلتها الرئيسية التي تثير الجنون، خصلة الثقة بالنفس والرضا عن الذات: آه، أحسبك لا تسمع الشائعات التي تدور في البلدة، أما أنا فأعرفها، أعرف ما يقوله الناس. رغم أنني لا أظن -للحظة واحدة- أن فيما يقولونه شيئاً من الصحة أبداً، ولكنك تعرف طبيعة الناس... إذا ما وجدوا فرصة لقول شيء سيّئ فإنهم يقولونه! وسيكون هذا من سوء حظ الفتاة عندما تريد أن تكسب عيشها.

قلت حائراً: تكسب عيشها؟

أكملت إيمي: إنه موقف صعب بالنسبة لها طبعاً، وأعتقد أنها فعلت عين الصواب. أقصد أنها لم تكن تستطيع الرحيل دون إنذار مسبق وترك الأطفال دون وجود أحد يرعاهم. لقد كانت رائعة، رائعة جداً. إنني أقول ذلك للجميع! ولكن هذا ما وصل إليه الأمر. إنه موقف مثير للاستياء وسوف يتكلم الناس.

- عمّن تتكلمين؟

قالت إيمي غريفيث بنفاد صبر: عن إلسي هولاند بالطبع.
إنها فتاة لطيفة جداً ولم تكن تقوم إلا بعملها.

- وما الذي يقوله الناس؟

ضحكت إيمي غريفيث، ورأيت ضحكتها كريهة بعض الشيء. قالت: يقولون إنها تفكر فعلاً في إمكانية أن تصبح السيدة سيمينغتن رقم ٢ وإنها تبذل كل جهودها لمواساة الأرملة ووضع نفسها في موضع من لا يمكن الاستغناء عنه.

قلت مصدوماً: ولكن، يا إلهي! لم يمضِ على وفاة السيدة سيمينغتن سوى أسبوع واحد!

رفعت إيمي كتفيها استهجاناً وقالت: بالطبع، إشاعات سخيفة! ولكنك تعرف طبيعة الناس، فالفتاة إلسي هولاند شابة جميلة، وهذا يكفي. تذكر أن عمل مربية أطفال لا يعتبر مستقبلاً جيداً بالنسبة لأي فتاة. ما كنتُ لألومها إن أرادت بيتاً مستقراً وزوجاً وقامت بلعب أوراقها وفقاً لذلك.

ثم أكملت: إن المسكين سيمينغتن لا يعرف شيئاً عن كل ذلك بالطبع. إنه ما زال يعاني من الصدمة التي أحدثتها وفاة مونا سيمينغتن، ولكنك تعرف طبيعة الرجال! إذا كانت الفتاة إلى جانبه دوماً، توفر له أسباب الراحة وتعتني به وتظهر إخلاصاً واضحاً للأطفال... عندها يصبح معتمداً عليها.

قلت بهدوء: إذن فأنت ترين أن إلسي هولاند كعوب ذات

كيد وتخطيط؟

احمرّ وجه إيمي غريفيث وقالت: إطلاقاً. إنني آسفٌ لتلك الفتاة ولكل ما يقوله الناس من أقاويل كريهة! هذا هو ما جعلني أخبر ميغان -بطريقة ما- بأن عليها أن تذهب إلى بيتها. هذا يبدو أفضل من أن تعيش الفتاة والسيد سيمنغن في البيت وحدهما.

بدأت أفهم الأمور. وأطلقت إيمي غريفيث ضحكتها المبتهجة قائلة: لقد صُدمت يا سيد بيرتن من سماع ما تفكر به بلدتنا الثرثرة الصغيرة. بوسعي أن أوكد لك التالي: إنهم دائماً يفترضون الأسوأ! ضحكتُ وأومأت برأسها ثم ذهبت.

- ٣ -

التقيت بالسيد باي قرب الكنيسة فيما كان يتحدث مع إميلي بارتن التي بدت منفعلة محمّرة الوجه. حيّاني السيد باي بحرارة واضحة قائلاً: آه، بيرتن، صباح الخير، صباح الخير! كيف حال أختك الفاتنة؟

أخبرته بأن جوانا بخير، فقال: ولكنها لم تنضم إلى برلمان قرينتا؟ نحن جميعاً متلهفون للأخبار. جريمة قتل! جريمة قتل حقيقية كتلك التي تُكتب في الصحف، وتقع بيننا! لا أحسبها من تلك الجرائم المثيرة جداً، فهي جريمة قذرة إلى حد ما، قتل وحشي لخادمة صغيرة. ليس فيها جوانب دقيقة عالية المستوى، ولكنها مع ذلك خبر لا يمكن إنكاره.

قالت الآنسة بارتن وهي ترتعش: إنها تثير الصدمة تماماً.

التفت السيد باي إليها وقال: لكنك تستمتعين بها يا عزيزتي، تستمتعين بها. اعترفي بذلك الآن! أنت تستنكرينها ولا توافقين عليها، ولكن تبقى الإثارة. أنا أصر على أن فيها إثارة!

قالت إميلي بارتن: كانت فتاة لطيفة. جاءت إليّ من ملجأ سينت كلوتيلد فتاة غرّة تماماً، ولكنها شديدة القابلية للتعلم، وقد غدت خادمة لطيفة جداً. كانت بارتريدج مسرورة جداً منها.

قلت بسرعة: كانت ستأتي لشرب الشاي مع بارتريدج عصر أمس. ثم التفتُ إلي باي وقلت: أظن أن إيمي غريفيث أخبرتك.

قلتُ ذلك بنبرة عرّضية عادية تماماً، وأجاب باي دون أن يظهر عليه الارتياح: نعم، ذكرت هذا لي. أذكر أنها قالت إنه أمر جديد من الخدم أن يتصلوا على هواتف مخدوميهم.

قالت الأنسة إميلي: لم تكن بارتريدج لتعلم أبداً بفعل شيء كهذا، وإني مدهوشة حقاً من إقدام أغنيس على ذلك.

قال السيد باي: أنت تنتمين لزمان مضى يا عزيزتي. إن خادمي يستخدمان الهاتف باستمرار، وكانا يدخنان في جميع أرجاء البيت إلى أن اعترضتُ عليهما. ولكن المرء لا يجرؤ على قول الكثير، فالسيد بريسكوت طباح رائع، رغم مزاجيته، والسيدة بريسكوت خادمة تبعث على الإعجاب.

- نعم، نحن جميعاً نراك محظوظاً جداً بهما.

تدخلت إذ لم أرد أن يتحول الحديث إلى الخدم، قلت: لقد انتشر خبر الجريمة بسرعة كبيرة.

قال السيد باي: بالطبع، بالطبع. إنها على لسان كل من هبّ ودبّ. إن لايمستوك تتدهور مع الأسف: رسائل مجهولة وجرائم قتل والكثير من الظواهر الإجرامية!

قالت إميلي بارتن بعصبية: إنهم لا يرون... لا توجد أي فكرة بأن... بأن الأمرين مرتبطان.

التقط السيد باي هذه الفكرة بلهفة وقال: هذا تخمين مثير للاهتمام. كانت الفتاة تعرف شيئاً، لذلك قتلت. نعم، نعم، هذا حدس رائع. يا لذكاء هذه الفكرة منك!

قالت إميلي بارتن فجأة: أنا لا أستطيع تحمل ذلك.

ثم مضت مسرعة وباي ينظر إليها. كان وجهه الملائكي مزموماً من الحيرة، ثم التفت إليّ وهز رأسه بلطف وقال: امرأة حساسة. ألا تظن أنها امرأة رائعة؟ قطعة أثرية لعهد غابر. فهي لا تنتمي حتى لجيلها نفسه، بل لجيل سابق لها. لا بد أن أمها كانت امرأة قوية الشخصية، أظن أنها أبقت التوقيت في عائلتها متوقفاً عند العام ١٨٧٠ تقريباً، وبقيت العائلة كلها محفوظة في قفص زجاجي. إنني أحب الالتقاء بمثل هذا النوع من الناس!

لم أرغب بالحديث عن القطع الأثرية، فسألته: ما هو رأيك حقاً في هذا الأمر؟

- ماذا تقصد؟

- الرسائل المجهولة، جريمة القتل...

- موجة الجرائم المحلية عندنا؟ ماذا ترى أنت؟

قلت بمرح: أنا الذي سألتك أولاً؟

قال السيد باي بلطف: أنا من هواة دراسة الشواذ، فهم يثرون اهتمامي. أنت قد تجد تصرفات في غاية الغرابة لدى أناس يظهرن بعيدين عن مثل هذه الممارسات. خذ على سبيل المثال قضية ليزي بوردن، لا يوجد تفسير معقول لهذه القضية. إن نصيحتي للشرطة في هذه الحالة هي: ادرسوا الشخصية. اتركوا بصمات الأصابع وقياسات خط اليد والعمل المجهري، وبدلاً من ذلك لاحظوا ماذا يفعل الناس بأيديهم، وما هي الحركات الصغيرة في طريقة تصرفهم، والطريقة التي يأكلون بها طعامهم، وهل يضحكون أحياناً دون سبب واضح...

رفعت حاجبي دهشة وقلت: أتعني أنه مجنون؟

- نعم، مجنون تماماً، تماماً. ولكنك لن تعرف ذلك أبداً!

- من يكون؟

نظر إليّ وابتسم قائلاً: لا، لا يا بيرتن، سيكون ذلك قذفاً، وليس من الحكمة إضافة القذف إلى بقية ما نراه حولنا.

ثم انطلق مسرعاً في الشارع.

- ٤ -

بينما كنت أفق وأحدق إليه وهو يبتعد فُتح باب الكنيسة وخرج منه الكاهن كالب كالثروب. ابتسم لي ابتسامة غامضة وقال: صباح الخير يا سيد، يا سيد...

ساعدته قائلاً: بيرتن.

- بالطبع، بالطبع. لا تظن أنني نسيتك، لقد سقط اسمك من ذاكرتي للحظة فقط. إنه يوم جميل.

قلت بشيء من الاقتضاب: نعم.

أمعن النظر إليّ وقال: ولكن، آه، نعم، تلك الفتاة المسكينة التي كانت تخدم في بيت سيمنغتن. لا بد أن أعترف بأنني لا أستطيع تصديق وجود قاتل بيننا يا سيد... يا سيد بيرتن.

- يبدو هذا غريباً بعض الشيء بالفعل.

مال نحوي وقال: لقد بلغ مسامعي شيء آخر، علمت أن رسائل مجهولة تنتشر في البلدة. هل سمعت مثل هذه الإشاعات؟

- نعم، سمعت.

- يا لها من تصرفات جبانة خسيصة!

استشهد بسيل متدفق من الكلام اللاتيني ثم قال: إن هذه الكلمات تنطبق على واقعنا هذا كثيراً. أليس كذلك؟

قلت باقتضاب: بالتأكيد.

- ٥ -

لم أجد أحداً آخر يفيدني الحديث معه فعدت إلى البيت، ولكنني مررت في طريقي بمتجر لأشتري بعض التبغ ولأستمع إلى بعض الآراء الأكثر تواضعاً بخصوص الجريمة.

- متشرد قذر.

هكذا بدا حكم صاحب المتجر فيما يخص هوية المجرم. وأضاف قائلاً: إنهم يأتون إلى أبواب المنازل ويتحبون ويطلبون نقوداً، فإذا وجدوا في البيت فتاة وحيدة انقلبوا إلى أشرار. لقد تعرضت أختي دورا هناك في كومبيكر لتجربة بغیضة في أحد الأيام. كان مخموراً ويبيع تلك الأشعار المطبوعة...

استمرت الحكاية، وانتهت بقيام دورا الجسورة بإغلاق الباب في وجه الرجل والتمترس في ملجأ غامض داخل البيت، فهمت من تحرجه من ذكره أنه الحمام دون ريب، "وقد بقيت هناك إلى أن عادت سيدتها إلى البيت".

وصلت «ليتل فيرز» قبل موعد الغداء ببضع دقائق. كانت جوانا واقفة عند الباب الزجاجي لغرفة الجلوس لا تفعل شيئاً، وقد بدت أفكارها بعيدة جداً. سألتها: ماذا كنت تفعلين وحدك؟ - آه، لا أعرف. لا شيء محددًا.

خرجت إلى الشرفة. كان فيها كرسيان سُحبا إلى طاولة حديدية، وكان عليها كأسا عصير فارغان، وعلى كرسي آخر كان شيء نظرتُ إليه بحيرة وقلت: ما هذا؟

قالت جوانا: أحسبها صورة شعاعية لطحال مريض أو شيء من هذا القبيل. يبدو أن الدكتور غريفيث ظنني مهتمة بهذا الموضوع.

نظرت إلى الصورة ببعض الاهتمام، ولئن كانت لكل رجل

طريقته الخاصة في مغازلة جنس النساء فإنني ما كنت شخصياً لأفعل ذلك باستخدام صور الطحال، سواء كان مريضاً أو غير مريض. وفكرت بأن جوانا هي التي جنت على نفسها!

قلت: تبدو صورة كريهة جداً.

وافقتني جوانا على أنها كريهة بالفعل، وسألتها: كيف كان غريفيث؟

- بدا مرهقاً وحزيناً جداً. أظن أن في ذهنه شيئاً.

- طحالاً لم ينجح معه العلاج؟

- لا تكن سخيلاً! أقصد شيئاً حقيقياً.

- أظن أنك أنت التي في ذهن الرجل. أرجو أن تتعدي عنه يا جوانا.

- آه، أرجوك أن تسكت، فأنا لم أفعل شيئاً.

- النساء دائماً يقلن هذا.

خرجت جوانا من الغرفة غاضبة. وكانت صورة الطحال المريض قد بدأت تتجعد تحت الشمس، فأمسكت بها من إحدى الزوايا وأدخلتها إلى غرفة الاستقبال. لم أكن معجباً بها شخصياً، ولكنني افترضت أنها واحدة من كنوز غريفيث. انحنيت وسحبت كتاباً كبيراً من رفّ سفليّ في خزانة الكتب حتى أضع الصورة بين أوراقه لتعود إلى استقامتها، وكان الكتاب مجلداً ثقيلاً.

انفتح الكتاب بين يديّ بطريقة فاجأتني قليلاً، ولكنني سرعان

ما عرفت السبب، فمن وسط المجلد تم قصّ عدد من الصفحات بطريقة مرتبة.

- ٦ -

وقفت أحرق إليه، ثم نظرت إلى صفحة العنوان فرأيت أنه نُشر عام ١٨٤٠. لم يكن في المسألة أي شك على الإطلاق، فقد كنت أنظر إلى الكتاب الذي جُمعت من صفحاته كلمات الرسائل المجهولة. مَنْ الذي قصّها؟

حسناً، أولاً يمكن أن تكون إميلي بارتن نفسها، وربما كانت هي الشخص الواضح الذي تتجه إليه الأنظار، أو قد تكون بارتريدج. ولكن كانت توجد احتمالات أخرى عديدة. يمكن أن تكون الصفحات قد قُطعت بواسطة أي شخص بقي في هذه الغرفة وحيداً، زائر جلس هناك ينتظر الأنسة إميلي مثلاً، أو ربما يكون أي شخص جاء لزيارتها في عمل ما.

لا، لم يكن ذلك مرجحاً كثيراً، فقد لاحظت ذات يوم -عندما جاء موظف البنك لرؤيتي- أن بارتريدج أدخلته إلى المكتب الصغير في آخر البيت. من الواضح أن ذلك هو ما جرت عليه العادة في هذا البيت.

أيكون زائراً إذن؟ شخصاً ذا «مكانة اجتماعية مرموقة»؟ السيد باي؟ إميلي غريفيث؟ السيدة كالثروب؟

قُرْع جرس الطعام وذهبت لتناول الغداء. وبعد ذلك، عندما كنا في غرفة الاستقبال، أطلعت جوانا على اكتشافي. ناقشنا الأمر من جميع جوانبه، ثم أخذت الكتاب إلى مركز الشرطة.

سُرّوا جميعاً من هذا الاكتشاف وهنّؤوني على إنجاز لم يكن إلا مجرد حظ. لم يكن غريفز هناك، ولكن ناش كان موجوداً، وقد اتصل بزميله بالهاتف. واتفقا على فحص الكتاب بحثاً عن بصمات الأصابع، رغم أن ناش لم يكن متفائلاً باكتشاف شيء منها. ويمكن القول إنه لم يجد شيئاً بالفعل، فلم تكن على الكتاب سوى بصماتي وبصمات بارتريدج فحسب، مما يُظهر أن بارتريدج كانت تنظف كل شيء بإخلاص.

سار ناش معي في طريق عودتي صعوداً على التلة. سألته كيف تجري الأمور معه فقال: إننا نضيّق نطاق الاحتمالات يا سيد بيرتن، فقد حذفنا الأشخاص المستبعدين.

- آه. ومن بقي؟

- الآنسة غينش. كان يفترض أن تلتقي بأحد الزبائن في أحد البيوت عصر أمس بناء على موعد سابق. لم يكن البيت بعيداً على طريق كومبيكر، وهو الطريق الذي يمر عبر بيت سيمينغتن. كانت ستمر أمام البيت في ذهابها وفي عودتها... وفي الأسبوع الذي سبق، يوم سلّمت الرسالة المجهولة وانتحرت السيدة سيمينغتن، كان ذلك هو آخر أيامها في مكتب سيمينغتن. وقد ظن السيد

سيمنغن في البداية أنها لم تغادر المكتب أبداً عصر ذلك اليوم. كان معه السير هنري لاشينغن طوال العصر، وقد اتصل بالآنسة غينش عدة مرات، ومع ذلك فقد اكتشفت أنها غادرت المكتب بين الساعة الثالثة والرابعة، خرجت لشراء بعض الطوابع البريدية التي نفذت من المكتب. كان بوسعها إرسال صبي المكتب لشراء الطوابع، ولكنها اختارت أن تذهب بنفسها قائلة إنها مصابة بالصداع وتحب استنشاق بعض الهواء الطلق، ولم تغب طويلاً.

- ولكنها غابت بما يكفي؟

- نعم، غابت بما يكفي للذهاب سريعاً إلى الطرف الآخر من القرية ودس رسالة في الصندوق والعودة مرة أخرى. ولكن لا بد من القول إن أحداً لم يرها قرب بيت سيمينغن.

- أكان من شأن أحد أن يلحظها؟

- ربما، وربما لا.

- ومن غيرها في جعبتك؟

نظر ناش أمامه وقال: أنت تفهم أننا لا نستطيع استثناء أي شخص، أي شخص على الإطلاق.

- نعم، أفهم ذلك.

قال بتجهم: لقد ذهبت الآنسة غريفيث إلى بريتن لحضور اجتماع لفتيات الكشافة بالأمس، وقد وصلت إلى هناك متأخرة.

- لا أحسبك تظن...

- لا أظن، ولكنني لا أعرف. إن الأنسة غريفيث امرأة عاقلة وواعية تماماً فيما يظهر، ولكن -كما قلت- لا أعرف.

- وماذا عن الأسبوع الماضي؟ أيمن أن تكون قد دست الرسالة في الصندوق؟

- ممكن، فقد كانت تتسوق في البلدة عصر ذلك اليوم.

سكت قليلاً ثم قال: نفس الأمر ينطبق على إميلي بارتن. كانت قد خرجت للتسوق في وقت مبكر من بعد ظهر أمس، وذهبت مشياً على الأقدام لرؤية بعض صديقاتها على الطريق الذي يمر أمام بيت سيمينغتن الأسبوع الماضي.

هزرت رأسي غير مصدق. كنت أعرف أن العثور في منزل ليتل فيرز على الكتاب الذي قُصت منه الأوراق سيؤدي حتماً إلى توجيه الانتباه نحو صاحبة البيت، ولكنني عندما تذكرت قدوم الأنسة إميلي بالأمس بكل ذلك الإشراق والسعادة والانفعال.

تباً لهذا الأمر! الانفعال؟ نعم، كانت منفعلة بخدّين متوردين وعينين لامعتين. من المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب... لم يكن لأنها...

قلت على نحو غامض: ما أسوأ هذا الأمر على المرء! فهو يجعله يرى أشياء عديدة ويتصور أشياء كثيرة.

قال ناش: نعم، ليس من المفرح كثيراً أن ينظر المرء إلى من يلتقي بهم من زملائه البشر على أنهم مجرمون مهووسون. وسكت لحظة ثم أكمل: ولدينا السيد باي.

قلت بحدة: أو قد فكرتم فيه إذن؟

ابتسم ناش وقال: نعم، فكرنا فيه دون شك. شخصية غريبة جداً، ولا أظنها شخصية لطيفة كثيراً. ليس لديه ما يثبت مكان وجوده ساعة الجريمة. كان في حديقته وحيداً في كلا الحادثتين.

- إذن فأنتم لا تشتهون بالنساء فقط؟

- لا أظن أن من كتب الرسائل رجل، بل إنني متأكد أنه ليس كذلك، وغريفز أيضاً، مع وضعنا لصاحبنا السيد باي في أذهاننا دوماً، ذلك أن في شخصيته بعض الملامح الأنثوية الشاذة. لكننا راجعنا تحركات الجميع بالنسبة لعصر أمس، فهذه جريمة قتل كما تعلم. وضعك أنت على ما يرام، وكذلك أختك، والسيد سيمينغتن الذي لم يغادر مكتبه بعد أن وصل إليه، وكذلك الدكتور غريفيث الذي كان يقوم بجولة على المرضى في الجانب الآخر من البلدة، وقد تحققت من الزيارات التي قام بها.

سكت، ثم ابتسم ثانية وقال: نحن - كما ترى - لا نترك شيئاً للمصادفات.

قلت ببطء: إذن فقد تمت تصفية القضية بحيث لم يتبق إلا هؤلاء الأربعة: الأنسة غينش، والسيد باي، والأنسة غريفيث، والأنسة بارتن؟

- آه، لا، لدينا اثنان غيرهم، وزوجة الكاهن أيضاً.

- هل فكرتم فيها؟

- فكرنا في الجميع، ولكن جنون السيدة كالثروب أكثر

صراحة ووضوحاً من أن تكون هي، إن كنت تفهم ما أعنيه. ومع ذلك يمكن أن تكون قد فعلتها. كانت في الغابة ترقب الطيور عصر أمس، ولا يمكن للطيور أن تشهد لصالحها.

التفتُّ بحدة عندما دخل أوين غريفيث إلى مركز الشرطة قائلاً: مرحباً يا ناش. سمعت أنك كنت تسأل عني هذا الصباح. هل من شيء مهم؟

- ستُعقد جلسة التحقيق يوم الجمعة إن كان هذا الوقت يلائمك يا دكتور غريفيث.

- جيد، وسوف نشرح الجثة هذه الليلة أنا ومورسيبي.

قال ناش: وأمر آخر يا دكتور غريفيث. كانت السيدة سيمينغتن تتناول بعض الأقراص أو الكبسولات التي وصفتها لها...

ثم سكت، فقال أوين غريفيث متسائلاً: نعم؟

- هل كان من شأن جرعة زائدة من هذه الأقراص أن تكون قاتلة؟

قال غريفيث ببرود: قطعاً لا، إلا إذا تناولت خمسة وعشرين قرصاً مثلاً!

- لكنك حذرتها مرة من تجاوز الجرعة المقررة كما أخبرتني الأنسة هولاند.

- نعم، هذا صحيح. فقد كانت السيدة سيمينغتن من ذلك النوع الذي يمكن أن يعمد إلى المبالغة في تناول أي شيء يوصف

له وتتخيل أن مضاعفة الجرعة سيعني مضاعفة التحسن. لكننا لا نريد لأي مريض أن يضاعف جرعته حتى لو كانت من الأسبرين، فمثل هذا مضر. وعلى أي حال فليس في سبب وفاتها أي شك على الإطلاق، لقد ماتت بسبب السيانيد.

- آه، أعرف ذلك. أنت لم تدرك قصدي؛ لقد رأيتُ فقط أن مَنْ يريد الانتحار سيفضّل أخذ جرعة مضاعفة من المنوم على إطعام نفسه حمض البروسيك.

- صحيح. ولكن حمض البروسيك -من ناحية أخرى- أكثر درامية ويؤدي الغرض بصورة أكيدة، ولو تناول المنتحر مادة منومة مثلاً فمن الممكن إسعافه إذا أدركته في الوقت المناسب.

- فهمت، أشكرك يا دكتور غريفيث.

غادر غريفيث، وودعتُ ناش، وعدت إلى البيت صاعداً التلة ببطء. كانت جوانا خارج البيت، أو لم تكن فيه أي إشارة على وجودها فيه على الأقل. وكانت هناك ملاحظة مبهمّة مكتوبة بخط سريع على حاملة الهاتف، والمفترض أنها كانت توجيهاً إما لي أو لبارتريدج: "إذا اتصل الدكتور غريفيث فلا يمكنني المضي يوم الثلاثاء، ولكن يمكن ترتيب ذلك يوم الأربعاء أو الخميس".

رفعت حاجبيّ دهشة ودخلت غرفة الاستقبال، حيث جلست على أكثر الكراسي راحة (ولم يكن أيٌّ منها مريحاً تماماً لأن ظهورها مستقيمة، وهي من بقايا السيدة بارتن الراحلة) ومددت ساقيّ وحاولت التفكير في الأمر كله.

تذكرت -بانزعاج مفاجئ- أن وصول أوين قد قطع عليّ

حديثي مع المفتش وأنه كان قد ذكر لتوه وجود شخصين آخرين مشتبته فيهما. وتساءلت عن هوية هذين الشخصين: أأتكون بارتريديج واحدة منهما؟ فالكتاب الذي قُصَّت منه الأوراق وُجد في هذا البيت ويمكن أن تكون أغنيس قد ضُربت على يد مُرشدتها وراعيها وهي غافلة لا تشك بشيء. لا يمكن استبعاد بارتريديج. ولكن مَنْ هو الآخر؟ أيكون شخصاً لا أعرفه؟ السيدة كليت، المشبوهة الأولى في القرية؟

أغمضت عينيّ وفكرت في أربعة أشخاص الواحد تلو الآخر، والغريب أنهم كانوا غير مرجّحين. أأتكون إميلي بارتن اللطيفة الضئيلة الضعيفة؟ ما هي النقاط الموجودة عملياً ضدها؟ حياة الحرمان؟ الكبت والسيطرة اللذين تعرضت لهما منذ طفولتها المبكرة؟ التضحيات الكثيرة التي كانت مطلوبة منها؟ رعبها الغريب من مناقشة أيّ موضوع «ليس لطيفاً»؟ أكان ذلك عملياً مؤثراً على انشغال داخليّ مرّضي بتلك الموضوعات نفسها؟ شعرت أنني أصبحت فرويدياً لدرجة فظيعة. تذكرت أن أحد الأطباء أخبرني يوماً بأن هلوسات السيدات العوانس اللطيفات عندما يقعن تحت تأثير المخدر كانت كشفاً مذهلاً، قال لي: ما كان المرء ليظن أنهم يعرفن مثل تلك الكلمات!

إيمي غريفيث؟ لم يكن فيها -بالتأكيد- شيء مكبوت أو مُحبط. امرأة مرحة مسترجلة ناجحة وحياة مليئة مشغولة. ومع ذلك فقد قالت السيدة كالثروب عنها إنها فتاة مسكينة!

وكان هناك شيء، شيء ما... آه! تذكرته. لقد قال أوين غريفيث شيئاً من قبيل: "وقعت موجة من تلك الرسائل المجهولة

في الشمال حيث كنتُ أعمل". أكان ذلك أيضاً من عمل إيمي غريفيث؟ من المؤكد أن تلك مصادفة لا تكاد تُصدّق: أن تحدث موجتا رسائل من نفس النوع. ولكن تمهّل لحظة، فقد عثر الشرطة على كاتبة تلك الرسائل. لقد قال غريفيث ذلك، وكانت طالبة مدرسة.

أصبح الجو بارداً فجأة، لا بد أنه تيار هوائي من النافذة. تقلبت على الكرسي منزعجاً. لماذا شعرت فجأة بهذا الإحساس الغريب وهذا الإنزعاج؟

امض في تفكيرك. إيمي؟ أتكون كاتبة تلك الرسائل هي إيمي غريفيث وليست تلك الفتاة الأخرى؟ ربما جاءت إيمي إلى هنا وبدأت بممارسة حيلها ثانية، ولهذا كان أوين غريفيث يبدو تعساً شديداً القلق، لقد شكّ بالحقيقة. نعم، لقد شك.

أم تراه يكون السيد باي؟ إنه -بطريقة ما- ليس بالرجل اللطيف جداً. يمكنني تصوّره وهو يقوم بهذا الأمر كله ضاحكاً!

تلك الرسالة المكتوبة على حاملة الهاتف في الصالة... لماذا أواصل التفكير فيها؟ غريفيث وجوانا. أكان منجذباً إليها؟ ولكن لا، لم يكن ذلك هو السبب الذي جعل الرسالة تقلقني. كان شيئاً آخر.

كانت حواسي تسبح، وكان النوم قريباً مني. كررت في نفسي بغباء: "لا دخان بلا نار. لا دخان بلا نار... هذه هي الحقائق كلها تترابط معاً". وبعدها رأيتني أسير في الشارع مع ميغان، ومرت إلسي هولاند. كانت ترتدي ثياب العروس والناس يتمتمون: سوف

تتزوج الدكتور غريفيث أخيراً، فقد كانا طبعاً مخطوبين سراً منذ سنوات. كنا في الكنيسة، وكان كالثروب يقرأ الخطبة باللاتينية، وفي وسط الخطبة قفزت السيدة كالثروب من مقعدها وصاحت بقوة: يجب إيقاف هذا، يجب وقفه!

لبضع لحظات لم أعرف إن كنت نائماً أم مستيقظاً. ثم صفا ذهني، وأدركت أنني كنت في غرفة الاستقبال في ليتل فيرز وأن السيدة كالثروب دخلت لتوها من الباب الزجاجي، وكانت تقف أمامي وتقول بغضب وعصبية: يجب إيقاف هذا.

قفزت قائلاً: أرجو المعذرة، لم أسمعك، أخشى أنني كنت نائماً. ماذا قلت؟

ضربت السيدة كالثروب بقبضتها على راحة يدها الأخرى بقوة وقالت: يجب وقف هذا. هذه الرسائل، جرائم القتل... لا يمكن الاستمرار في قتل أطفال أبرياء أمثال أغنيس وُدل!

- أنت محقة تماماً، ولكن كيف تنوين إيقافها؟

- يجب أن نفعلاً شيئاً!

ابتسمتُ، وربما كان في ابتسامتي شيء من الفوقية، ثم قلت: وما الذي تقترحين علينا عمله؟

- يجب توضيح كل شيء! لقد قلتُ إن هذه ليست بلدة شريرة، ولكنني كنت مخطئة. إنها شريرة.

شعرت بالضيق، وقلت بشكل لم أراع فيه كثيراً من الأدب: نعم يا سيدتي العزيزة، ولكن ماذا ستفعلين؟

- سأضع حداً لهذا الأمر كله بالطبع.

- الشرطة يبذلون كل جهدهم.

- إن كانت أغنيس قد قُتلت بالأمس فإن كل جهدهم ليس كافياً.

- إذن فأنت تعرفين أفضل منهم؟

- أبداً. أنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق، ولهذا سأستدعي خبيراً.

هززت رأسي وقلت: لا يمكنك صنع ذلك، فسكتلنديارد لا تتدخل إلا بناء على طلب من رئيس الشرطة في المقاطعة، وقد أرسلت غريفز.

- لا أقصد خبيراً من هذا النوع. لا أقصد شخصاً يعرف عن هذه الرسائل المجهولة أو حتى عن جرائم القتل. أقصد شخصاً يعرف الناس. ألا تفهم؟ نريد شخصاً يعرف الكثير عن الشر.

كانت وجهة نظر غريبة، ولكنها كانت مُحفزة على نحو ما. وقبل أن أتفوه بأي كلمة أخرى أو مأت السيدة كالثروب برأسها لي وقالت بنبرة سريعة وواثقة: أنا سأتولى ذلك في الحال.

ثم حطت عبر باب الشرفة الزجاجي وانطلقت مبتعدة.

* * *

الفصل العاشر

- ١ -

أظن أن الأسبوع الذي تلا ذلك كان من أكثر الأسابيع التي مرت عليّ غرابة، فقد كان في أحداثه شيء أشبه بالأحلام ولم يبد أي شيء فيه حقيقياً.

عُقدت جلسة التحقيق في مقتل أغنيس وُدل وحضرها كل سكان لايمستوك الفضوليين، ولم تظهر أي حقائق جديدة، وصدر الحكم المتوقع ذاته: "جريمة قتل بواسطة مجهول أو مجهولين".

وهكذا دُفنت المسكينة أغنيس وُدل في مقبرة الكنيسة القديمة الهادئة بعد أن نالت نصيبها من الاهتمام العام، واستمرت الحياة في لايمستوك كما كانت عليه من قبل. ولكن لا، تلك العبارة الأخيرة ليست صحيحة، ليس كما كانت عليه من قبل.

ففي عين كل امرئ من سكان البلدة كانت التماعة نصفها قلق ونصفها ريبة، وأخذ الجار ينظر إلى جاره. لقد اتضحت في التحقيق نقطة واحدة على الأقل، هي أن من المستبعد تماماً أن يكون قاتل أغنيس وُدل شخصاً غريباً عن البلدة، فلم يلحظ أحدٌ مشردين أو أشخاصاً غير معروفين في المنطقة. كان -إذن- في مكان ما في

لايمستوك شخص يسير في الشارع العام ويتسوق ويقضي ساعات النهار حراً طليقاً بعدما حطم جمجمة فتاة لا حول لها ولا قوة وغرز سيخاً حاداً في رأسها، ولم يعرف أحد من هو ذلك الشخص!

كما قلت، مرّت الأيام كأنها حلم. كنت أنظر إلى كل من ألتقيه وفق منظور جديد، منظور الخشية من أن يكون قاتلاً محتملاً. ولم تكن تلك بالتجربة المريحة! وفي الأمسيات، عندما تُسدّل الستائر في بيوت القرية، كنت أجلس مع جوانا نتحدث ونتحدث وناقش جميع الاحتمالات التي بقيت -رغم ذلك- مُستبعدة لا يمكن تصديقها.

تمسكت جوانا بنظريتها القائلة إن الفاعل هو السيد باي، أما أنا فقد عدتُ بعد قليل من التردد إلى مشبوهتي الأصلية، الأنسة غينش. ولكننا ناقشنا الأسماء المحتملة كلها مرة بعد مرة: السيد باي، الأنسة غينش، السيدة كالثروب، بارتريدج، إيمي غريفيث، إميلي بارتن؟

وطوال تلك الفترة كنا ننتظر وقوع حدث ما بعصيبة وخشية، ولكن أي مكروه لم يحصل ولم يتلق أحد -حسب علمنا- أي رسائل أخرى. كان ناش يظهر في البلدة بصورة دورية، ولكنني لم أعرف ماذا كان يفعل وما هي الأشرار التي كان ينصبها، وكان غريفز قد رحل عائداً إلى لندن.

خلال تلك الأيام زارتنا إميلي بارتن لشرب الشاي، وجاءت ميغان للغداء، وكان أوين غريفيث يدور على مرضاه، وزرنا السيد باي وشربنا عنده الشاي، كما ذهبنا لشرب الشاي في بيت الكاهن.

كنت مسروراً إذ وجدتُ أن السيدة كالشروب لم تُظهر تلك القسوة التي أبدتها في لقائنا الأخير، وأظن أنها نسيت كل شيء عن هذا الأمر. بدت الآن مهتمة بصورة أساسية في القضاء على الفراش الأبيض للمحافظة على مزروعات القرنيط والملفوف.

والحق أن الأمسية التي قضيناها في بيت الكاهن كانت من أكثر زيارتنا هدوءاً. كان بيتاً قديماً جميلاً فيه غرفة استقبال كبيرة مريحة رغم قدمها، وقد نُجِدُّ أثاثها بقماش ورددي فاتح، وكانت في البيت ضيفة تقيم مع الكاهن وزوجته، وهي سيدة عجوز لطيفة كانت تحيك ثوباً ما بصوف أبيض.

تناولنا مع الشاي كعكة ساخنة لذيذة، وجاء الكاهن وابتسم في وجوهنا بينما كان يحدثنا حديثه اللطيف الذي يكشف عن سعة علمه. كانت جلسة سارة جداً، ولكنني لا أقصد بهذا أننا ابتعدنا كثيراً عن موضوع جريمة القتل، لأننا لم نفعل في الواقع.

كانت الضيفة العجوز (واسمها الآنسة ماربل) قد أظهرت اهتمامها بهذا الموضوع وقالت بلهفة اعتذار: "ليس لدينا في الريف إلا القليل من الموضوعات التي تصلح للحديث". وقد قررت أن الفتاة القتيلة كانت تشبه -بلا ريب- خادمتها إديث، وقالت: كانت خادمة صغيرة في غاية اللطف والتعاون، ولكن لديها أحياناً القليل من البطء في استيعاب الأمور. كما قالت الآنسة ماربل إن لها ابن عم له ابنة أخ كانت أخت زوجها قد عانت من إزعاجات ومشكلات كثيرة بسبب بعض الرسائل المجهولة، وبذلك فإن موضوع الرسائل كان هو الآخر مثيراً جداً بالنسبة للعجوز الرائعة.

قالت تخاطب السيدة كالثروب: ولكن أخبريني يا عزيزتي،
ما الذي يقوله أهل القرية... أقصد أهل البلدة؟ ما هو رأيهم؟

قالت جوانا: أظنهم ما زالوا يظنون أنها السيدة كليت.

قالت السيدة كالثروب: آه، لا، ليس الآن.

سألت الأنسة ماربل عمّن تكون السيدة كليت هذه، فأجابتها
جوانا بأنها ساحرة القرية، ثم قالت: أليس هذا صحيحاً يا سيدة
كالثروب؟

تمتم الكاهن بعبارة طويلة مقتبسة باللغة اللاتينية خيّل إليّ أنها
عن موضوع القوة الشريرة للساحرات، وقد أصغينا جميعاً لكلامه
بصمت واحترام دون أن نفهم كلمة واحدة.

قالت زوجته: إنها امرأة سخيفة جداً، تحب التباهي والإيحاء
بأمور معينة، فتخرج -مثلاً- لتجمع الأعشاب عندما يكون القمر
بدرأً وتحرص على أن يعرف كل أهل القرية بهذا الأمر.

قالت الأنسة ماربل: وأحسب أن الفتيات السخيفات يذهبن
ويستشرنها؟

رأيت الكاهن يستعد لصب المزيد من العبارات اللاتينية على
مسامعنا فسارعتُ أسأل: ولكن لماذا لا يشك الناس الآن بارتكابها
جريمة القتل؟ لقد توقعوا أن تكون الرسائل من فعلها.

قالت الأنسة ماربل: ولكن الفتاة قُتلت بسيخ من حديد
كما سمعت (وهي فعلة شنيعة جداً)، ومن الطبيعي أن يُبعد هذا
الأسلوب كل الشبهات عن السيدة كليت، إذ كان بإمكانها أن

تطلب لها الشر فتمرض الفتاة تدريجاً ثم تموت لأسباب طبيعية.

قال الكاهن: غريب كيف تستمر هذه المعتقدات القديمة!

قالت زوجته: ما ينبغي علينا التعامل معه الآن ليس الخرافات بل الحقائق.

قلت: وهي حقائق كريهة جداً.

قالت الأنسة ماربل: كلامك صحيح يا سيد بيرتن. أرجو أن تعذرني إن كان كلامي شخصياً، ولكنك غريب هنا ولديك معرفة بالعالم وبجوانب الحياة المختلفة، ويبدو لي أن من المفترض أن تستطيع أنت العثور على حل لهذه المعضلة البغيضة.

ابتسمت فقلت: إن أفضل حل توصلت إليه كان حلاً، وفي حلمي كانت كل الحقائق منسجمة تحتل مكانها الصحيح وتعطي نتائج رائعة، وعندما استيقظت وجدت -مع الأسف- أن كل شيء كان هراء!

- هذا مثير جداً. أرجو أن تخبرني كيف كان ذلك الهراء.

- لقد بدأ الأمر كله بالعبارة السخيفة: «لا دخان بلا نار». كان الناس يرددون العبارة بطريقة مثيرة للاشمئزاز، ثم ما لبثت أن امتزجت في ذهني مع مصطلحات حربية: سواتر دخانية، قصاصة ورق، رسائل هاتفية... ولكن لا، كان هذا في حلم آخر.

- وماذا كان ذلك الحلم؟

بدت السيدة العجوز متلهفة لمتابعة هذا الموضوع بحيث

شعرتُ أنها كانت بالتأكيد قارئة سرية لكتاب «تفسير الأحلام» الذي كان مرافقاً دائماً لمريتي العجوز.

قلت: رأيت فيه فقط أن إلسي هولاند (وهي مربية الأطفال في بيت سيمينغتن) تتزوج بالدكتور غريفيث، وكان مضيفنا الكاهن يتلو الخطبة باللاتينية، ثم نهضت السيدة كالثروب فاعترضت على الزواج وقالت إنه ينبغي وقف ذلك!

ثم أضفت مبتسماً: ولكن ذلك الجزء الأخير كان حقيقياً، فقد نهضت من غفوتي فوجدتك تقفين بجانبى وتقولين هذا الكلام. قالت السيدة كالثروب: وكنت على حق تماماً.

سررتُ إذ لاحظت أنها قالت ذلك بهدوء ودون انفعال.

سألت الأنسة ماربل وهي تقطب حاجبيها: ولكن أين جاءت الرسالة الهاتفية التي ذكرتها؟

- آه، أخشى أنني أتصرف بغباء، فتلك لم تكن في الحلم، بل كانت قبله تماماً. وصلت إلى البيت ودخلت الصلاة فلاحظت أن جوانا كتبت رسالة صغيرة أرادت إبلاغها لأحدهم إذا ما اتصل هاتفياً...

مالت الأنسة ماربل إلى الأمام، وقالت وقد احمرّت وجنتاها: هل ستعتبرني فضولية وقحة إذا سألتك عن فحوى تلك الرسالة؟

ثم قالت وهي تنظر إلى جوانا: أرجو المعذرة يا عزيزتي.

ولكن جوانا كانت مستمتعة جداً، فطمأنت السيدة العجوز

قائلة: آه، لا مانع عندي. أنا شخصياً لا أذكر منها شيئاً، ولكن ربما استطاع جيري تذكّرها. لا بد أنها كانت مسألة تافهة جداً.

كررتُ كلمات الرسالة بأفضل ما أمكنتني تذكّره، وقد حفزني وسرني ما أبدته العجوز من اهتمام كبير. كنت أخشى أن تخيّب كلماتُ الرسالة أملها، ولكن ربما خطر لها خاطر توهمت معه وجود علاقة عاطفية ما خلف تلك الرسالة، فقد أوّمت برأسها وابتسمت وبدت مسرورة، وقالت: فهمت. لقد ظننت أنها ستكون شيئاً على هذا النحو.

قالت السيدة كالثروب بحدة: أيّ نحو يا جين؟

- أي أن تحوي كلاماً عادياً جداً.

نظرتُ إليّ متأملةً لبعض الوقت ثم قالت على نحو غير متوقع: بوسعي أن أرى أنك شاب ذكي جداً، ولكنك غير واثق من نفسك بما فيه الكفاية. ينبغي أن تثق بنفسك!

صاحت جوانا احتجاجاً: بالله عليك لا تشجعيه على مثل هذا الشعور، يكفيه ما لديه من عجب بنفسه.

قلت: اسكتي يا جوانا، إن الأنسة ماربل تفهمني.

استأنفت الأنسة ماربل حياكتها بالصنارة، ثم قالت بتأمل حزين: أتعلم؟ إن ارتكاب جريمة قتل ناجحة لا بد أن يشبه كثيراً تنفيذ حيلة من حيل السحر.

- أتعنين أن خفة اليد وسرعتها تخدع العين؟

- ليس ذلك فقط، بل عليك أن تجعل الناس ينظرون إليّ

الشيء غير الصحيح وفي المكان غير الصحيح. شيء من قبيل التوجيه الخاطئ لانتباه الناس.

قلت: حتى هذه اللحظة يبدو أن الجميع نظروا إلى المكان الخطأ بحثاً عن مجرمنا المجنون.

قالت الآنسة ماربل: من شأني -أنا شخصياً- أن أميل للبحث عن شخص عاقل جداً.

قلت متأملاً: نعم، هذا ما قاله ناش، وأذكر أنه شدّد على أنه شخص محترم أيضاً.

وافقت الآنسة ماربل قائلة: نعم. هذا مهم جداً.

وبدا أننا جميعاً وافقنا على هذا الرأي، ثم خاطبت السيدة كالثروب قائلاً: يرى المفتش ناش أننا سنشهد المزيد من الرسائل المجهولة. ما رأيك؟

قالت ببطء: أحسب أن هذا قد يحدث.

قالت الآنسة ماربل: إذا كان الشرطة يظنون ذلك فسيكون الأمر كما يظنون.

توجهت بإصرار إلى السيدة كالثروب قائلاً: أما زلتِ تشفقين على كاتب تلك الرسائل؟

احمرّ وجهها وقالت: ولمَ لا؟

قالت الآنسة ماربل: لا أظنني أوافقك الرأي يا عزيزتي، ليس في هذه القضية.

قلت متحمساً: لقد دفعت تلك الرسائل امرأة إلى الانتحار
وتسببت في بؤس وحسرة لا يوصفان!

سألت الأنسة ماربل جوانا: هل تلقيت واحدة يا آنسة بيرتن؟
قهقهت جوانا وقالت: آه، نعم! وقد ذكرتُ أموراً مخيفة
جداً.

قالت الأنسة ماربل: أخشى أن يكون كاتب الرسائل أكثر ميلاً
لانتقاء من يتمتعون بالشباب والجمال.

قلت: هذا ما يجعلني أستغرب من استثناء إلسي هولاند من
تلقي أية رسالة.

قالت الأنسة ماربل: انتظر لحظة! أتعني مربية الأطفال التي
تعمل مع عائلة سيمينغتن، الفتاة التي حلمت بها يا سيد بيرتن؟
- نعم.

قالت جوانا: ربما تلقت واحدة ولكنها لا تريد الاعتراف.

قلت: لا، إنني أصدقها، وكذلك ناش.

قالت الأنسة ماربل: يا إلهي! هذا مثير جداً. إنه أكثر ما سمعته
إثارةً حتى الآن!

- ٢ -

فيما كنا عائدين إلى البيت أخبرني جوانا أنني أخطأت إذ
كررت ما قاله ناش بخصوص استلام المزيد من الرسائل. سألتها:
لماذا؟

- لأن السيدة كالشروب قد تكون الفاعلة.

- أتصدقين ذلك حقاً؟

- لست متأكدة، فهي امرأة غريبة الأطوار.

عدنا إلى مناقشة الاحتمالات من جديد.

بعد ذلك بليتين كنت عائداً بالسيارة من إيكزامبتن. كنت قد تناولت العشاء هناك ثم انطلقت عائداً بحيث لم أصل إلى لايمستوك إلا وقد خيم الظلام. وقد أصاب أنوارَ السيارة عطبٌ ما، فبطأت السرعة وحاولت إطفاء الأنوار وإشعالها ثانية، ثم أوقفت السيارة وخرجت منها لرؤية ما يمكن فعله، وبقيت أعبث بها فترة من الوقت إلى أن نجحت أخيراً في إصلاحها.

كان الطريق خالياً تماماً، فلم يكن أحد يخرج من لايمستوك بعدما يخيم الظلام. كانت أمامي مباشرة أول بيوت البلدة، ومن ضمنها ذلك المبنى الكريه لجمعية المرأة. كان يلوح من بعيد منتصباً في ضوء النجوم الخافت، ودفعتني شيء في داخلي لأن أذهب وألقي نظرة عليه. لا أدري إن كنت قد لمحت بشكل غير مؤكد ما بدا لي شخصاً دخل البوابة خلسة. ولئن كان الأمر كذلك فقد كان ذلك الانطباع واهياً لدرجة لم ينطبع معها في عقلي الواعي، ولكنني شعرت فجأة بنوع من الفضول الطاغى إزاء هذا المبنى.

كانت البوابة مفتوحة قليلاً فدفعتها ودخلت، ورأيت أمامي ممراً قصيراً وأربع درجات تؤدي إلى باب المبنى. وقفت هناك لحظة متردداً، ما الذي كنت أفعله حقاً؟ لم أعرف، وفجأة سمعت

بقربي صوتٌ حفيف، بدأ أشبه بصوت ثوب امرأة. درتُ بسرعة
وذهبت إلى زاوية المبنى حيث كان مصدر الصوت.

لم أستطع رؤية أحد، فواصلتُ سيرى وانعطفت عند زاوية
أخرى. أصبحت الآن عند خلفية البيت، وفجأة رأيت نافذة مفتوحة
على بعد قدمين مني فقط. زحفت أسفلها وأصغيت. لم أستطع
سماع شيء، ولكنني أحسست -بشكل ما- بأنني مقتنع بوجود
شخص في الداخل.

لم يكن ظهري قد غدا صالحاً بعد للألعاب الهوائية، ولكنني
تمكنت من رفع نفسي والقفز إلى الداخل، وقد أحدثتُ حركتي
هذه صوتاً لسوء الحظ. وقفت أمام النافذة مصغياً، ثم سرت إلى
الأمام ويدي ممدودتان أمامي. وسمعت صوتاً خافتاً جداً أمامي
إلى جهة اليمين.

كنت أحمل في جيبى كشافاً صغيراً فأضأته، وعلى الفور
سمعت صوتاً خافتاً يقول بحدة: أطفئ هذا! وأطعته فوراً لأنني
أدركت في تلك اللحظة القصيرة أنه كان المفتش ناش.

شعرت به يمسكني من ذراعي ويدفعني من خلال الباب
إلى ممر، وهناك -حيث لا توجد نافذة تفضح وجودنا أمام أحد
من الخارج- أضأ المفتش كشافاً ونظر إليّ نظرة تعبر عن الحزن
أكثر مما تعبر عن الغضب، ثم قال: أكان يجب أن تتدخل في هذه
اللحظة بالذات يا سيد بيرتن؟

اعتذرت له قائلاً: أنا آسف، ولكن انتابني إحساس داخلي
بأنني سأعثر على شيء ما.

- وربما كنت ستعثر على شيء بالفعل. هل رأيت أحداً؟

ترددت ثم قلت ببطء: لست متأكداً. كان لديّ إحساس غامض بأنني رأيت شخصاً يتسلل من البوابة الأمامية، لكنني لم أرَ أحداً رؤية محققة، ثم سمعت صوت خفيف عند جانب البيت.

أوماً ناش برأسه وقال: هذا صحيح، جاء شخص خلف البيت قبلك. وقد تردد قليلاً عند النافذة ثم ذهب بسرعة... فقد سمعك كما أظن.

اعتذرت له ثانية وسألته: ما هو الموضوع؟

- إنني أراهن على الفرضية القائلة إن من يكتب مثل هذه الرسائل لا يستطيع التوقف عن كتابتها. ربما كانت كاتبها على علم بخطورة ما تفعله، ولكنها ستضطر لفعله. إنه أشبه بالإدمان على الشراب أو المخدرات.

أومات برأسي فمضى قائلاً: لذلك أتصور أن كاتبة هذه الرسائل -كائنة من تكون- ستحرص على أن تبقى الرسائل على نفس النمط قدر الإمكان. لقد انتزعت تلك الصفحات من ذلك الكتاب ويمكنها الاستمرار في استخدام الحروف والكلمات بعد قصها من تلك الصفحات، ولكن المغلفات تمثل لها صعوبة، إذ سيتعين عليها أن تطبعها على نفس الآلة الكاتبة. لا تستطيع المجازفة باستخدام طابعة أخرى أو باستخدام خط يدها.

سألته غير مصدق: أعتقد حقاً أنها ستواصل نفس اللعبة؟

- نعم، وأراهنك بأي شيء تريده على أنها واثقة جداً بنفسها.

إن أمثال هذه المرأة يملؤهم الغرور، لذلك تصورت أن الفاعلة ستأتي إلى الجمعية بعد أن يحل الظلام حتى تستخدم الآلة الكاتبة.

قلت: الأنسة غينش؟

- ربما.

- ألم تعرف بعد؟

- لا أعرف.

- ولكنك تشكّ؟

- نعم، ولكن الفاعل شديد المكر ياسيد بيرتن، إنه يعرف جميع أساليب اللعبة.

تخيلت الشبكة التي نشرها ناش على اتساعها، وتوقعت أن كل رسالة يكتبها مشبوه ويضعها في البريد أو يسلمها باليد ستفتش حتماً. سوف يزداد الجاني إهمالاً فتزلّ قدماه عاجلاً أو آجلاً.

اعتذرت للمرة الثالثة عن وجودي الحماسي غير المرغوب فيه، فقال ناش بأسلوب فلسفي: حسناً، هذا ما لم يكن بالإمكان تفاديته. حظاً أفضل في المرة القادمة.

خرجت إلى عتمة الليل فرأيت ظل شخص يقف إلى جانب سيارتي، ولشدة دهشتي أدركت أنها ميغان. قالت: مرحباً، توقعت أن هذه سيارتك. ما الذي كنت تفعله؟

- الأخرى أن أسأل أنا ما الذي تفعلينه أنت.

- خرجت أتمشى، فأنا أحب المشي في الليل حيث لا أحد

يوقفك ويتحدث معك بحديث سخيف. كما أنني أحب النجوم،
ورائحة الأشجار تكون أزكى، وتبدو الأمور اليومية الاعتيادية
أكثر سحراً.

- أسلم معك بصحة هذا كله، ولكن القلط والساحرات
فقط هنّ اللاتي يخرجن في الظلام، وسوف يتساءل أهل البيت
عن مكانك.

- لا، لن يتساءلوا. إنهم لا يتساءلون أبداً عن مكاني.

- كيف تسير أمورك؟

- أظنها على ما يرام.

- هل تهتم بك الأنسة هولاند وترعاك؟

- إلسي لا بأس بها، لا يسعها إلا أن تكون مغفلة تماماً.

- إنه وصف فظ، ولكنه ربما كان صحيحاً. اركبي حتى

أوصلك إلى البيت.

لم يكن صحيحاً أن أحداً لا يفتقد ميغان، فقد كان سيمنغن
واقفاً على عتبة الباب عندما وصلنا. نظر باتجاهنا وقال: مرحباً،
هل ميغان معك؟

- نعم، لقد أحضرتها إلى البيت.

قال سيمنغن بحدّة: لا ينبغي لك أن تخرجي هكذا دون أن
تخبرينا يا ميغان، لقد قلقت الأنسة هولاند عليك كثيراً.

تمتت ميغان بكلمات غير مفهومة وهي تعبر أمامه وتدخل

البيت ، وتنهد سيمنغن قائلاً: إن البنت البالغة مسؤولة عظيمة
عندما لا تكون عندها أم ترعاها، وأحسبها كبرت على المدرسة.
ثم نظر إليّ بشيء من الارتياح وقال: هل أخذتها معك في
نزهة بالسيارة؟

وفضّلت أن أترك السؤال بلا جواب.

* * *

الفصل الحادي عشر

- ١ -

في اليوم التالي جُننت تماماً! وإذ أتذكر الآن هذا الأمر فإنني لا أجد حقاً إلا هذا التعبير لوصف ما صنعتته.

كان موعد الزيارة الشهرية للدكتور ماركوس كنت فسافرت إلى لندن بالقطار، ولشدة دهشتي اختارت جوانا البقاء في البيت، مع أن من عاداتها دائماً أن تحرص على مرافقتي حيث نبقي هناك بضعة أيام. واعتزمتُ هذه المرة العودة في اليوم نفسه في قطار المساء. وقد شعرت بالدهشة من جوانا التي اكتفت بالقول بطريقة مبهمّة إن لديها الكثير من العمل لتقوم به، وتساءلتُ لماذا عساها تقضي ساعات في قطار رديء مزدحم بينما كان الجو رائعاً في الريف.

كان ذلك بالطبع أمراً لا يمكن إنكاره، ولكنه بدا مخالفاً لطبيعة جوانا. قالت إنها لا تريد السيارة، فيمكنني الذهاب بها إلى المحطة وتركها هناك لحين عودتي.

تقع محطة لايمستوك - لسبب لا يعرفه أحد سوى شركة السكك الحديدية - على مسافة نصف ميل من لايمستوك نفسها.

وفي طريقي إلى المحطة رأيت ميغان تسير على غير هدى. توقفت
وقلت: مرحباً، ماذا تفعلين؟

- خرجت لأتمشى فقط.

- ولكني أرى أن مشيك ليس بالمشي الرشيق السريع، إنك
تمشين زحفاً كسرطان الماء الحزين.

- ذلك لأنني لا أقصد مكاناً محدداً بذاته.

- إذن يمكنك أن تأتي لتوديعي في المحطة.

فتحت باب السيارة، فقفزت ميغان فيها وسألتني: إلى أين
أنت ذاهب؟

- إلى لندن، لرؤية طيبي.

- هل تدهورت حالة ظهرك؟

- لا، لقد عاد طبيعياً الآن، وأتوقع أن يُسرّ الطيب بذلك
كثيراً.

أومأت ميغان برأسها وقدت السيارة وصولاً إلى المحطة،
وهناك أوقفها ودخلت المحطة واشترت تذكري من شباك حجز
التذاكر. كان على الرصيف عدد قليل جداً من الناس ولم يكن
بينهم من أعرفه. قالت ميغان: هل تمانع في إقراضي بنساً؟ أريد
أن أشتري قطعة من الشكلاطة من تلك الآلة.

قلت وأنا أسلمها القطعة النقدية المطلوبة: هاك يا طفلي.
أنت واثقة أنك لا تريدين أيضاً علكة أو أقراص الحلق المرطبة؟

قالت دون أن تنتبه لسخريتي: أحب الشكلاطة أكثر.

مشت إلى الآلة، ونظرت إليها وهي ذاهبة بشعور من الغيظ المتنامي. كانت تتعل حذاء بالياً فوق جوارب خشنة قبيحة المنظر وترتدي بلوزة وتنورة لا شكل لهما.

لا أعرف لماذا أغازني كل هذا، ولكنه أغازني فعلاً. وعندما عادت قلت غاضباً: لماذا تلبسين هذه الجوارب المخزية؟

نظرت ميغان إلى جواربها مدهوشة وقالت: وما العيب فيها؟

- كل العيب فيها، إنها كريهة! ولماذا ترتدين كنزة كأنها رأسٌ ملفوف فاسد؟

- لا بأس بها، فهي عندي منذ سنوات.

- هذا واضح تماماً. ولماذا أنت...

في تلك اللحظة وصل القطار فقطع عليّ محاضرتي الغاضبة. دخلت مقصورة خالية في الدرجة الأولى، وأنزلت النافذة وأخرجت رأسي منها لأكمل الحديث وقد وقفت ميغان أسفل مني ووجهها إلى أعلى.

سألني عن سبب غضبي، فقلت غير صادق: لست غاضباً، إنما شعرت بالغيظ لأنني أراك كسولة ولا تهتمين بمظهرك.

- لا يمكن أن أبدو بمظهر حسن على أي حال، فما أهمية ذلك إذن؟

- يا إلهي! أريد أن أراك بشباب جيدة. بودي أن آخذك إلى

لندن وأكسوك من رأسك حتى قدميك.

قالت: ليتك تفعل!

بدأ القطار يتحرك، ونظرت إلى وجه ميغان الكئيب، وعندها انتابني الجنون كما قلت: فتحت الباب وأمسكت بميغان بذراع واحدة ورفعتها إلى المقصورة بسرعة!

أطلق الحمال صيحة غاضبة، ولكن كل ما استطاع فعله هو إغلاق الباب مرة أخرى بطريقة بارعة. وساعدت ميغان لتنهض عن أرض القطار، فسألته وهي تمسح ركبتهما: لماذا فعلت ذلك بالله عليك؟

- اسكتي. ستأتين معي إلى لندن، وعندما أفرغ من أمرك لن تعرفي نفسك! سأريك كيف يمكنك أن تظهرى لو حاولت الاهتمام بنفسك، لقد سئمت من رؤيتك تتسكعين بملابس رثة.

أطلقت ميغان آهة هامسة تملؤها النشوة. وجاء محصل التذاكر فاشترت لها تذكرة ذهاب وعودة، وجلست في زاويتها تنظر إليّ بنوع من الرهبة والاحترام. وعندما ذهب الرجل قالت: أرى أنك ممن يتصرفون من وحي اللحظة، أليس كذلك؟

- تماماً، إنها إحدى الصفات المتوارثة في عائلتنا.

كيف أشرح لميغان ذلك الإحساس المفاجئ الذي انتابني؟ كانت قد بدت أشبه بكلب حزين تركه صاحبه وراءه، وهي الآن تظهر من البهجة المستغربة ما يظهره الكلب إذ قرر صاحبه اصطحابه أخيراً.

قلت لها: لا أحسبك تعرفين لندن جيداً، أليس كذلك؟

- بل أعرفها. كنت أمر بها دائماً حين كنت أذهب إلى المدرسة، كما أنني راجعت طبيب أسنان فيها وذهبت مرة لإحدى المسرحيات.

- هذه المرة ستكون لندن مختلفة.

وصلنا قبل نصف ساعة من مواعيدي مع الطبيب في شارع هارلي، فركبنا سيارة أجرة وذهبنا إلى متجر ميروتين للأزياء الذي تتعامل جوانا معه. كانت صاحبة محل ميروتين امرأة مرحة غير تقليدية في الخامسة والأربعين من عمرها اسمها ماري غري، وهي امرأة ذكية حلوة المعشر، وقد كنت معجباً بدوقها دائماً.

قلت لميغان: أنت ابنة عمي.

- لماذا؟

- لا تجادلي.

في المتجر كانت ماري غري تخدم فتاة بدينة تصرّ على شراء ثوب سهرة ضيق أزرق اللون كانت قد افتتنت به. اقتربت من ماري غري وأخذتها جانباً وقلت: اسمعيني، لقد أحضرت ابنة عم لي. كانت جوانا ستأتي ولكن أمراً منعها فقالت إن بإمكانني ترك الأمر لك. هل ترين كيف تبدو الفتاة الآن؟

قالت ماري غري بانفعال: يا إلهي! إنني أراها بالطبع.

- حسناً، أريد أن تقلبي مظهرها رأساً على عقب ومن

جميع النواحي. لك مطلق الصلاحية لتجهيزها بكل ما تريدين.
جوارب، أحذية، ملابس داخلية، كل شيء! على فكرة، المحل
الذي يصف شعرا جونا قريبا من هنا، أليس كذلك؟

- إنه عند الزاوية. سأتدبر هذا الأمر أيضاً.

- أنت امرأة بألف امرأة!

- آه، سأستمتع بهذا الأمر بغض النظر عن المال... مع
أن المال لا يمكن الاستهانة به هذه الأيام. إن نصف البهائم من
زبوناتى لا يدفعن فواتيرهن أبداً. ولكن كما قلت، سوف أستمتع
بهذا الأمر.

نظرت إلى ميغان نظرة محترفة سريعة وهي تقف بعيداً عنا
وقالت: إن لها شكلاً جميلاً.

- لا بد أن لك عينين أنفذ من الأشعة السينية، فأنا لا أرى
لها أي شكل.

ضحكت ماري غري وقالت: لا تقلق، دع الأمر لي.

- حسناً، سأعود لاصطحابها في الساعة السادسة تقريباً.

- ٢ -

سُرَّ ماركوس كُنْتُ بحالتي الصحية وأخبرني أنني تجاوزت
أفضل توقعاته، ثم قال: لا بد أن لك بُنية فيل حتى استعدت
صحتك بهذه السرعة. يا له من رائع ذلك التأثير الذي يتركه على
المرء هواء الريف وعدم التأخر في السهر أو التعرض لانفعالات...

إن هو استطاع الالتزام بذلك.

- أوافقك على أول اثنتين، ولكن لا تحسب أن الريف خلو من الانفعالات، فلدينا الكثير منها في منطقتنا.

- أي نوع من الانفعالات؟

- جرائم قتل مثلاً.

زّمّ ماركوس كنت شفّتيه وصفر قائلاً: أهي مأساة حب ريفية؟
صبي مزارع يقتل فتاته مثلاً؟

- أبدأ، بل قاتل مخادع مصمم مجنون.

- لم أقرأ عن ذلك شيئاً. متى اعتقلوه؟

- لم يعتقلوه، كما أنها أنثى!

- يا إلهي! لست واثقاً أن لايمستوك هي المكان المناسب
لك أيها الفتى.

قلت بصلافة: بل هي كذلك، ولن تستطيع إخراجه منها.

- هكذا إذن؟ أو قد وجدت حسناء هناك؟

قلت وأنا أفكر بإلسي هولاند بشيء من الشعور بالذنب:
إطلاقاً، كل ما في الأمر أن سيكولوجية الجريمة تثير اهتمامي.

- آه، لا بأس. من المؤكد أنها لم تؤذك حتى الآن، ولكن
تأكد فقط أن مجرمك المجنونة لن تقتلك أنت.

- لا خوف من هذا.

- ما رأيك بالعشاء معي الليلة؟ يمكنك أن تخبرني كل شيء عن جريمتك تلك.

- أعتذر، فأنا محجوز.

- موعد مع سيدة؟ نعم، أنت تتقدم بالتأكيد.

قلت وقد أعجبني تخيّل ميغان وهي تقوم بذلك الدور: أحسب أن بوسعك أن تسميها هكذا.

- ٣ -

وصلتُ محل ميروتين الساعة السادسة، وهو موعد الإغلاق الرسمي للمحل. جاءت ماري غري لاستقبالي عند أعلى الدرج خارج غرفة العرض، وقالت وقد وضعت أصبعها على شفيتها: ستصاب بالصدمة! ولو صح أن أمدح نفسي لقلت إنني أنجزت عملاً رائعاً.

ذهبت إلى غرفة العرض الكبيرة. كانت ميغان تقف وتنظر إلى نفسها في مرآة طويلة، وأصدقكم القول بأنني لم أكد أعرفها، فقد أدهشني منظرها للحظات! بدت طويلة رشيقة بملابس أنيقة وجوارب حريرية وحذاء جميل. رأيت الجودة والتميز في كل التفاصيل، وقد هُذّب شعرها وُصّف ليناسب رأسها، وكان يلتمع كحبة الكستناء. وقد كان لهم من الذوق ما جعلهم يتركون وجهها على حاله، بلا مساحيق أو أحمر شفاه.

نظرت إليّ باحتشام وهي تبسم ابتسامة خَجَلَة وقالت: إنني أبدو... أبدو حسنة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- حسنة؟! إن هذه الكلمة لا تكفي لوصفك! تعالي نذهب إلى العشاء وسوف أدهش إن لم يلتفت إليك كل الرجال. ستقهرين كل الفتيات!

لم تكن ميغان بالغة الجمال، ولكنها كانت ذات مظهر أسر غير عادي، كانت ذات شخصية. دخلت المطعم تتقدمني، وأسرع النادل إلينا يدعونا للجلوس على مائدة مناسبة. وبعدها تناولنا العشاء قالت ميغان: أليس هذا الطعام رائعاً؟ وكل شي!
ثم تنهدت مسرورة فقلت: إنه نفس شعوري بالضبط.

كانت أمسية جميلة، وفجأة قالت ميغان بارتياح: ألا يجب أن نعود إلى البيت؟

فتحت فمي دهشة. بلى، كنت مستغرقاً تماماً بحيث نسيت كل شيء. صحت: يا إلهي! فقد أدركت أن آخر قطار قد غادر. قلت: ابقني هنا، أنا ذاهب للاتصال بالهاتف.

اتصلت بشركة لوبلين لتأجير السيارات وطلبت أن يرسلوا لنا أكبر وأسرع سيارة عندهم وبأسرع وقت ممكن، ثم عدت إلى ميغان وقلت لها: لقد غادر آخر القطارات لهذا اليوم، لذلك سنعود إلى البيت بالسيارة.

- أحقا؟ يا لها من متعة!

رأيتُ كم كانت طفلة لطيفة؛ يسرّها كل شيء، لا تجادل وتقبل كل اقتراحاتي دون ضجة أو تذمر. وصلت السيارة، وكانت كبيرة وسريعة، ومع ذلك لم نصل إلى لايمستوك إلا في وقت

متأخر جداً. قلت وقد شعرت فجأة بوخز الضمير: لا بد أنهم أرسلوا فرق تفتيش للبحث عنك!

لكن ميغان بدت في مزاج هادئ وقالت على نحو غامض: آه، لا أظن ذلك، فأنا غالباً ما أخرج ولا أعود إلى البيت على الغداء.

- نعم يا عزيزتي، ولكنك غبت طوال النهار وتخلّفت عن العشاء أيضاً.

حالف الحظ ميغان، فقد كان البيت مظلماً وساكناً، وبناء على نصيحتها درنا خلف البيت وألقينا بعض الحصى على نافذة غرفة روز.

وأخيراً أطلت روز من النافذة، وبعد الكثير من تعابير الدهشة المكبوتة والانفعال نزلت لتدخلنا إلى البيت قائلة: ها أنت هنا الآن؟ وأنا التي قلت إنك نائمة في فراشك. خرج سيدي مع الأنسة هولاند (قامت بحركة ازدراء عند ذكر الأنسة هولاند). تناولا العشاء مبكراً وذهبا في نزهة بالسيارة، وقد قلت لهما إنني سأهتم بأمر الولدين. وظننت أنني سمعتك تدخلين عندما كنتُ في غرفة الأطفال لإسكات كولين الذي كان يلعب في الغرفة، ولكنك لم تكوني موجودة عندما نزلت فظننتُ أنك ذهبت إلى فراشك، وهذا ما قلته عندما جاء سيدي وسأل عنك.

قطعت الحديث لأقول إن من الأفضل لميغان أن تأوي إلى فراشها الآن. قالت ميغان: طابت ليلتك، وأشكرك شكراً لا حدود له. كان هذا أروع يوم في حياتي.

عدت بالسيارة إلى البيت وأنا ما زلت أشعر بالسعادة، ودفعت للسائق إكرامية كبيرة وعرضت عليه أن ينام عندنا إن شاء، لكنه فضل أن يعود إلى لندن في الليل.

كان باب الصلاة قد انفتح أثناء حديثنا، وعندما انطلق بسيارته أطلت جوانا وقالت: إذن فقد عدت أخيراً؟

دخلتُ وأغلقت الباب خلفي وقلت: هل قلقتِ علي؟

ذهبتِ جوانا إلى غرفة الاستقبال وتبعتهَا. كان إبريق القهوة موضوعاً على الطاولة فصبت جوانا فنجانين من القهوة لي ولها ثم قالت: قلقتُ عليك؟ لا، لم أفعل بالطبع. ظننت أنك قررت البقاء في المدينة وقضاء سهرة حافلة.

قلت: لقد قضيت سهرة حافلة... من نوع ما.

ابتسمت ثم بدأت أضحك، فسألته جوانا عن سبب ضحكها فأخبرتها بما جرى، فقالت: ولكن يا جيري! لا بد أنك كنت مجنوناً، مجنوناً تماماً.

- أظنني كنت كذلك.

- ولكنك لا تستطيع صنع أشياء كهذه يا طفلي العزيز، ليس في مثل هذا المكان! سيبتشر الخبر في كل أنحاء لايمستوك غداً.

- أظنه سيبتشر بالفعل، ولكن ميغان مجرد طفلة في نهاية الأمر.

- ليست طفلة، إنها في العشرين. لا يمكنك أن تأخذ فتاة في العشرين إلى لندن وتشتري لها ملابس دون إحداث فضيحة كبيرة.

يا إلهي ، ربما اضطررتَ للزواج بالفتاة!

كانت جوانا تخلط الجِدَّ بالهزل. وفي تلك اللحظة وصلتُ
إلى اكتشاف مهم جداً، فقد قلت: تَباً لذلك كله! أنا لن أمانع في
الزواج بها... بل إنني سأحبه في الحقيقة.

ظهرت على وجه جوانا ملامحُ غريبة جداً. ثم نهضت وقالت
بشيء من الواقعية وهي تتجه نحو الباب: نعم، لقد عرفت ذلك
منذ بعض الوقت.

تركنتي وفنجانني بيدي واقفاً مشدوهاً باكتشافي الجديد.

* * *

الفصل الثاني عشر

- ١ -

لا أعرف ماذا ينبغي لرجل يعتزم الزواج أن تكون أحاسيسه. في الروايات يكون حلقه جافاً ويشعر أن ياقته تضيق على رقبته كثيراً ويكون في حالة عصبية يرثى لها، ولكني لم أشعر بشيء من ذلك على الإطلاق. فبعد أن وصلت إلى فكرة جيدة عازمت أمري على تنفيذها وتسويتها في أسرع وقت ممكن، ولم أر أي سبب خاص يدعو للارتباك.

ذهبت إلى بيت سيمينغتن في نحو الساعة الحادية عشرة وقرعت الجرس، وعندما جاءت روز سألت عن الأنسة ميغان، وكانت النظرة العارفة التي نظرت بها روز إليّ هي أول ما جعلني أشعر بشيء من الخجل. أدخلتني إلى غرفة الصباح الصغيرة، وفيما كنت أنتظر هناك تمنيت أن لا يكونوا قد ضايقوا ميغان.

عندما فُتح الباب والتفتُ لأنظر ارتحت على الفور. لم تبدُ ميغان متحفظة أو متضايقة على الإطلاق، وكان رأسها ما يزال كما هو ككستناء لامعة، وكانت تجلجلها تلك الكبرياء واحترام الذات الذي اكتسبته بالأمس. كانت في ملابسها القديمة مرة أخرى،

ولكنها تمكنت من جعل تلك الملابس تبدو مختلفة. أمر رائع ما يفعله بالفتاة علمها بحقيقة جاذبيتها! وأدركت فجأة أن ميجان قد نضجت.

أظن أنني كنت عصبي المزاج قليلاً دون ريب، وإلا لما افتتحت معها الحديث قائلاً: "مرحباً أيتها القطة!" إذ لا تكاد هذه العبارة تكونه تحية مُحِب في مثل تلك الظروف.

ولكن بدا أنها أعجبت ميجان. فقد ابتسمت وقالت: مرحباً!

- أرجو أن لا تكوني قد تعرضت لمشكلة بخصوص الأمس؟

قالت ميجان بثقة: آه، لم يحصل شيء من هذا.

ثم طرفت عيناها وقالت بشكل غامض: بلى، أظن أنني خضت شجاراً. أقصد أنهم قالوا أشياء كثيرة وبدا أنهم رأوا الأمر غريباً جداً، ولكنك تعرف طبيعة الناس والضجة التي يفتعلونها من لا شيء.

ارتحت عندما وجدت أن الاستياء والصدمة لم يؤثرا فيها أبداً، وقلتُ لها: جئت هذا الصباح لأن عندي اقتراحاً أريد طرحه. أنت تعلمين أنني أحبك كثيراً، وأعتقد أنك تحبينني.

قالت ميجان بحماسة شديدة: كثيراً.

- كما أننا ننسجم معاً جيداً، لذلك أرى أنها ستكون فكرة جيدة لو تزوجنا.

- آه.

بدت عليها الدهشة، الدهشة فقط. لم تجفل من قولي ولم

تُصَبُّ بالصدمة، مجرد دهشة معتدلة. ثم سألت بأسلوبٍ مَنْ يريد
استيضاح الأمر استيضاحاً تاماً: أتعني أنك تريد الزواج بي حقاً؟

قلت وأنا أعني ما أقول: أريد ذلك أكثر من أي شيء آخر.

- تقصد... أنك تحبني؟

- نعم، أنا أحبك.

كانت عيناها ثابتتين وهادئتين، وقالت: أعتقد أنك ألطف
إنسان في العالم، ولكنني لا أحبك.

- سأحملك على أن تحبيني.

- لن ينفذ هذا، فأنا لا أريد أن أُحمَل على الحب.

سكتت ثم قالت بجِدِّ شديد: لا أظن أنني من النوع الذي
يصلح زوجة لك، فأنا أتقن الكراهية أكثر مما أتقن الحب.

قالت ذلك بعمق وتركيز غريبيين، فقلت: الكراهية لا تدوم،
أما الحب فيدوم.

- هل هذه حقيقة؟

- هذا ما أعتقد.

مرة أخرى ساد الصمت، وأخيراً قلت: ردك إذن هو «لا»؟

- نعم، إنه لا.

- وأنت لا تنصحيني بالإبقاء على الأمل؟

- وما فائدة الأمل؟

وافقتها قائلاً: لاشيء إطلاقاً، مجرد تسويق، لأنني سأستمر
في الأمل سواء نصحتني به أم لا.

- ٢ -

حسناً، هذا ما كان. غادرت البيت وأنا أشعر بشيء من
الذهول، ولكنني كنت واعياً لنظرات روز التي لاحقتني بكثير من
الاهتمام.

كان لدى روز الكثير مما تقوله لي قبل أن أستطيع الإفلات.
قالت إنها لم تعد تشعر بأن الأمور على ما كانت عليه منذ ذلك اليوم
المرعب، وإنها ما كانت لتبقى لولا الأطفال وشعورها بالأسف
على السيد سيمنغن المسكين، وإنها لن تبقى إلا إذا جيء بخادمة
أخرى بسرعة، ومن غير المحتمل أن تأتي خادمة إلى بيت وقعت
فيه جريمة قتل. وقالت إن الأنسة هولاند كانت في غاية اللطف
عندما قالت إنها ستقوم بتدبير المنزل حتى قدوم خادمة بديلة.
كانت لطيفة جداً وخدمومة، نعم، ولكنها تتصور أنها ستكون سيدة
البيت في يوم من الأيام! إن السيد سيمنغن المسكين لا يرى
شيئاً على الإطلاق، ولكن المرء يعرف كيف تكون حالة الأرملة،
مخلوق بائس مسكين وضعته الظروف فريسة لكيد امرأة. وإن من
المؤكد أن فشل إلسي هولاند في الحلول محل السيدة سيمنغن
-إذا ما حصل- لن يكون سببه قلة المحاولة من طرفها.

وافقتها على كل شيء بطريقة آلية وأنا متشوق للهروب منها،
ولكنني لم أستطع ذلك لأن روز كانت ممسكة بقبعتي وهي ماضية
في صب مناكفاتها. وتساءلت إن كان فيما قالته أي نوع من الحقيقة.

هل تافت إلسي هولاند لأن تصبح الزوجة الجديدة لسيمنغتن؟ أم أنها فتاة طيبة القلب تبذل ما بوسعها للعناية بأسرة حلت بها مصيبة؟

ربما كانت النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. ولمَ لا؟ إن طفلي سيمنغتن الصغيرين يحتاجان إلى أم، وإلسي كانت امرأة محترمة، إلى جانب كونها جميلة بدرجة تخرج عن حدود الاحترام، وهي صفة قد تعجب الرجل، حتى وإن كان رجلاً محترماً كسيمنغتن.

أعرف أنني كنت أفكر بهذا كله لأحاول تجنب التفكير بأمر ميغان. وربما قال أحدهم إنني ذهبت لميغان طالباً منها الزواج بي بعقلية فيها الكثير من الرضا عن الذات والثقة بالنفس وإنني أستحق ما حصل. ولكن الأمر لم يكن كذلك في الحقيقة، كان لأنني شعرت بثقة كبيرة وبشكل مؤكد بأن ميغان كانت لي أنا، وأنها كانت شأنًا من شؤوني، وأن عنايتي بها وإسعادها وتجنبيها الأذى هو طريقة الحياة الطبيعية الوحيدة أمامي، وأنني توقعت منها أن تشعر هي أيضاً بأننا متناسبان. لكنني لم أكن لأستسلم. نعم، إن ميغان هي فتاتي وسوف أحصل عليها!

بعد لحظات من التفكير ذهبت إلى مكتب سيمنغتن. قد لا تلتفت ميغان إلى الانتقادات الموجهة لسلوكها، ولكنني أحببتُ تقويم الأمور. قيل لي إن السيد سيمنغتن غير مشغول فدخلت عليه، وقد فهمت من زمة شفثيه والتصلب الإضافي في سلوكه أنني لا أحظى بالكثير من الترحيب في تلك اللحظة.

قلت: صباح الخير. أخشى أن لا تكون هذه زيارة عمل، بل زيارة شخصية. سأطرح الموضوع بكل وضوح. أظنك أدركت

- بلا ريب - أنني أحب ميغان، وقد طلبت منها الزواج بي ولكنها رفضت، إلا أنني لا أعتبر رفضها هذا نهائياً.

رأيت ملامح سيمينغتن تتغير وأدركت ما يدور في ذهنه بسهولة، فقد كانت ميغان عنصر نشاز في بيته. وشعرت - واثقاً - أنه رجل مُنصف لطيف، وما كان ليفكر أبداً في الامتناع عن تقديم السكن لابنة زوجته المتوفاة، ولكن زواجها بي سيكون مصدر راحة له بالتأكيد.

انحسرت صرامة ملامحه وابتسم لي ابتسامة باهتة حذرة وقال: أنت تعرف يا بيرتن أنني - بصراحة - لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أعرف أنك كنت توليها الكثير من عنايتك، ولكننا كنا دائماً نعتبرها طفلة.

قلت باقتضاب: ولكنها ليست طفلة.

- نعم، ليس من ناحية العمر.

قلت وما زال بي شيء من الغيظ: إنها تستطيع التصرف وفق عمرها الصحيح في أي وقت يُسَمَح لها فيه بذلك. أعرف أنها لم تبلغ الحادية والعشرين (الذي يُعتبر سن النضوج والاستقلالية من الناحية القانونية) ولكنها ستبلغ هذا العمر بعد شهر أو اثنين. سأعطيك كل المعلومات التي تريدها عني: أنا في وضع مالي جيد، وقد كانت حياتي شريفة تماماً، وسأهتم بميغان وأفعل كل ما أستطيعه لجعلها سعيدة.

- تماماً، تماماً. ومع ذلك فإن الأمر يرجع لميغان نفسها.

- ستقتنع مع مرور الوقت ، ولكنني أحببت فقط أن أصارحك
بهذا الأمر.

قال إنه يقدر هذا الموقف ، ثم افترقنا ودياً.

- ٣ -

صادفتُ إميلي بارتن في الخارج ، وكانت تحمل سلة
مشتريات بيدها. قالت: صباح الخير يا سيد بيرتن. سمعت أنك
ذهبت إلى لندن بالأمس.

نعم ، لقد سمعتُ ذلك دون شك! رأيتُ أن الرقة بادية
في عينيها ، ولكنهما كانتا مليئتين بالفضول. قلت: نعم ، ذهبت
لمراجعة طبيبي.

ابتسمت الآنسة إميلي وتمتت قائلة: سمعت أن ميغان كاد
يفوتها القطار ، وقد قفزت إليه وهو يتحرك.

- بمساعدتي أنا ، أنا الذي سحبتها إليه.

- كم كنتَ محظوظاً ، وإلا لوقع حادث.

غريب كيف يمكن لعجوز رقيقة فضولية أن تجعل الرجل
يشعر أنه مغفل! وأنقذني ظهور السيدة كالثروب من مزيد من
المعاناة ، وكانت معها ضيفتها العجوز. قالت السيدة كالثروب:
صباح الخير. سمعت أنك اشتريت لميغان بعض الملابس اللائقة؟
إنه تصرف عاقل منك ، فالتفكير بشيء عملي كهذا يتطلب رجلاً بكل
معنى الكلمة. كنت قلقة على هذه الفتاة منذ وقت طويل ، فالفتيات

العاقلات معرضات أن يتحولن إلى مغفلات، أليس كذلك؟

بهذه العبارة الملفتة للنظر دخلت السيدة كالثروب إلى محل السمّاك بسرعة، أما الآنسة ماربل التي بقيت واقفة إلى جانبي فقد طرفت بعينها وقالت: إن السيدة كالثروب امرأة رائعة، تكاد تكون على حق دائماً.

- الأمر الذي يجعلها مخيفة بعض الشيء!

قالت بهدوء: إن للصدق مثل هذا التأثير.

- ٤ -

شعرت ببعض الحرج من مقابلة جوانا، ولكن عندما وصلت إلى البيت عرفت أن قلقي لم يكن له داع، فقد خرجت ولم تعد لتناول الغداء. وقد أحزن ذلك بارتريدج كثيراً فقالت بمرارة وهي تضع قطعيتين من اللحم في طبق: لقد أكدت الآنسة بيرتن أنها ستعود لتناول الغداء.

أكلتُ شريحتي اللحم في محاولة للتعويض عن غياب جوانا، ولكنني تساءلت في نفسي أين يمكن أن تكون أختي الآن. لقد اعتادت أن تكون غامضة جداً في تصرفاتها مؤخراً.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف عندما سمعت صوت سيارة تقف في الخارج، وما لبثت جوانا أن دخلت غرفة الاستقبال. وتوقعت أن أرى غريفيث معها، لكنها كانت وحيدة. كان وجهها ممتنعاً بالحمرة وبدت منزعجة، وتصورت أن شيئاً قد حدث.

سألتها: ما الأمر؟

فتحت جوانا فمها لتتكلم، إلا أنها أغلقته ثانية وتنهدت وألقت بنفسها على كرسي وأخذت تحديق أمامها، ثم قالت: لقد قضيتُ اليوم أسوأ الأيام.

- ماذا حدث؟

- صنعتُ أمراً لا يصدّق... كان رهيباً.

- وما هو؟

- خرجت في نزهة سيراً على الأقدام، نزهة عادية، صعدت التلة وذهبت إلى السبخة. مشيت أميالاً، فقد أعجبني أن أمشي. ثم نزلتُ وادياً وكانت هناك مزرعة، في منطقة منعزلة تماماً. شعرت بالعطش وتساءلت إن كان عندهم حليب فمشيت إليهم ودخلت ساحة المزرعة، ثم فُتح الباب وخرج منه أوين.

- وبعد؟

- ظنّ أن القادمة هي ممرضة المقاطعة. كانت هناك امرأة تضع مولوداً، وكان أوين يتوقع وصول الممرضة. كانت... كانت الأمور تجري بشكل سيء.

- وماذا حدث؟

- عندما رأيته قال لي: "هيا، تعالي، وجودك أفضل من لا شيء". قلت له إنني لا أستطيع، فسألني عما أعنيه. قلت له إنني لم أقم بعمل كهذا في حياتي وإنني لا أعرف أي شيء، فقال إن ذلك لا يهم أبداً، ثم غدا فجأة فظيماً! صاح بي قائلاً: ألسنت امرأة؟ أظن أن باستطاعتك أن تفعلي أي شيء لمساعدة امرأة أخرى؟ ثم

أكمل حديثه بعنف قائلاً: أنت كنت تتحدثين وكأنك مهتمة بالطب وقلت إنك تتمنين أن تصبحي ممرضة. لعله كان مجرد كلام جميل منمّق ولم تقصدي الأمر حقيقة. لكن هذا عمل حقيقي، ويجب أن تتصرفي كامرأة مسؤولة وليس كحمقاء عديمة الفائدة!

ثم بدا عليها الانفعال الشديد وهي تقول: لقد قمت بأعمال لا تصدّق يا جيري! أخذت الأدوات وغليتها بالماء وساعدته في العملية. إنني متعبة بحيث لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي. كان ذلك فظيلاً، لكنه أنقذها وأنقذ الجنين.

غطت جوانا وجهها بيديها، وتأمّلتها بسرور بالغ واحترمت أوين غريفيث في قرارة نفسي، لقد جعل جوانا تواجه الواقع بشكل حقيقي لأول مرة. وأخيراً قلتُ لها: لك رسالة في الصلاة، أظنها من بول.

قالت: إيه؟ وسكتت دقيقة ثم أضافت: لم أكن أعرف يا جيري ما يُضطر الأطباء لعمله والشجاعة التي ينبغي أن يتحلوا بها.

خرجت إلى الصلاة وأحضرت لجوانا رسالتها، ففتحتها ونظرت إلى محتواها نظرات غامضة ثم تركتها تسقط من يدها وقالت: لقد كان... كان رائعاً حقاً. الطريقة التي حارب بها، الطريقة التي قاوم بها الهزيمة! صحيح أنه تحدث معي بغلظة، لكنه كان رائعاً.

لاحظت بشيء من السرور رسالة بول المهملة؛ من الواضح أن جوانا قد شُفيت من بول!

* * *

الفصل الثالث عشر

- ١ -

الأمر لا تأتي أبداً عندما ننتظرها!

كنت مشغولاً جداً بأموري الشخصية وأمور جوانا ففوجئت تماماً في صباح اليوم التالي عندما سمعت ناش يكلمني عبر الهاتف: لقد أمسكنا بها يا سيد بيرتن!

جفلت تماماً بحيث كدت أسقط السماعة. قلت: تقصد الـ...

قاطعني: هل يمكن لأحد أن يسترق السمع على حديثنا الآن؟

- لا، لا أظن. ولكن، ربما...

بدأ لي أن باب المطبخ قد انفتح قليلاً، وسمعته يقول على الطرف الآخر من الخط: هلاً جئت إلى مركز الشرطة؟

- سأفعل، الآن مباشرة.

وسرعان ما كنت في مركز الشرطة. كان ناش في إحدى الغرف الداخلية والابتسامة تملأ وجهه ومعه الرقيب باركنز، وما إن رأني حتى قال: كانت مطاردة طويلة، لكننا وصلنا في النهاية.

قدم إليّ الرسالة، وكانت هذه المرة مطبوعة كلها، وإذا ما قورنت بالرسائل الأخرى فإن هذه الرسالة كانت معتدلة اللهجة:

لا فائدة من الاعتقاد أن بإمكانك احتلال مكان امرأة ميتة. البلدة كلها تسخر منك. اخرجي الآن، فسريراً سيكون الوقت قد فات. هذا تحذير، تذكري ما حدث لتلك الفتاة. اخرجي وابقى خارجاً.

ثم تنتهي الرسالة ببعض العبارات المعتدلة في بذاءتها.

قال ناش: وصلت هذه الرسالة للآنسة هولاند هذا الصباح.

قال الرقيب باركنز: كنّا نرى غرابة في عدم استلامها أي رسالة من قبل.

سألت: من التي كتبتها؟

تلاشى شيء من الجدل عن وجه ناش. بدا مرهقاً مهموماً وقال بحزن: إني آسف لهذا الأمر لأنه سيضر رجلاً محترماً، ولكن لا حيلة لنا، وربما راودته الشكوك بذلك أصلاً.

كررت سؤالاً: من التي كتبتها؟

- الآنسة إيمي غريفيث.

- ٢ -

ذهب ناش وباركنز إلى بيت غريفيث عصر ذلك اليوم ومعهما إذن اعتقال، وذهبت معهما بدعوة من ناش الذي قال لي: إن الطبيب يحبك كثيراً فليس له أصدقاء كثيرون في هذه البلدة، وما

لم يكن هذا الأمر مؤلماً لك فإني أرى أن باستطاعتك مساعدته على تحمل الصدمة يا سيد بيرتن.

قلت إنني سأذهب معهما. لم أستسغ هذه المهمة، ولكنني ظننت أنني قد أكون مفيداً. قرعنا الجرس وسألنا عن الأنتة غريفيث فأدخلونا إلى غرفة الاستقبال. كانت إلسي هولاند وميغان وسيمينغتن هناك يشربون الشاي.

تصرف ناش بحذر بالغ. سأل إيمي عن إمكانية الحديث معها على انفراد لبعض الوقت، فنهضت وجاءت باتجاهنا. وأظنني رأيت نظرة ذعر باهتة في عينيها، ولكن تلك النظرة - لو كانت صحيحة - قد تلاشت بسرعة. كانت طبيعية تماماً ومبتهجة.

- تريدني؟ أرجو أن لا تكون المشكلة بسبب أضواء سيارتي مرة أخرى؟

سارت أمامنا خارج غرفة الاستقبال ثم عبر الصالة إلى مكتب صغير، وفيما أنا أغلق باب غرفة الاستقبال ورائي لمحت سيمينغتن يلتفت برأسه بحدّة وقد كاد ينهض عن مقعده. وحسبت أن ممارسته القانونية قد جعلته يألف قضايا الشرطة، فلعله ميّز شيئاً ما في سلوك ناش. كان هذا كل ما رأيته قبل أن أغلق الباب وأتبع الآخرين.

كان ناش يؤدي مهمته بدقة وكان هادئاً تماماً، وقد نبهها إلى حقوقها ثم طلب منها أن تصحبه. كان معه إذن باعتقالها، وقرأ عليها التهمة. وقد نسيت الآن العبارة القانونية التي قالها بالضبط، ولكنها كانت تتعلق بكتابة الرسائل وليس بجريمة القتل.

رفعت إيمي غريفيث رأسها عالياً وضجت بالضحك، ثم

صاحت قائلة: يا له من كلام فارغ سخيف! أيمن أن أكتب مثل هذا الكلام البذيء؟ لا بد أنك جُننت؛ أنا لم أكتب كلمة واحدة ممّا تقوله.

كان ناش قد أخرج الرسالة الموجهة لإلسي هولاند وقال:
هل تنكرين أنك كتبت هذه يا آنسة غريفيث؟

إن كانت قد ترددت فإن ذلك لم يستغرق منها إلا جزءاً من الثانية. قالت: أنكره بالطبع، أنا لم أرَ هذه الرسالة أبداً من قبل.

قال ناش بهدوء: لا بد أن أخبرك يا آنسة غريفيث أن أحدهم شاهدك وأنت تطبعين هذه الرسالة على الآلة الكاتبة في جمعية المرأة بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف مساءً، في الليلة قبل الماضية. وبالأمس دخلت مكتب البريد وبيدك حزمة من الرسائل...

- لم أضع هذه الرسالة في البريد أبداً.

- صحيح، أنت لم تضعيها، لأنك -بينما كنت تنتظرين الحصول على طوابع- أسقطتها على الأرض بطريقة لا تثير الشكوك بحيث يأتي شخص ما ويأخذها من الأرض دون ارتياب ثم يضعها في صندوق البريد.

- لم أفعل...

فُتح الباب ودخل سيمنغتن، قال بحدة: ما الذي يجري؟ إن كان في الأمر شيء غير طبيعي يا إيمي فيجب أن يكون لديك من يمثلك قانونياً. إن أردتني أن...

انهارت عندها. غطت وجهها بيديها وتلمست طريقها إلى كرسي، ثم قالت: اذهب يا دك، اذهب. ليس أنت، ليس أنت!

- أنت بحاجة لمحام يا عزيزتي.

- ليس أنت. إنني... إنني لا أستطيع تحمل هذا. لا أريدك أن تعرف كل هذا.

ربما فهم عندها ما تعنيه، فقد قال بهدوء: سأحضر لك المحامي مايلدمي من إكزامبتن، هل هذا ينفع؟

أومأت برأسها موافقة وهي تنتحب، وخرج سيمنغتن من الغرفة. وعند مدخل الباب اصطدم بأوين غريفيث الذي قال بغضب: ماهذا؟ أختي...

قال ناش: أنا آسف يا دكتور غريفيث، آسف جداً، ولكن ليس أمامنا بديل.

- أتظن أنها... أنها مسؤولة عن تلك الرسائل؟

قال ناش: أخشى أن لا يكون في ذلك شك يا سيدي.

ثم التفت نحو إيمي وقال: يجب أن تأتي معنا الآن يا آنسة غريفيث. ستحصلين على كل المساعدة لرؤية أحد المحامين.

صاح أوين: إيمي؟

اندفعت من أمامه دون أن تنظر إليه قائلة: لا تتحدث معي. لا تقل شيئاً ولا تنظر إليّ بالله عليك!

خرجوا من الغرفة فيما وقف أوين كرجل مسحور، وانتظرت

قليلاً ثم تقدمت نحوه وقلت: إن كان من شيء يمكنني فعله يا سيد غريفيث فأخبرني.

قال كرجل يعيش في حلم: إيمي؟ لا أصدق!

قلت متعللاً: قد يكون في الأمر خطأ.

قال ببطء: ما كانت لتتصرف هكذا لو كان في الأمر خطأ. ما كنت لأصدق هذا أبداً، لا يمكنني تصديق هذا الأمر.

رمى نفسه على كرسي، وحاولت مساعدته بما استطعت من كلمات التطمين والعزاء، وبدا أن ذلك أفاده فقال: لم أستطع فهم الأمر في البداية، ولكنني بخير الآن. أشكرك يا بيرتن، ولكن لا يوجد ما يمكنك فعله، ليس بوسع أحد فعل شيء.

فُتح الباب ودخلت جوانا وهي شديدة الشحوب. جاءت إلى أوين ونظرت إليّ وقالت: اخرج يا جيري، هذا عملي أنا.

وفيما كنت أخرج عبر الباب رأيتها تنحني فوق مقعده.

- ٣ -

لا أستطيع أن أسرد عليكم بشكل متماسك أحداث الساعات الأربع والعشرين التي تلت ذلك، إذ تبرز العديد من الأحداث التي لا يربطها رابط.

أذكر مجيء جوانا إلى البيت وهي شديدة الشحوب والذهول، وكيف أنني حاولت رسم الابتسامة على شفيتها قائلاً: لقد سبق لك أن وصفت إيمي غريفيث بأنها تتصرف مع أخيها كالملاك

الحارس، فمن هو الملاك الحارس الآن؟

وأذكر كيف ابتسمت بطريقة محزنة وقالت: يقول إنه لا يريدني يا جيرى، إنه شديد الغرور والصلابة!
قلت لها: وفتاتي أيضاً لا تريدني.

جلسنا هناك لبعض الوقت، وقالت جوانا أخيراً: لا تلقى عائلة بيرتن رواجاً في الوقت الحالي!

قلت: لا تهتمي يا عزيزتي، فما زلنا نعيش معاً.

ردّت جوانا: إن هذا لا يشكل لي عزاء في الوقت الحاضر يا جيرى.

— ٤ —

جاء أوين لزيارتنا في اليوم التالي وانطلق في حديث طويل مادحاً جوانا وقائلاً إنها رائعة، وتحدث عن الطريقة التي جاءت بها إليه وكيف أعربت عن استعدادها للزواج به فوراً إن شاء. ولكنه ما كان ليسمح بذلك، لأنها فتاة أطيّب وأرقّ من أن يرتبط اسمها بتلك القذارات التي لن تلبث بالانتشار على الألسنة بمجرد وصول خبر أخته إلى الصحف. وكنت أحب جوانا كثيراً وأعرف أنها من النوع الذي يحب الوقوف مع الناس في الأزمات، فطلبت من أوين بشيء من الانزعاج أن لا يكون على تلك الدرجة السخيفة من المثالية.

ثم انطلقت إلى الشارع العام فوجدت أن ألسن الجميع تثرثر دون انقطاع. كانت إميلي بارتن تقول إنها لم تثق أبداً بيامي

غريفيث، وكانت زوجة البقال تقول بحماسة إنها كانت ترى دائماً
أن للآنسة غريفيث نظرة غريبة في عينيها!

وعلمتُ من ناش أن الشرطة أكملوا التحقيق في القضية،
وقد كشف البحث في البيت عن وجود الصفحات المقصوصة من
كتاب إميلي بارتن وقد أُخفيت - من بين كل الأماكن - في الخزانة
أسفل الدَّرَج، ملفوفةً بورق جدران قديم.

قال ناش معجباً: وهو مخبأً جيد. أنت لا تعلم متى يمكن
لخادم متطفل أن يعث في مكتب أو دُرَج مغلق... أما خزائن
المُستهلكات تلك، المليئة بكرات التنس القديمة وورق الجدران
القديم، فلا تُفتح أبداً إلا عندما يريدون حشر مزيد من الأغراض
داخلها.

- يبدو أن لتلك السيدة ولعاً بهذا المخبأ بالذات.

- نعم، نادراً ما تجد التنوع في العقل الإجرامي. وبالمناسبة،
فقد وجدنا حقيقة يمكن السير على هديها فيما يتعلق بالفتاة القتيلة،
فقد فُقدت يدُ هاون كبيرة ثقيلة من صيدلية الطبيب، وأراهن على
أنها هي الأداة التي ضُربت بها الفتاة.

اعترضت قائلاً: ولكنها أداة يصعب على المرء أن يحملها

معه.

- ليس بالنسبة للآنسة غريفيث. كانت ستذهب إلى لقاء
الكشافة عصر ذلك اليوم، ولكنها كانت ذاهبة أيضاً لتوصيل الزهور
والخضروات إلى معرض الصليب الأحمر في طريقها، لذلك كانت
تحمل معها سلة كبيرة جداً.

- وهل وجدت السيخ؟

- لا ، ولن أجده. ربما كانت تلك الشيطانة المسكينة مجنونة ،
ولكن الجنون لم يبلغ بها درجة تجعلها تحتفظ معها بسيخ ملطخ
بالدماء لتسهّل علينا إثبات الجرم عليها ، وهي لا تحتاج إلا لغسل
السيخ وإعادته إلى دُرج المطبخ.

وافقته قائلاً: أظن أن المرء لا يستطيع الحصول على كل
شيء.

- ٥ -

كان بيت الكاهن آخر بيت يسمع بالخبر ، وقد حزنت الأنسة
العجوز ماربل للخبر كثيراً. تحدثت معي في هذا الموضوع باهتمام
شديد قائلة: ليس صحيحاً يا سيد بيرتن ، أنا واثقة أنه ليس صحيحاً.
- أخشى أنه صحيح تماماً يا أنسة ماربل. لقد نصبوا لها كميناً
وشاهدوها وهي تطبع تلك الرسالة بالفعل.

- نعم ، نعم ، ربما شاهدوها. نعم ، يمكنني فهم هذا الأمر.
- وقد وُجدت الصفحات المطبوعة التي أخذت منها حروف
الرسالة حيث كانت قد أخفتها في بيتها.

نظرت الأنسة ماربل إليّ ثم قالت بصوت خافت جداً: هذا
فظيع ، عمل شرير حقاً.

جاءت السيدة كالثروب بسرعة وانضمت إلينا قائلة: ما الأمر
يا جين؟

كانت الأنسة ماربل تتمتم يائسة: يا إلهي، يا إلهي! ما الذي يمكن للمرء أن يفعله؟

- ما الذي أزعجك يا جين؟

قالت الأنسة ماربل: لا بد من شيء أعمله. ولكنني كبيرة في السن كثيراً وجاهلة جداً، وأخشى أن أكون غبية جداً أيضاً.

شعرت بشيء من الارتباك، وفرحت عندما جاءت السيدة كالثروب وأخذت صديقتها. ومع ذلك فقد قُدِّر لي أن أرى الأنسة ماربل مرة أخرى عصر ذلك اليوم عندما كنت عائداً إلى البيت. كانت تقف قرب الجسر الصغير عند طرف القرية قريباً من بيت السيدة كليت، وكانت تتحدث مع ميغان.

أردت رؤية ميغان، بل كنت أريد رؤيتها طوال ذلك اليوم، لذلك سارعت خطوي، ولكن عندما وصلت إليهما دارت ميغان وذهبت في الاتجاه الآخر. وقد أغضبني ذلك، وكان من شأني أن أتبعها لولا أن الأنسة ماربل اعترضت طريقي قائلة: كنت أود الحديث معك. لا تذهب وراء ميغان الآن، فلن يكون ذلك تصرفاً حكيماً.

أوشكتُ على الرد عليها بحدة لولا أنها جردتني من سلاحي بقولها: هذه الفتاة شجاعة جداً، شجاعة إلى أبعد حد!

ورغم ذلك أردت اللحاق بميغان، ولكن الأنسة ماربل قالت: لا تحاول رؤيتها الآن. إنني أعرف ما أتحدث عنه، يجب عليها أن تحتفظ بشجاعته.

كان في تأكيد السيدة العجوز شيء أصابني بالقشعريرة، وكأنها كانت تعرف شيئاً لا أعرفه. كنت خائفاً ولا أعرف سبب خوفي. ولم أذهب إلى البيت، وإنما عدت إلى الشارع العام وسرت فيه جيئةً وذهاباً دون هدف. لا أعرف ماذا كنت أنتظر أو بماذا كنت أفكر.

أمسكني ذلك العجوز الممل الثقيل الكولونيل أبلتون وسألني عن أختي الجميلة كعادته، ثم أكمل قائلاً: ما كل هذا الكلام عن أخت غريفيث وعن جنونها المطبق؟ يقولون إنها هي التي كانت تقف خلف تلك الرسائل المجهولة التي كانت مصدر إزعاج للجميع؟ لم أصدق هذا الكلام في البداية، ولكنهم يقولون إنه صحيح تماماً.

قلت له إنه كلام صحيح.

- حسناً، يجب أن أعترف بأن شرطتنا جيدون إجمالاً. أعطهم الوقت الكافي فقط، هذا كل ما هنالك. غريبة مسألة الرسائل المجهولة هذه. إن أولئك العجائز العجاف هنّ دائماً المولعات بهذا الأمر، مع أن الأنسة غريفيث لم تكن سيئة المظهر، رغم طول أسنانها قليلاً... ولكن لا توجد أي فتاة جميلة في هذه المنطقة على أي حال، ما عدا تلك الفتاة المربّبة عند سيمينغتن. إنها جديرة بأن يُنظر إليها، كما أنها فتاة لطيفة تعرب عن الامتنان لأي خدمة صغيرة يؤديها لها المرء. التقيت بها عندما كانت في نزهة مع الطفلين قبل مدة قصيرة، وكانا يلهوان ويلعبان على العشب بينما كانت تحيك الصوف بصنارتها، وقد انزعجت لأن الصوف نفذ منها فقلت لها: "هل تحبين أن أوصلك إلى لايمستوك؟ سأتوقف

هناك لآخذ عصاي العسكرية ولن أتأخر أكثر من عشر دقائق، ثم أعيدك مرة أخرى". ترددت قليلاً في ترك الولدين، فقلت لها: "لن يكون عليهما بأس. منذاً يريد أن يؤذيهما؟ لا تخافي فلن نتركهما طويلاً". وهكذا أخذتها معي في السيارة وأنزلتها عند محل الصوف ثم عدت وأخذتها مرة أخرى وانتهى الأمر. كانت في غاية الامتنان وشكرتني بشدة، إنها فتاة لطيفة.

نجحتُ أخيراً في الهروب منه.

بعد ذلك رأيت الأنسة ماربل للمرة الثالثة، وكانت خارجة من مركز الشرطة.

- ٦ -

من أين تأتي مخاوف المرء؟ أين تتشكل هذه المخاوف، وأين تكون مختبئة قبل أن تخرج إلى العلن؟

مجرد عبارة واحدة قصيرة سُمعت وسُجّلت ولم تُنحَّ جانباً أبداً: أرجوك أن تأخذني بعيداً. إن البقاء هنا والشعور بكل هذا الشر أمر فظيع!

لماذا قالت ميغان هذا، ولماذا عساها تشعر بالشر؟ لم يكن في وفاة السيدة سيمينغتن ما يجعل ميغان تشعر بالشر. لماذا شعرت الفتاة بالشر؟ لماذا؟ لماذا؟ أيمكن أن يكون ذلك لأنها أحست بالمسؤولية بأي شكل؟

ميغان؟ مستحيل! لا يمكن أن تكون لميغان أي علاقة بتلك الرسائل، تلك الرسائل القذرة الفاحشة. ولكن: كان أوين غريفيث

قد عرف بحالة مماثلة في الشمال، طالبة مدرسة!

ما الذي قاله المفتش غريفز؟ شيء عن عقل مراهق، سيدات عجائز على طاولة العمليات الجراحية يهذين بكلمات لا يكدن يعرفنها، صبية صغار يكتبون أشياء على الجدران.

لا، لا، ليس ميغان!

أتكون الوراثة؟ العرق السيئ؟ وراثة لاواعية لشيء شاذ؟
أيكون سوء حظ لا يد لها فيه، لعنة لحقت بها من جيل مضى؟
لماذا قالت: "لست من النوع الذي يصلح زوجة لك، إنني أتقن الكراهية أكثر مما أتقن الحب"؟

آه، ميغان، طفلي الصغيرة! عسى أن لا يكون ذلك، كل شيء إلا هو. وتلك العانس العجوز تلاحقك، إنها تشك. تقول إنك شجاعة، شجاعة للقيام بماذا؟

كانت نوبة جنون عابرة مرت، ولكنني أردت رؤية ميغان. كنت بحاجة ماسة لرؤيتها، فتركت البيت في الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة وذهبت إلى البلدة، ومن هناك إلى بيت سيمينغتن، وعندها خطرت في بالي فكرة جديدة تماماً. امرأة لم يفكر بها أحد لحظة واحدة... أم أن ناش فكر بها؟ كان ذلك مُستبعداً جداً وغير محتمل إطلاقاً، وكان من شأنى -حتى هذا اليوم- أن أعتبره مستحيلاً أيضاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك، نعم، لم يكن مستحيلاً.

ضاعفت سرعتي، فقد أصبح من الحيوي الآن أن أرى ميغان

على الفور. عبرت بوابة منزل سيمينغتن واتجهت إلى البيت. كانت ليلة مظلمة ملبدة بالغيوم، وبدأ قليل من المطر في السقوط وكانت الرؤية سيئة.

رأيت خطأً من الضوء من إحدى النوافذ. أهي الغرفة الصغيرة التي كنا فيها في الصباح؟ ترددت قليلاً، ثم انعطفتُ - بدل الذهاب إلى الباب الأمامي - وزحفت بهدوء إلى أن صعدتُ إلى النافذة مرتقياً غصناً ضخماً، وبقيت هناك خافضاً رأسي.

كان الضوء يخرج من فتحة الستارة التي لم تكن مغلقة جيداً، وكان من السهل النظر منها ورؤية ما في داخل الغرفة، وقد كان المنظر في الداخل عائلياً هادئاً: سيمينغتن يجلس على كرسي كبير، وإلسي هولاند منكبة على رتق قميص أحد الأولاد.

كنت أستطيع سماع الحديث إضافة إلى رؤية المشهد لأن النافذة كانت مفتوحة من أعلاها. كانت إلسي هولاند تقول: ولكني أظن فعلاً أن الولدين كبرا بما فيه الكفاية ويمكنهما الذهاب إلى مدرسة داخلية يا سيد سيمينغتن. وهذا لا يعني أنني لن أكره غيابهما عني، بل سأكره ذلك فعلاً، فأنا أحبهما كثيراً.

قال سيمينغتن: أظنك مصيبة بخصوص برايان يا آنسة هولاند. لقد قررتُ إرساله ليبدأ الفصل القادم في مدرسة وينهايز، مدرستي الابتدائية القديمة. ولكن كولين ما يزال صغيراً وأفضل أن ينتظر سنة أخرى.

- إنني أفهم ما تعنيه بالطبع، كما أن كولين ربما كان صغيراً قليلاً بالنسبة لعمره...

حديث منزلي هادئ ومشهد منزلي بريء. ثم فُتح الباب ودخلت ميغان ووقفت عند مدخل الباب منتصبة القامة، ولاحظت فوراً أن فيها شيئاً من التوتر. كان جلد وجهها مشدوداً وعيناها لامعتين حازمتين. لم يبدُ عليها هذه الليلة حياءً أو تردد أو طفولية، وقالت تخاطب سيمينغتن باسمه المجرد (وفجأة فكرت بأنني لم أسمعها تناديه أبداً. هل كانت تخاطبه بلفظ أبي أم باسمه أم بماذا؟) قالت: أود الحديث معك من فضلك، على انفراد.

بدا سيمينغتن مدهوشاً وقطب جبينه، وتصورت أنه لم يكن مسروراً، لكن ميغان أصرت على كلامها بعزم لم يكن من عاداتها. التفتت إلى إلسي هولاند وقالت: هل تمانعين يا إلسي؟

قفزت إلسي هولاند من مقعدها وقالت: بالطبع لا.

بدت مضطربة قليلاً وذهبت إلى الباب، ودخلت ميغان حتى تفسح لها طريق الخروج. وللحظة فقط وفتت إلسي عند مدخل الباب جامدة تنظر وراءها. كانت شفتها مزمومتين وقد وفتت جامدة دون حركة وإحدى يديها ممدودة بينما أمسكت الأخرى بالقميص الذي كانت تعمل فيه، ثم خرجت وأغلقت الباب.

قال سيمينغتن بشيء من الغضب: ما الأمر يا ميغان؟ ماذا تريدين؟

مشت ميغان باتجاه المكتب ووقفت هناك تحديق إلى سيمينغتن، وقد ذهلت مرة أخرى بسبب التصميم الهائل الذي لاحظته في وجهها، ولشيء آخر، لصلابة فيها كانت جديدة علي. وأخيراً فتحت شفتيها وقالت شيئاً أجفلي حتى الصميم: أريد

بعض المال!

لم يُحسّن هذا الطلب مزاج سيمينغتن. قال بحدة: ألم يكن بإمكانك الانتظار حتى صباح الغد؟ ماذا جرى؟ أترين أن مصروفك لا يكفي؟

قالت ميغان: أريد مبلغاً كبيراً من المال.

اعتدل سيمينغتن في جلسته وقال بفتور: ستبلغين السن القانونية بعد بضعة أشهر، وعندها سيحيل لك الوصي العام الأموال التي تركتها لك جدتك.

قالت ميغان: أنت لا تفهمني، أريد مالاً منك.

ثم أكملت تتحدث بسرعة أكبر: لم يكلمني أحد كثيراً عن والدي، لا يريدون لي أن أعرف عنه شيئاً، ولكنني أعرف أنه دخل السجن وأعرف السبب. كان ذلك بسبب الابتزاز.

سكتت قليلاً ثم قالت: حسناً، وأنا ابنته ولعلي أشبهه. على أي حال فإنني أطلب منك مالاً لأنك إن لم تفعل...

وسكتت مرة أخرى ثم أكملت بكل بطء وهدوء: إن لم تفعل فسوف أكشف ما رأيته بتلك الكبسولة في غرفة والدتي ذلك اليوم.

ساد شيء من الصمت، ثم قال سيمينغتن بصوت يخلو من أي عاطفة: لا أعرف ما تقصدينه.

- بل أظنك تعرف.

ثم ابتسمت، ولم تكن ابتسامة لطيفة. ونهض سيمينغتن، ذهب إلى طاولة المكتب فأخرج منها دفتر الشيكات وكتب شيكاً وقعه بحرص شديد ثم عاد فقدمه لها وقال: أنت فتاة بالغة الآن وأفهم أنك قد تشعرين بالحاجة لشراء شيء خاص كالملابس وغيرها. لا أعرف ما تتحدثين عنه، ولكن هاك هذا الشيك.

نظرت ميغان إلى الشيك وقالت: شكراً، هذا يكفي لما أريده.

دارت وخرجت من الغرفة، وهدق سيمينغتن إليها وهي خارجة وإلى الباب المغلق، ثم التفت، وعندما رأيت وجهه تقدمت إلى الأمام بحركة سريعة لم أتمالكها، وفي تلك اللحظة قوطعت حركتي بطريقة غريبة جداً، فالغصن الكبير الذي لاحظته قرب الجدار لم يعد غصناً!

أحاطت بي ذراعا المفتش ناش وهمس في أذني: اهدأ يا بيرتن، اهدأ بالله عليك.

ثم تراجع إلى الوراء بحذر شديد وهو يمسك بي حتى أصحابه، وعند جانب البيت انتصب واقفاً ومسح جبينه وقال: لا مفر من تطفلك بالطبع!

قلت بالاحاح: تلك الفتاة ليست في مأمن، هل رأيت وجهه؟ يجب أن نُخرجها من هنا.

قبض ناش على ذراعي بقوة وقال: اسمعني الآن يا سيد بيرتن، يجب أن تصغي.

حسناً، لقد أصغيت بالفعل. لم أحب ذلك ولكنني أذعنت، على أنني أصررت على البقاء في المكان، وأقسمت له أن أطيع الأوامر طاعة تامة.

وهكذا دخلت مع ناش وباركنز إلى البيت من الباب الخلفي الذي ترك غير مُقفل عمداً، وانتظرنا عند بسطة الدرج وراء الستارة المخملية التي تغطي فتحة النافذة إلى أن دقت ساعة الحائط معلنة الساعة الثانية. عندئذ فتح سيمينغتن باب غرفته وعبر بسطة الدرج ودخل غرفة ميغان.

لم أتحرك من مكاني لأنني كنت أعرف أن الرقيب باركنز كان في الداخل مختبئاً وراء الباب المفتوح، وكنت أعرف أن باركنز رجل ممتاز ويعرف عمله، وأعرف أيضاً أنني لا أستطيع الثقة بقدرتي على المحافظة على هدوئي لو كنت مكانه.

وفيما أنا أنتظر هناك وقلبي يخفق بشدة رأيت سيمينغتن يخرج من الغرفة حاملاً ميغان بين ذراعيه وينزل بها إلى الطابق السفلي، وتبعناه أنا وناش تاركين بيننا وبينه مسافة معقولة. حملها إلى المطبخ، وكان قد أكمل وضعها بشكل مريح بحيث يكون رأسها في فرن الغاز وفتح صمام الغاز عندما دخلت مع ناش المطبخ وأضأنا المصباح.

كانت تلك نهاية رتشارد سيمينغتن. وقع منهاراً وأنا أبعد ميغان وأغلق صمام الغاز، لم يحاول حتى المقاومة، فقد عرف أنه خسر اللعبة.

في الطابق العلوي جلست بجانب سرير ميغان أنتظر أن تستعيد وعيها وأنا أسبّ ناش بين حين وآخر. أُنبتُّه قائلاً: كيف تعرف أنها ستكون على ما يرام؟ كانت مجازفة كبيرة!

راح ناش يحاول تهدئتي بشتى الطرق وقال: مجرد قليل من المنوم في حليها الذي تضعه بجانب سريرها دائماً، لا شيء أكثر من ذلك، وهو تصرف متوقَّع. إنه لم يستطع المجازفة بتسميمها، فقد انتهت القضية - بالنسبة له - باعتقال الأنسة غريفيث، ولن يتحمل وقوع جريمة غامضة أخرى. لا عنف ولا سموم، ولكن إذا ما اعتملت في نفس فتاة كئيبة مسألة انتحار والدتها لفترة طويلة ثم ذهبت أخيراً فوضعت رأسها داخل فرن الغاز فإن الناس سيقولون إنها لم تكن فتاة طبيعية تماماً وإن صدمة وفاة والدتها قد قضت عليها.

قلت وأنا أرقب ميغان: مضى وقتٌ طويل ولم تُفق.

- أما سمعت ما قاله الدكتور غريفيث؟ قلبها ونبضها طبيعيان تماماً، وستنام وتستيقظ بطريقة طبيعية. هو قال إنه يعطي هذه المادة للكثير من مرضاه.

تحركت ميغان قليلاً، تمتمت بشيء، وغادر المفتش ناش الغرفة دون تطفل. وسرعان ما فتحت ميغان عينيها وقالت: جيري!

- مرحباً يا حبيبتى.

- هل نفذت الخطة جيداً؟

- وكان الابتزاز مهنتك مذ كنت في المهدي!

أغلقت ميغان عينيها ثانية، ثم تمتت: الليلة الماضية كنت أكتب لك رسالة... خشية أن... أن يحدث لي سوء. ولكنني شعرت بنعاس لم أستطع معه إكمالها. إنها هناك.

ذهبت إلى طاولة المكتب حيث وجدت رسالة ميغان غير المكتملة في دفتر ملاحظات صغير مهترئ، وكانت تبدأ بشكل رسمي على النحو التالي:

عزيزي جيري،

كنت أقرأ ما كان مقرراً علينا في المدرسة من أعمال شكسبير، وتلك القصيدة التي مطلعها: «أنت لأفكاري كالطعام للحياة، أو كالأمطار في شدة شوقها للأرض». وقد أدركت أنني أحبك في نهاية الأمر لأن هذا ما أشعر به فعلاً.

* * *

الفصل الرابع عشر

قالت السيدة كالثروب: وهكذا ترى أنني كنت على حق في استدعاء خبير.

نظرت إليها بامعان. كنا جميعاً في بيت الكاهن، وكان المطر يتساقط خارج البيت بغزارة والنار متقدمة في الموقد بشكل يبعث على الارتياح.

قلت مدهوشاً: ولكن هل استدعيت أحداً حقاً؟ من يكون؟ وماذا فعل؟

قالت: لم يكن رجلاً.

ثم أشارت إلى الأنسة ماربل بيدها. كانت الأنسة ماربل قد انتهت من حبك الصوف وشغلت نفسها الآن بصنارة وكرة قطن.

قالت السيدة كالثروب: هذه هي خبيرتي، جين ماربل. انظر إليها جيداً. إن هذه المرأة تعرف عن الأنواع المختلفة للشر البشري أكثر من أي شخص آخر أعرفه.

تمتت الأنسة ماربل: لا أظن من المناسب أن تصفيني هكذا يا عزيزتي.

- لكنك هكذا فعلاً.

قالت الأنسة ماربل بهدوء: إن المرء يرى الكثير من الطباع البشرية وهو مقيم في القرية طوال العام.

ثم وضعت النسيج الذي كانت تحبكه وألقت خطبة لطيفة عن جرائم القتل وكأنها شعرت بأن ذلك ما هو مُنتظرٌ منها. قالت: أهم شيء في هذه القضايا هو إبقاء الذهن منفتحاً تماماً على كل الاحتمالات. معظم الجرائم بسيطة لحدّ السخافة، وهذه الجريمة كذلك. جريمة معقولة تماماً وواضحة ومفهومة تماماً، بطريقة كريهة بالطبع.

- كريهة جداً!

- لقد كانت الحقيقة واضحة جداً في الواقع، وقد عرفتها أنت يا سيد بيرتن.

- الحقيقة أنني لم أعرفها.

- بل لقد عرفتها فعلاً، وقد أشرت إلى الأمر وأوحيت لي به. لقد أدركت تماماً علاقة الأشياء بعضها ببعض، ولكنك كنت تفتقر إلى الثقة الكافية بالنفس لفهم ما كانت تعنيه أحاسيسك تلك. كانت هناك أولاً تلك العبارة المملة: «لا دخان بلا نار»، كانت تغيبك، ولكنك تقدمت بطريقة صحيحة لتسميها بالاسم الذي يناسبها: ساتر دخاني، أي تضليل في الاتجاه حيث ينظر الجميع إلى الشيء غير الصحيح، أي إلى الرسائل المجهولة، ولكن النقطة المهمة هي أنه لم تكن في الأمر أي رسائل مجهولة!

- ولكن يا عزيزتي الأنسة ماربل، أؤكد لك أن الرسائل
المجهولة كانت موجودة فعلاً. لقد تلقيت واحدة منها.

- آه، نعم، ولكنها لم تكن حقيقية إطلاقاً. العزيرة مود
توصلت -دون وعي منها- إلى هذه الحقيقة. حتى في بلدة
لايمستوك المسالمة توجد الكثير من الفضائح، وأؤكد لك أن
من شأن أي امرأة تعيش في هذه البلدة أن تعرف تلك الفضائح
وتستخدمها، أما الرجل فلا يهتم بالقبل والقال بنفس الطريقة، ولا
سيما إن كان رجلاً منطقياً بعيداً عن تلك الاهتمامات مثل السيد
سيمنغتن. لقد كان من شأن كاتبة حقيقية لهذه الرسائل أن تجعل
رسائلها أدق تصويماً.

وهكذا ترى أنك ستتهدي إلى الطريق لو تركت الدخان جانباً
وجئت إلى النار. ما عليك إلا أن تعود إلى الحقائق الفعلية لما
حدث، وإذا نَحَيْتَ الرسائل جانباً فإن شيئاً واحداً حصل، وهو
وفاة السيدة سيمينغتن. في هذه الحالة من الطبيعي أن يفكر المرء
بالذي يريد وفاة السيدة سيمينغتن، وبالطبع فإن الشخص الأول
الذي يفكر فيه المرء في مثل هذه الحالة هو الزوج، ويسأل المرء
نفسه إن كان يوجد أي سبب أو أي دافع، امرأة أخرى مثلاً؟

كان أول ما سمعته هنا هو وجود مربية أطفال جذابة جداً
في البيت. أليس هذا واضحاً؟ السيد سيمينغتن، الرجل الجاف
المكبوت غير العاطفي مرتبط بامرأة نكدة عصبية المزاج، ثم فجأة
تأتي هذه الشابة المتألقة.

أخشى أن الرجال يصبحون مجانيين تماماً عندما يقعون في

الحب في سن معينة، كما أن السيد سيمنغن - حسب استنتاجي - لم يكن رجلاً طيباً أبداً، لم يكن لطيفاً أو ودوداً أو متعاطفاً بل كانت صفاته سالبة إجمالاً، لذلك لم يكن يمتلك حقاً القوة لمقاومة جنونه. وفي ظرف كهذا لن تُحلّ مشكلته إلا بوفاة زوجته. لقد أراد الزواج بهذه الفتاة، وهي ذات سمعة محترمة، وكذلك هو، وهو محب لأطفاله أيضاً ولا يريد التخلي عنهم. كان يريد كل شيء: بيته وأطفاله وسمعته وإلسي، والتمن الذي كان عليه أن يدفعه للوصول إلى ذلك هو القتل.

وإني لأراه اختار طريقة ذكية جداً، فقد كان يعرف جيداً - من خلال خبرته في القضايا الجنائية - أن الشرطة يشتبهون بالزوج على الفور إن ماتت زوجته على نحو غير متوقع، بالإضافة إلى احتمال تشريح الجثة في حالة التسمم، لذلك رتب الجريمة بحيث تبدو مجرد نتيجة عرضية لأمر آخر باختراعه كاتبة غير موجودة لرسائل مجهولة. الأمر الذكي في هذه الخطة أن من المؤكد أن يشتبه الشرطة بامرأة، وقد كانوا على حق تماماً بطريقة ما. كانت الرسائل جميعها نسوية بالفعل، وقد نسخها بكل ذكاء من تلك التي انتشرت في قضية العام الماضي ومن قضية أخبره عنها الدكتور غريفيث. لا أقصد أنه كان مغفلاً بحيث قلد الأسلوب نفسه حرفياً، ولكنه أخذ عبارات وكلمات منها وخلطها معاً، وكانت النتيجة أن الرسائل كانت تمثل ذهنية امرأة، امرأة ذات شخصية مكبوتة شبه مجنونة.

كان يعرف جميع الأساليب التي يستخدمها الشرطة بالتحري عن خط اليد والآلات الكاتبة وما إلى ذلك، وقد أعد لجريمته منذ زمن بعيد، وهكذا فقد طبع كل المغلفات قبل أن يهدي آلته

الكاتبة لجمعية المرأة، ولعله قطع الصفحات من كتاب في منزل «ليتل فيرز» قبل وقت طويل عندما كان ينتظر في غرفة الاستقبال ذات يوم. إن الناس لا يفتحون كتب المواعظ كثيراً!

وأخيراً بدأ عمله الحقيقي بعد أن نشر تماماً نتاجات قلمه المسموم الزائف وشغل القرية بها، وقد اختار لذلك عصر يوم جميل عندما تكون المربية والأولاد وابنة زوجته في الخارج وعندما يكون الخدم في يوم عطلتهم الأسبوعية، ولم يكن بإمكانه التنبؤ بأن خادمته أغنيس ستشاجر مع صديقها وتعود إلى المنزل.

سألت جوانا: ولكن ما الذي رأته؟ هل تعرفين؟

- لا أعرف يقيناً ولكن يمكنني التخمين فقط، وتخميني هو أنها لم ترَ أي شيء.

- أي أن ذلك كان وهماً؟

- لا، لا يا عزيزتي. أقصد أنها وقفت عند نافذة غرفة الخزين طوال العصر تنتظر مجيء صديقها، وهي لم ترَ شيئاً بالمعنى الحرفي للكلمة. أي أن أحداً لم يأت إلى البيت أبداً، لا ساعي البريد ولا أي شخص آخر. وقد كان من شأنها -وهي بطيئة الفهم- أن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أن ذلك كان أمراً غريباً جداً، لأن السيدة سيمنغن تلقت ظاهرياً رسالة مجهولة عصر ذلك اليوم.

سألتها حائراً: ألم تتلق رسالة؟

- أبداً، بالطبع! إن هذه الجريمة بسيطة جداً كما قلت. الذي حصل أن زوجها وضع لها السيانيد في كبسولة الدواء التي كانت

ستناولها بعد ظهر ذلك اليوم بعد تناول الغداء كما هي العادة. كل ما كان على سيمينغتن عمله - بعد ذلك - هو العودة إلى البيت قبل عودة إلسي هولاند أو في نفس الوقت معها، ومناداة زوجته دون أن يسمع منها إجابة، فيصعد إلى غرفتها ويضع قطرة من السيانيد في كأس الماء الذي اعتادت أن تشربه مع قرص الدواء، ثم يلقي الرسالة المكورة التي أعدها أمام الموقد ويضع بجانب يدها قصاصة الورق التي كُتبت عليها: «لا يمكنني الاستمرار».

التفت الأنسة ماربل إليّ وقالت: كنت محقاً تماماً فيما يخص هذه النقطة أيضاً يا سيد بيرتن، فقصاصه الورق كانت غير طبيعية أبداً. إن الناس لا يكتبون رسائل انتحار على قصاصة ورق صغيرة مقطوعة، بل هم يستخدمون ورقة كاملة ويضعونها غالباً في مغلف أيضاً. نعم، كانت قصاصة الورق غير طبيعية، وأنت عرفت ذلك. قلت: أنت تبالغين في إطرائي، فأنا لم أعرف شيئاً.

- ولكنك عرفت، عرفت فعلاً يا سيد بيرتن. وإلا لماذا أثرت فيك على الفور الرسالة التي كتبتها أختك على عجل وتركتها على حاملة الهاتف؟

كررتُ ببطء: "لا يمكنني المضي يوم الجمعة". فهمت: "لا يمكنني الاستمرار!"

ابتسمت لي الأنسة ماربل وقالت: بالضبط. لقد عثر السيد سيمينغتن على رسالة شبيهة بهذه ورأى ما يمكن أن تنطوي عليه من احتمالات فقطع الكلمات التي أرادها حتى يستخدمها عندما يحين الوقت، وكانت رسالة صحيحة كُتبت بخط يد زوجته.

سألتها: وهل ظهرت أي لمحات ذكية أخرى من طرفي؟

طرفت عينا الأنسة ماربل وهي تنظر إليّ وقالت: لقد وضعتني على الطريق الصحيح. أنت جمعت لي تلك الحقائق على نحو متسلسل، وعلى رأسها أهم نقطة قلدتها لي من بين كل تلك النقاط، وهي أن إلسي هولاند لم تتلقَ أي رسالة مجهولة قط.

قلت: هل تعرفين أنني فكرت الليلة الماضية بأنها هي كاتبة الرسائل وأن ذلك هو سبب عدم تلقيها لأي منها؟

- يا عزيزي! أنا لم أفكر بذلك، فالشخص الذي يكتب رسائل مجهولة يرسل دائماً رسالة منها إلى نفسه، وأحسب أن ذلك يشكل جزءاً من... من الإثارة. ولكن لا، لقد أثارت هذه الحقيقة اهتمامي لسبب مختلف تماماً. كانت هذه -في الواقع- نقطة الضعف الوحيدة عند السيد سيمينغتن، لم يستطع حمل نفسه على كتابة رسالة قذرة إلى الفتاة التي أحب. إنها ملاحظة جانبية مثيرة جداً تلقي الضوء على الطبيعة البشرية، وهي قد تسجّل لصالحه بطريقة ما، ولكنها النقطة التي فضحته.

قالت جوانا: وهل هو الذي قتل أغنيس؟ إن هذا لم يكن ضرورياً بالتأكيد.

- ربما كان ضرورياً. إن ما لا تدركينه يا عزيزتي (إذ لم تقتلي أحداً) هو أن أحكام المجرم تشوه بعد جريمته ويبدو له كل شيء مبالغاً فيه. لا شك أنه سمع الفتاة تهاتف بارتريدج وتقول إنها كانت قلقة منذ وفاة السيدة سيمينغتن وأن في الأمر شيئاً لم تفهمه. لم يكن بوسعها أن يجازف، فهذه الحمقاء الغبية ربما رأت شيئاً أو

لعلها تعرف شيئاً ما.

- ألم يكن موجوداً في مكتبه طوال عصر ذلك اليوم؟

- يُخَيَّلُ إليّ أنه قتلها قبل مغادرة البيت. كانت الأنسة هولاند في غرفة الطعام، ولعله اكتفى بالخروج إلى الصلاة حيث فتح الباب الأمامي وأغلقه وكأنه خرج من البيت، ثم انسلَّ إلى غرفة الملابس الصغيرة عند الباب الأمامي. وعندما بقيت أغنيس وحدها في البيت ربما قرع جرس الباب وعاد إلى غرفة الملابس بسرعة، ثم جاء من ورائها وضربها على رأسها عندما كانت تفتح الباب، ثم بعد أن حشر الجثة داخل الخزانة أسرع إلى مكتبه بتأخير قليل جداً خشية أن يلحظه أحد. وربما لم يلحظ ذلك أحد، فكما تعرفين لم يكن أحد يشك في رجل.

قالت السيدة كالثروب: يا له من وحش بغيض!

سألتها: أرى أنك لا تشعرين بالأسف عليه يا سيدة كالثروب؟

- إطلاقاً. لماذا؟

- لا شيء، إنما يسعدني سماع ذلك.

قالت جوانا: ولكن لماذا إيمي غريفيث؟ أعرف أن الشرطة اكتشفوا أن يد الهاون قد اختفت من صيدلية أوين، والسيخ أيضاً. لا أظن أن من السهل على رجل أن يعيد أشياء إلى أدراج المطابخ. واحزري أين كانت موجودة؟ لقد أخبرني المفتش ناش قبل قليل (عندما التقيته وأنا في طريقي إلى هنا) أنها كانت في واحد من تلك الصناديق القديمة التي يحفظ بها الوثائق في مكتبه. صندوق ووثائق

عقارات الراحل السير جاسبر هارينغتن وست.

قالت السيدة كالثروب: مسكين جاسبر. كان أحد أبناء عمومتي وكان عجوزاً مستقيماً، ولو علم بذلك لأصيب بنوبة قلبية!

سألتها: ألم يكن من الجنون أن يحتفظ بها؟

قالت السيدة كالثروب: ربما سيكون أكثر جنوناً لو رماها. لم يكن أحد يرتاب بسيمنغتن أبداً.

قالت جوانا: إنه لم يضربها بيد الهاون. كانت هناك أيضاً كرة حديدية من تلك التي تُعلق في الساعات الجدارية وعليها شعر ودم، ويُظن أنه سرق يد الهاون في اليوم الذي اعتُقلت فيه إيمي وأنه أخفى صفحات الكتاب في بيتها، وهذا يعيدني إلى سؤالي الأصلي: ماذا عن إيمي غريفيث؟ لقد شوهدت عملياً وهي تكتب تلك الرسالة.

قالت الآنسة ماربل: بالطبع، فقد كتبت «تلك» الرسالة فعلاً.

- ولكن لماذا؟

- يا عزيزتي! لا بد أنك أدركت أن الآنسة غريفيث كانت تحب سيمنغتن طول حياتها.

قالت السيدة كالثروب بطريقة آلية: المسكينة!

- لقد كانا صديقين حميمين دائماً، وأحسب أنها رأت بعد وفاة السيدة سيمنغتن أنها ربما استطاعت في يوم من الأيام...

تحنحت الأنسة ماربل مفضلة التلميح على التصريح، ثم أضافت: ثم بدأ الكلام ينتشر عن إلسي هولاند، وأظن أن هذا ضايقها كثيراً. رأت في الفتاة امرأة لعوباً تخطط لإيقاع سيمنغن في أحبالها وأنها غير جدية به. وهكذا، أحسبها استسلمت للإغراء: لماذا لا تكتب رسالة إضافية واحدة وترعب الفتاة بحيث تخرجها من المنزل؟ لا بد أن الأمر بدا لها آمناً تماماً وظننت أنها أخذت بكل الاحتياطات.

قالت جوانا: وبعد ذلك؟ أكملني القصة لو سمحت.

قالت الأنسة ماربل ببطء: يُخَيَّل لي أن السيد سيمنغن عرف على الفور كاتبة الرسالة عندما أرته إياها الأنسة هولاند، ورأى في ذلك فرصة لإنهاء القضية وتأمين نفسه إلى الأبد. لم يكن ذلك تصرفاً لطيفاً، نعم، ولكنه كان خائفاً، فما كان الشرطة ليقنعوا حتى يمسكوا بكاتبة الرسائل المجهولة. وعندما أخذ الرسالة إلى الشرطة وعرف أنهم شاهدوا إيمي وهي تكتبها شعر أن فرصة لا تلوح إلا نادراً تلوح له الآن لإنهاء القضية كلها.

وهكذا أخذ العائلة لشرب الشاي هناك عصر ذلك اليوم، وقد كان من السهل عليه - وهو قادم من مكتبه حاملاً حقيبته - أن يحضر فيها الصفحات التي قصّها من الكتاب لكي يخفيها تحت الدرج ويحسم القضية. وكان إخفاؤها تحت الدرج لمسة بارعة، فهو يذكّر الجميع بالطريقة التي أخفيت فيها جثة أغنيس. ومن الناحية العملية كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة له، فعندما لحق بإيمي في الصلاة كانت دقيقة واحدة تكفي لهذا العمل.

قلت: ومع ذلك يبقى شيء واحد لا يمكنني أن أعفّره لك يا آنسة ماربل، إقناعك ميغان بالمشاركة في هذا الأمر.

وضعت الآنسة ماربل صِنارتها جانباً ونظرت إليّ من وراء نظارتها بعينين صارمتين وقالت: كان يجب عمل شيء يا عزيزي! لم يكن لدينا أي دليل ضد هذا الرجل الذكي جداً والمفتقر تماماً لأي وازع. كنت بحاجة لشخص يساعدني، شخص ذي شجاعة فائقة وذكاء كبير، وقد وجدت الشخص الذي أردته.

- كان ذلك خطراً كبيراً عليها.

- نعم، كان خطراً، ولكننا لم نُخلق للهروب من الخطر عندما تكون حياة إنسان بريء مهددة يا سيد بيرتن. هل فهمتني؟
وقد فهمتها.

* * *

الفصل الخامس عشر

ذات صباح في الشارع العام.

خرجت الأنسة إميلي من محل البقالة حاملة حقيبة مشترياتها وخذّاهما متوردان وعيناها منفعلتان، قالت: آه يا عزيزي السيد بيرتن، إنني أشعر حقاً بالإثارة وأنا أفكر في ذهابي في رحلة أخيراً!
- أرجو أن تستمتعي بها.

- أنا واثقة أنني سأفعل. لم أكن لأجرؤ على الذهاب بمفردي. يبدو أن الأمور قد انتهت إلى هذا الحال بفضل العناية الإلهية. لقد شعرت منذ وقت طويل بضرورة ترك منزل «ليتيل فيرز» وأدركت أن إمكاناتي المالية ضعيفة، ولكنني لم أستطيع تحمّل فكرة وجود غرباء فيه. أما وقد اشتريته الآن وقررت العيش فيه مع ميغان فإن الأمر مختلف تماماً. وإيمي بعد محنتها القاسية لا تعرف ماذا تفعل بنفسها، وأخوها سيتزوج (كم هو جميل أن تقررا أنت وجوانا الاستقرار عندنا!) وقد وافقتُ إيمي على المجيء معي. إننا نعتزم الرحيل لفترة طويلة.

ثم خفضت الأنسة إميلي صوتها وقالت: بل إننا ربما نذهب في رحلة حول العالم! وإيمي رائعة وعملية جداً. إنني أرى فعلاً

أن كل شيء ينتهي نهاية سعيدة.

فكرت للحظة عابرة بالسيدة سيمينغتن وأغنيس ودل في قبريهما وتساءلت إن كانتا ستوافقان على كلام إميلي عن النهاية السعيدة، ثم تذكرت أن صديق أغنيس لم يكن يحبها كثيراً وأن السيدة سيمينغتن لم تكن لطيفة مع ميغان، فلماذا أهتم كثيراً؟ لا بد أن نموت جميعاً يوماً ما! ووافقْتُ الآنسة إميلي السعيدة على أن كل شيء انتهى نهاية سعيدة.

مشيت في الشارع واتجهت إلى بوابة بيت سيمينغتن فخرجت ميغان لمقابلتي، ولم يكن لقاء رومنسياً لأن كلباً إنكليزياً ضخماً خرج مع ميغان وكاد يوقعني أرضاً بنشاطه سيئ التوقيت.

قالت ميغان: أليس رائعاً؟

- ولكنه مبالغ قليلاً في روعته. أهو لنا؟

- نعم، إنه هدية زفافنا من جوانا. لقد تلقينا هدايا جميلة، أليس كذلك؟ قطعة الصوف تلك التي لا نعرف لماذا تُستعمل من الآنسة ماربل، وطقم الشاي الجميل ذاك من السيد باي، كما أرسلت لي إلسي حمالة خبز توضع على المائدة.

- يا لها من هدية تمثل صاحبته!

- كما أنها حصلت على وظيفة عند طبيب أسنان وهي سعيدة جداً. و... ماذا كنت أقول؟

- كنت تعددين هدايا الزفاف. لا تنسي أن عليك أن تعيدها كلها إلى أصحابها إذا غيرت رأيك.

- لن أغير رأيي. ماذا تلقينا غير ذلك؟ آه، نعم، لقد أرسلت السيدة كالشروب لنا تحفة على شكل خنفساء مصرية.

- يا لها من امرأة متفردة!

- ولكنك لا تعرف الهدية الفضلى. لقد أرسلت لي بارتريدج هدية، إنها منشفة للأطباق، أبشع منشفة رأيتها. ولكني أعتقد أنها تحبني الآن دون شك، فهي تقول إنها طرزتها بيديها.

- أظنها طرزتها بعناقيد حصرم وأشواك؟

- لا، بل بصورة القلب رمزاً للحب.

- يا إلهي! إن بارتريدج تتطور!

كانت ميغان قد سحبتني إلى داخل البيت حيث قالت: شيء واحد فقط لا أستطيع فهمه، فإلى جانب الطوق والحبل الموجودين في عنق الكلب أرسلت جوانا طوقاً وحبالاً إضافيين. لأي شيء تظنها أرسلتُهما؟

قلت: هذه مزحة من مزحات جوانا.

* * *

-تَمَّت-

روايات أغاثا كريستي حسب ترتيب الصدور

العناوين العربية في هذه القائمة هي الروايات التي نشرناها في «الأجيال» والعناوين الأجنبية للروايات التي لم نشرها بعد (وسوف نشرها تباعاً خلال ثلاث سنوات بإذن الله)

- (١) قضيّة ستايلز الغامضة (١٩٢٠)
- (٢) The Secret Adversary (١٩٢٢)
- (٣) جريمة في ملعب الغولف (١٩٢٣)
- (٤) Poirot Investigates (١٩٢٤)
- (٥) ذو البدلة البنية (١٩٢٤)
- (٦) The Secret of Chimneys (١٩٢٥)
- (٧) مقتل روجر أكرويد (١٩٢٦)
- (٨) الأربعة الكبار (١٩٢٧)
- (٩) The Mystery of the Blue Train (١٩٢٨)
- (١٠) The Seven Dials Mystery (١٩٢٩)
- (١١) شركاء في الجريمة (١٩٢٩)
- (١٢) The Mysterious Mr Quin (١٩٣٠)
- (١٣) جريمة في القرية (١٩٣٠)
- (١٤) لغز سيتافورد (١٩٣١)

- (١٥) خطر في البيت الأخير (١٩٣٢)
- (١٦) ثلاثة عشر لغزاً (١٩٣٢)
- (١٧) موت اللورد إدجوير (١٩٣٣)
- (١٨) كلب الموت (١٩٣٣)
- (١٩) جريمة في قطار الشرق (١٩٣٤)
- (٢٠) The Listerdale Mystery (١٩٣٤)
- (٢١) لماذا لم يسألوا إيفانز؟ (١٩٣٤)
- (٢٢) تحريات باركر باين (١٩٣٤)
- (٢٣) مأساة من ثلاثة فصول (١٩٣٤)
- (٢٤) موت وسط الغيوم (١٩٣٥)
- (٢٥) الجرائم الأبجدية (١٩٣٦)
- (٢٦) Murder in Mesopotamia (١٩٣٦)
- (٢٧) أوراق على الطاولة (١٩٣٦)
- (٢٨) Murder in the Mews (١٩٣٧)
- (٢٩) Dumb Witness (١٩٣٧)
- (٣٠) موت فوق النيل (١٩٣٧)
- (٣١) Appointment with Death (١٩٣٨)
- (٣٢) جريمة عيد الميلاد (١٩٣٨)
- (٣٣) Murder is Easy (١٩٣٩)
- (٣٤) ثم لم يبقَ أحد (١٩٣٩)
- (٣٥) السَّرُّ الحزين (١٩٤٠)
- (٣٦) إيزيم الحذاء (١٩٤٠)

- (١٩٤١) Evil Under the Sun (٣٧)
(١٩٤١) N or M? (٣٨)
(١٩٤٢) جثة في المكتبة (٣٩)
(١٩٤٢) Five Little Pigs (٤٠)
(١٩٤٢) الإصبع المتحرك (٤١)
(١٩٤٤) Towards Zero (٤٢)
(١٩٤٤) في النهاية يأتي الموت (٤٣)
(١٩٤٥) Sparkling Cyanide (٤٤)
(١٩٤٦) The Hollow (٤٥)
(١٩٤٧) The Labours of Hercules (٤٦)
(١٩٤٨) ركوب التيار (٤٧)
(١٩٤٩) البيت الأعوج (٤٨)
(١٩٥٠) A Murder Is Announced (٤٩)
(١٩٥١) لقاء في بغداد (٥٠)
(١٩٥٢) موت السيدة ماغنتي (٥١)
(١٩٥٢) خداع المرآيا (٥٢)
(١٩٥٣) After the Funeral (٥٣)
(١٩٥٣) جيبٌ مليء بالحبوب (٥٤)
(١٩٥٤) Destination Unknown (٥٥)
(١٩٥٥) Hickory Dickory Dock (٥٦)
(١٩٥٦) مبنى الرجل الميت (٥٧)
(١٩٥٧) قطار ٤,٥٠ من بادنغتون (٥٨)

- (٥٩) محنة البريء (١٩٥٨)
- (٦٠) Cat Among the Pigeons (١٩٥٩)
- (٦١) مغامرة كعكة العيد (١٩٦٠)
- (٦٢) الحصان الأشهب (١٩٦١)
- (٦٣) شرخ في المرأة (١٩٦٢)
- (٦٤) الساعات (١٩٦٣)
- (٦٥) A Caribbean Mystery (١٩٦٤)
- (٦٦) في فندق بيرترام (١٩٦٥)
- (٦٧) الفتاة الثالثة (١٩٦٦)
- (٦٨) ليل لا ينتهي (١٩٦٧)
- (٦٩) By the Pricking of My Thumbs (١٩٦٨)
- (٧٠) Halloween Party (١٩٦٩)
- (٧١) مسافر إلى فرانكفورت (١٩٧٠)
- (٧٢) انتقام العدالة (١٩٧١)
- (٧٣) ذاكرة الأفيال (١٩٧٢)
- (٧٤) Postern of Fate (١٩٧٣)
- (٧٥) قضايا بوارو المبكرة (١٩٧٤)
- (٧٦) الستارة (١٩٧٥)
- (٧٧) الجريمة النائمة (١٩٧٦)
- (٧٨) القضايا الأخيرة للآنسة ماربل (١٩٧٩)
- (٧٩) Problem at Pollensa Bay (١٩٩١)
- (٨٠) While the Light Lasts (١٩٩٧)